٢٧١

لجنة
المجمع الثقافي الديني
لمنتدى النشر

اسبوع الإمام عليه السلام

طبع على نفقة بعض السادة من التجار في النجف
وارصد ريعه الى
مدرسة منتدى النشر الابتدائية

كربلاء
مكتبة الشيخ
الحاج سيد رضي سيد عطوي

طبع بمطبعة الراعي
في النجف

المجمع الثقافي الديني

اسبوع الامام عليه السلام

وهو مجموعة المحاضرات التي القيت في دار
منتدى النشر بمناسبة ذكرى الاستشهاد
على يد ابن ملجم عليه السلام

كربلاء
مكتبة الهاشمية
لصاحبها مرتضى سيد مصطفى
مطبعة الراعي

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

﴿اللجنه ؛ الاهداف وطرق التنفيذ ؛ خطوات، اسبوع الامام﴾
﴿المحاضرات ، كلمة الشكر﴾

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على محمد واله

(١)

وبعد تفكير كثير دام عدة من السنين استطاع قسم من اعضاء منتدى النشر ان يحقق فكرة كانت من اعظم ما يصبون اليه فى الحياة الاصلاحية الاجتماعية التى كانوا ينشدون تحقيقها منذ امد بعيد

وبهذا يتم ـ في سنة ١٣٦٣ ـ تأسيس (لجنة المجمع الثقافي الديني لمنتدى النشر) التى نأمل ان تكون للنجف نهضة جديدة يكون لها اعظم مستقبل يشهده العراق في تاريخ حياته الثقافية الدينية

(٢)

وهذه اللجنة تستهدف في حياتها (خدمة الاسلام) بكل ما لهذه الكلمة من المعاني المقدسة

وقد وضعت لتحقيق هذا الهدف خططاً ومناهج استوحتها من حاجة الاسلام والمسلمين في عصرنا الحاضر

والآن يهمنا ان نلتمس للقارئ الكريم بعض المناهج المعدة لذلك لنذكرها في صدر هذا الكتاب وهي

١ — التماس — كل ما في الشريعة الاسلامية المقدسة من لاسس القويمة التي وضعت لاصلاح المجتمع الانساني من الوجهتين ـ الروحية والمادية ـ ولتكوين مجتمع مثالي للانسانية الكاملة ـ ووضعها بين ايدي الناس بزة تلائم الاذواق في عصرنا الحديث

٢ — تلافي ما حدث في حالتنا الاجتماعية الحاضرة وذلك بان تعرض بالتفكير والتأمل لمواضع النقص فيها لتقوم بتكميلها من اقرب طريق ممكنة على ضوء تلكم الاسس المقدسة

٣ — احياء ذكرى ابطال المسلمين ومفكريهم في مختلف العصور والبيئات واستخراج العبر من حياتهم وارسالها بين الناس

٤ — ايجاد التفاهم والتعاون بين رجال الاصلاح في المجتمع الاسلامي الحاضر والاستعانة بارائهم في تحقيق ذلك الهدف القيم

٥ — بعث الكتب الثقافية القديمة دينية كانت ام ادبية وذلك باعادة طبعها وطبع مالم يطبع منها حتى الآن على ان يتم كل ذلك من طريق التأليف والنشر والمحاضرات

(٣)

وقد خطت اللجنة في سبيل تحقيق هـذا الهدف — على حـداثة سنها — بعض الخطوات التى تبشر بمستقبل واسع الأرجاء عميق التأثير وهذه بعض الاعمال التى قامت بها اللجنة حتى الان اضعها بين يدي القارئ الكريم ليعرف نموذج تلكم الاعمال وهي

أ — قد انتخبت من رجال الفكر والبيان — فى العراق وسوريا وايران والهند اعضاء شرف قديرين ترجو ان تصيب بمجهودهم كل ما تستهدفه في حياتها الثقافية الدينية وقد تفضل بعضهم بارسال نتاجه الفكري القيم ليلقي من قبله في قاعة اللجنة وستقرؤن في هذا الكتاب محاضرات قيمة لثلاثة من علماء سوريا وثمانية من ابطال الفكر في العراق

ب — وقد اعدت يوم الجمعة من كل اسبوع للمحاضرات العامة التى يرجون من ورائها تحقيق قسم من ذلك الهدف وقد جمع سجلها حتى الآن ما ينوف على مائة وعشرين محاضرة في مختلف الفنون الاسلامية ولعل الظروف تساعدنا على اخراجها ضمن مجاميع بالقريب العاجل ان شاء الله

جـ — وقامت بتأليف كتب علمية ثقافية نجز منها حتى الآن لسماحه رئيس اللجنة العلامة الشيخ محمد حسين المظفر — الشيعة والامامة — الشيعة وسلسة عصور الاسلام — ميثم ، ولكاتب هذه السطور زراره بن أعين — ابو فراس الحمداني — وهناك كتب اخرى لأساتذة اخرين في طريقها الى الكمال وستطبع جميعا بالقريب العاجل

ان شاء الله

د ـ وقامت باعداد اسبوع كامل للامام علي (ع) ابتدأ في الليلة الثانية والعشرين من شهر رمضان سنة ١٣٦٤ وحفلات كبرى للنبي (ص) وللأئمة الحسين والصادق بمناسبة ذكرى ولادتهم ولعيد الغدير

(٤)

واسبوع الامام ـ واظنكم قرأتم وصفه في بعض الصحف المحلية التي ارسلت ممثليها لمشاهدة هذا المهرجان ـ كان هو الاول من نوعه في العراق حضره جمهور كبير من العلماء والادباء والوجهاء من مختلف البلدان فكانت القاعة مزدحما لطائفة كبيرة من رجال الفكر في العراق وقد ساهم فيه من ابطال العلماء والمثقفين من اعضاء الشرف في المجتمع الاسلامي طائفة جليلة هي مثال التحقيق والتدقيق والمحاضرات التي القيت في القاعة كانت اربع عشرة محاضرة في كل ليلة محاضرتان

(٥)

والمحاضرات كما ينتظر ان تكون ـ رائعة الاسلوب جميلة التصوير جمعت الى الدقة العلمية طرافة الاداء والى عمق الفكرة اسلوبا مبسطا يستفيد منه العالم والمثقف والمبتدئ من الادباء وستقرؤن سيرة الامام مجلوة بهذه المحاضرات ستقرؤن عن نشأته وحياته، وعلمه، وعصره وفروسيته، وحياته السياسية وموقفه من الخلفاء وشخصيته الادبية

وماشا كل ذلك مما يعين القارئ على التعرف بسيرة الامام والكتاب ان قصر في رسم الصورة الكاملة لشخصية الامام فذلك لعمق في شخصيته رفعه عن مستوى العقول لا لقصور في المحاضرين والا فقد ادوا ما عليهم كل ضمن اختصاصه باجمل ما يتصور من الاداء وكم كنت اتمنى لو تساعدني ازمة الورق لاقف من الكتاب موقف المحلل الناقد الذى يريد ان يلتمس في المحاضرات مواقع الجمال ـ وما اكثرها ـ ليضعها بين يديك ايها القارئ العزيز ولكن الذي يهوّن الامر علي وعليك انك تستطيع ان تتعرف اليها بسرعة وذلك لمجرد النظر في الكتاب فانها من الكثرة والسهولة لا تكلفك شيئا من العناء

(٦)

ولعل هذا هو السر فى توجه الطلبات من اكثر المستمعين على اللجنة في ان تطبع المحاضرات ولعل هذا هو السر في تسابق المتبرعين لطبعها من الحاضرين فقد توجه جملة من التجار الغيارى على الاسلام الى اللجنة وطلبوا ان يقوموا بنفقات الطبع ولكن المحسن الكبير ـ الذى ابى ان نصرح باسمه احتفاظاً بالخدمات السرية التي لا يقصد بها الا وجه الله ـ ابى ان يترك المجال لغيره وقام وحده بجميع ما يتعلق به من النفقات

وعلى هذا فاللجنة تشكر للمحسن الوجيه هذه المساهمة في تأدية رسالتها وتشكر لحضرات السادة من المحاضرين تفضلهم باجابه دعوتها للمساهمة وتود ان تكون دائما عند حسن ظنهم وعسي ان تبلغ ذلك

وتشكر للعلماء والوجهاء من سائر البلدان تفضلهم بالحضور

محمد تقي الحكيم

من اعضاء الهيئة التأسيسية للجنة

الليلة الاولى

باب المدينة — الشيخ عبد المهدى مطر

علم امير المؤمنين — السيد محمد على كمال الدين

٩

باب المدينة

الشيخ عبد المهدي مطرعضو منتدي النشر
ومدرس الفقـه فى الصفوف العـالية من كلية
المنتدى وعضو شرف فى لجنة المجمع

ليست هذه المدينة التى اقصدها بكلمتي هذه من المدن المكشوفة التي يسهل على الغزاة والمدوخين احتلالها . انما هي القلعة الحديدية التي لا تصدعها يد الزمن والتي تزاد عظمة ومناعة كلما تقادم عليها العهد فهي تمشي مع الاحقاب والآباد كلما مشت المصاير والمغبات الى التقلص والتلاشي . تلك المدينة المنيعة هي (مدينة العلم) وبابها ذلك الباب الفولاذي هو الامام (علي بن ابي طالب)

لا شك ان هذه الفقرات استرعت انتباهكم الى الحديث النبوي المشهور ولست بصانع شيئا ان اردت ان ادلل على هذا الحديث بشيء الا كما ابرهن على الشمس في رائعة النهار .

وهذا الحديث يلمسنا ناحية واسعة من حقيقة شخصية قدسية قد تكهربت فيها نفوس العالم الاسلامي منذ اجيال واجيال ولعب التاريخ الاسلامي فى تحليلها دوره المهم وانشقت من اجلها الآراء الى شقين او ثلاث غال وقال ومعتدل وماذا كانت نتيجة الجدل مهما

حمي فيه الوطيس الا كما تتعقد المشاكل الغامضة . وهل اوقفنا هذا الاصطدام مهما كان شكله على ان هذه الشخصية الدينية هي كاحدى الشخصيات التي يمكن ان يتطرق اليها النقد من ناحية من نواحيها كلا ان كلما فهمناه من ذلك الجدل انها شخصية من اعلا طبقات البشر اوانها كون آخر فوق طبقة البشر . ونحن ان رجعنا الى الحديث الكريم رأينا يفسرها لنا تفسيراً يتلائم كل الملائمة مع التفسير الثاني اذ ليس احد ممن تضمه جدران التوحيد او تظله سماء الشهادتين يرى ان شخصية محمد (ص) تماثلها شخصية بشرية من ناحيتها الروحية . وهذا الحديث يدلنا بجلاء ووضوح على ان الباب هو من جنس تلك المدينة لا يفترق عنها الا بالاسم وان هذا الجوهر من ذلك المعدن فهما اذاً مدينة وباب وهما اذاً نبي ووزير وهما اذاً موسى وهارون . ولعل الحديث الشريف يصورهما لنا اكثر من ذلك يصورهما لنا روحا وبدنا ويعيد على مسامعنا نغمة الوحي الداوية ﴿ فقل تعالوا ندع ابنائنا وابنائكم ونسائنا ونسائكم وانفسنا وانفسكم ﴾ وحيا قدسياً صاغته التفاسير على اختلافها اكليلا لامعا توجت به رأس علي . اما اذا حاولنا ان نحيد عن هذا التفسير فاننا نصطدم بصخرة هذا الحديث الصارخ ونقذف بالذوق والوجدان الى هاوية . لا نرى من امة محمد ﴿ص﴾ من يشك ان علياً يملك هذه الثروة العلمية التي لم يملكها اي بشر آخر والتي نوه هو عنها بقوله ﴿ علمني رسول الله (ص) الف باب من العلم ينفتح لي من كل باب الف باب ﴾ لذا فانك ترى

اغلب رجال التاريخ يعتبرونه المؤسس لأغلب العلوم . اما في عهده فقد كانت المشاكل تتعقد على زعماء الامة فيفزعون بها اليه فيكشف غامضها فيقول احدهم لا كنت لمعضلة ليس لها ابو الحسن ويقول الاخر لولا علي لهلك عمر . وهكذا كان علي مفزعا للامة كلما هاجمها دعاة التبشير من القسوس والبطارقه وغيرهم وكان الاسلام يرتفع به عاليا حينما يفلج على تلك الهيئات التبشيرية المهاجمة بعد ان يتحرج الموقف برجال السلطة وكان المسلمون يعرفون لعلي مكانته العلمية ويقدرون له مواقفه المشكورة . وكان النبي الاعظم (ص) يدلل على هذه المكانة العالية ويكرر على مسامع اقطاب الامة دائما قوله (ص) (اقضاكم علي) نعم فقد كانت له مواقف في القضاء تندهش لها العبقرية ويحاد فيها التفكير ولعلنا نذهب بعيداً اذا نحن عددنا امثال هذه المواقف الشهيرة وما الحاجة بنا الى ذلك وامامنا الحجة الدامغة والبرهان الساطع ماثل بين ايدينا يرينا صفحة علمية زاخرة لا ينضب معينها تلك هي نهج البلاغة المعجزة الخالدة والاعجوبة الباهرة ترينا العلم بجميع صنوفه وضروبه ما تلافي شخصية علي عليه السلام .

ترينا كيف يقف الفن والعلم مهما تعاظما فى هذا القرن مبهوتين حائرين امام روعة النبوغ وجلال العبقرية في القرن الاول من الهجرة انك تقرأ علياً فى نهج البلاغة فتقرأ فيه العالم المشرح يحلل لك تراكيب اعضاء الحيوانات وعلاقة بعضها مع البعض الاخر وترى فيه العالم الفلكي ينحدر في طبقات الاثير فيتغلغل في كيفية تأثيرات الانواء

وما تحدثه اقترانات الكواكب وترى فيه الرجل الاخلاقي يحلل لك طبقات النفس وتأثيرها بشتى الطوارئ والشؤون وترى فيه الحكيم الالهي يتكلم فيما وراء الطبيعة بما يعجز الحكماء والفلاسفة والعظماء الالهيون ان يبلغوا بعدة اسفار ما تبلغه منه السطور القصار من البرهنة على وجود الصانع القدير وترى فيه الواعظ البليغ كيف يصف لك الانقلاب الكوني وساعة التلاشي والاضمحلال ثم العودة الى الحياة وكيف يجسم لك ممرات الصراط واهوال الموقف بما يقف له الشعر ويهفو له الروع

ليس هذا فقط هو علي بن ابي طالب وانما هي نظرة خاطفة جاءت كقطرة من بحر فليس علي الا مدرسة كونيه نثرت على العالم اشعتها العلمية وانارت الطريق لكل سالك في مسالك الحياة العلمية وكان المؤسسون الذين ألفوا ودونوا في سائر العلوم على اختلافها انما كانوا عالة على هذا المؤسس العظيم

واذا صح لنا ان نعتبر الحرب والسياسة من العلوم فان عليا هو ذلك العسكري المدرب الذى يضع الخطط العسكرية فلا تراه يرجع الا كما يرجع القائد الظافر والفاتح المنتصر وهو هو ذلك السياسي المحنك الذى يصح ان تدار « بعهده لمالك الاشتر » سياسة ممالك وشعوب

لقد اندفع بنا التحدث عن هذه النواحي الى الخروج عن الموضوع شيئا فموضوعنا التحدث عن علمه سلام الله عليه . فاقول انني وقارئي الآن امام امر واقع لا سبيل الى انكاره ذلك ان علم الحديث والفقه ذلك العلم الذي قامت عليه كلمة التوحيد ودانت من

اجله الرقاب لسيف النبي الاعظم العلم الذى يصح لنا ان نعتبره وحده هو الدين هذا العلم قد انقسم الى طائفتين ما يرويه الجمهور وما يرويه الخاصة اما ما يرويه الخاصة فان لم يكن ليؤخذ من منابع مختلفة وآراء متضاربة انما كان من معين واحد هو اخذهم عن ائمتهم آل البيت ومن المعلوم من حال هؤلاء الأئمة انهم لا يروون الا عن جدهم امير المؤمنين . واذا فهذا الفريق من قسمى العلم الذى امتلئت به ارجاء العالم الاسلامي وانتفخت باسفاره بطون الطوامير ودان به الشطر الاكبر من الامة الاسلامية انما كان لمحة من اشعة هذا الامام العظيم .

وقد تخرج على هذا العالم الكبير جمهور من اعاظم الصحابة والتابعين كعبد الله بن عباس وابي الاسود الدؤلي وامثالهما ممن يتجاوز حد الاحصاء

﴿ تهنئة وتعزية ﴾

يحق لي بكل فخر واعجاب ان اهنئ العالم الاسلامي اجمع بمثل هذا الامام العظيم فامة يكون بطلها مثل هذا العالم القدسي لأمة جديرة ان تطاول الامم فخراً وشرفا ، واذا كان موت العالم ثلمة لا يسدها الا عالم مثله فبماذا يكون عزاء الامة الاسلامية وفقد هذا المؤسس الكبير ثغرة شاغرة ما سدت ولن تسد بمثله

وان جناية الخارجي ابن ملجم على الاسلام جناية هدمت اسس الدين ودكت دعائم الاسلام ؛ ولو ان ابن ملجم امهل علياً ولو عاش علي عقداً آخر من عمره لانتشر العلم في الاقطار الاسلامية ولازدهر

١٤

العصر الاول للاسلام بفنون العلم والوان الثقافة ولبلغت المعارف الدينية اوجها واخذت عظمتها ولسيطر الاسلام باقل من الوقت الذى سيطر به على الشعوب والممالك فان قوة العلم نفاذة سريعة الاستيلاء تسبق قوة السيف والرمح

وكم كانت الظروف الاسلامية يومئذ بحاجة ماسة الى علماء ينشرون العلم في ارجاء المعمورة ويكتسحون التقاليد والاضاليل المخيمة على العالم ، وهل كان الاسلام يومئذ يملك مثل هذه القوة النفاذة بغير شخصية واحدة هي شخصية علي بن ابي طالب ، انما كانت هذا الضربة المشومة هي الضربة القاضية على الثقافة الاسلامية باسرها . وهل كان التقلص العلمي في الشرق وانتشار الثقافة العامة في الغرب الا كنتيجة رد فعل لما تركته هذه الضربة الحمقاء والضربات المتتابعة الاخر التى اعقبتها من ائمة الجور والضلال على رجال العلم والدين خلفاء علي لا شك ان هذه الضربة هي التي وسعت المجال لمعاوية بن ابي سفيان ان يركز نفوذه الاهوج في العالم الاسلامي ، وبذلك تمهد السبيل لمن خلفوا معاوية وورثوا عنه ذلك التراث الاخلاقي ان ينشروا في اطراف الدولة الاسلامية حب الترف والنعيم والتغلغل في الفجور وانتهاك الحرمات ومطاردة العلماء ورجال الدين واستئصال شأفتهم بدون رأفة او رحمة

لقد ضاع العلم بعد علي ووقف جهاز الحركة العلمية بعده واصبحت الارض منجرفة بلولب العاصفة الدموية الهوجاء التي كان يثيرها رجال السخط الاموي واذنابهم امثال زياد وابنه عبيد الله

والحجاج ويوسف بن عمرو ممن كانوا لا يرون الدين والعلم قيمة ولا للنفس والمال حرمة .

فتلاشت المعارف وتقلص ظل الثقافة . ولولا ان العلم استعاد رونقه ورواءه في أبان تشكيل الدولة العباسية وذلك بفضل ما نشره الامامان الصادقان عليهما السلام من العلوم والمعارف التي تلقياها عن جدهما امير المؤمنين . فقد حدث احد رجال الحديث قال رأيت في مسجدكم هذا ﴿ ويشير لمسجد الكوفة ﴾ اربعة الاف شيخ كل يقول حدثني جعفر بن محمد ولم يكن العباسيون باقل بليـة على العلم والدين من الامويين لولا انهم اصطدموا في عصرهم برواج سوق العلم والفضيلة واقبال الناس على آل الرسول يقتبسون منهم المعارف الدينية فقد كان هواة العلم وغواة الفضيلة يجوبون البلاد ويتخللون الاقطار ساعين وراء العلم اينما ذكر لهم

فكانت المدينة المنورة محط اثقال هؤلاء وكان ازدحامهم على ابواب محمد الباقر وابنه جعفر وحفيده الكاظم فيدخل الرجلان والثلاثة والاكثر وفي محازمهم المحابر وفي ايديهم القرطاس يثبتون بالوقت ما يفوه به لهم احد هؤلاء الائمة من الاجوبة ليحتفظوا بذلك على معنى الحديث ولفظه مما جعل العباسيين ان يخلقوا من اتباعهم واجراثهم جماعات رشحوهم لطلب العلم واغدقوا عليهم الاموال ليؤهلوهم لمعارضة العلم الصحيح وليقابلوا بهم وجهاً لوجه التيار العلمي الذى تدفق على العالم من مدرسة جعفر بن محمد وابيه واحفادهما وليحتفظوا بصبغتهم الدينية امام العالم الاسلامي ليغطوا به ما

كانوا يقومون به من اعمال بربر به وحشية لاتقل عن اعمال اسلافهم الامويين من سفك الدماء ونهب الاموال والانغماس في الترف والنعيم والعكوف على الفجور والفسوق والرواقص والمغنيات وامثال ذلك وحتى افرطوا في ذلك وتجاوزوا الحد لما لا يكاد يقبله السمع فاي ملك في العالم مهما كان في خسة النفس وضعة الاخلاق قيل عنه انه قد عمل له بركة من الخمر فكان يسبح فيها ثم يشرب منها حتى يبين النقص في اطرافها ؛ حقا لقد ضاعت الفضيلة في هذا العصر وتدهور العلم واشرف الدين على الخطر لولا ان جعفر بن محمد واحفاده الأئمة استطاعوا ان يستنقذوا الموقف الديني من تلك المغبة وأن يستعيدوا بهجة علم جدهم أمير المؤمنين ورواءه حتى بلغ العلم في زمن الرضا والجواد عليهما السلام أوجه وعظمته وهذة لمحة من أشعة أمير المؤمنين وقبس من أنواره فعلى روحه الزاكية الطاهرة سلام الله وصلاته ومغفرته ورضوانه

بقلم
عبد المهدى مطر

١٧

السيد محمد علي كمال الدين

علم امير المؤمنين عليه السلام

كاتب المحاضرة عضو شرف في لجنة المجمع وهو ممن احتضنته جدران جامعة النجف فكان من ثمرات مدارسها الادبيه والعلمية وتثقف ثقافة حديثة فأصبح ألمعياً يشار اليه حتى اختير للتعليم في مدارس الحكومة مدرسا قديراً وقد ساهم في النهضة العراقية الجديدة باعماله وبقلمه البليغ الذي كانت له جولات مشهورة في الصحافة

ايها السادة اما بعد : فلقد رأيت ان اتحدث اليكم بحديثي هذا كباحث مجرد عن العواطف مهما كان نوعها او جنسها ما امكنني ذلك مستمداً منه تعالى العون والمساعدة في هذا السبيل .

ان البحث في علم امير المؤمنين كبير الخطر عظيم الجدوى واول ما يبدو للخاطر سؤالان متلابسان :

١٨

١ — ما علم امير المؤمنين ٢ — ما انواعه والوانه

قبل الجواب على هذين السؤالين لا بد للباحث من معرفة مفهوم كلمة (العلم) لدى ابناء تلكم العصور . سادتي لقد فسر علماء اللغة كلمة العلم بالمعرفة كما فسروا كلمة المعرفة والحكمة بالعلم فتكون هذه الكلمات الثلاث — العلم والمعرفة والحكمة — مترادفة في عرفهم ولذلك كانوا اذا اطلقوا كلمة العلم انصرف مدلولها الى المعرفة والحكمة . ولا يظنن احد ان عرف العرب هذا يستلزم — شذوذهم فقد عرف هذا المدلول منذ عصر افلاطون فهو يرى ان (١) الفلسفة هي العلم وهي المعرفة العامة والذى يقابلها الفن او التطبيقات العلمية نعم زاد علماؤنا شمول كلمة (العلم) على التفقه في الدين وذلك ان معظمهم كان يتفقه في الدين شأن علماء سائر الاديان . ومن هنا كانت كلمة العلماء تعم الفقهاء ايضا . سادتي اظن في هذا التفسير نجد الجواب على السؤالين وهو ان علم امير المؤمنين يكون جماع المعرفة والحكمة والتفقه في الدين التي سنعرض لها في حياته وفي دراسة ناحية من نهج البلاغة .

سادتي لست بناس اني اقف بحضرتكم كباحث مجرد عن العواطف كما انني على علم في هذا العصر عصر الشك والنقد . ولهذا اجد في احس بشياطين تهمس في اذني سائلة اين درس امير المؤمنين ؟ وعلى يد اي استاذ درس ؟ وما مدة دراسته ؟ ولعمري انها لأسئلة

(١) كتاب المدخل في الفلسفة طبعة مصر وترجمة ابو العلا عفيفي باشا .

تظهر متانتها في باديء الرأى لدى قليلي العلم والمعرفة في دراسة التاريخ الاسلامي واحوال العرب العامة في تلكم العصور . وها نحن اولاء نجيب على هذه الاسئلة الثلاثة : نعم درس امير المؤمنين فى مدرسة الرسول الصادق الامين عليه الصلوة والسلام منذ صار في حجره بعد ان اكمل السادسة من عمره وواضب على دراسته في احضان النبوة الى ان قبض الرسول واختاره الله الى جنانه وقد بلغت مدة هذه الدراسة ثمانية وعشرين عاما تقريباً تلقى فى خلالها جميع علوم تلك المدرسة على يد اعظم استاذ . وليسامحني السادة ان اضرب مثلا وان لم تتزن فيه المقايسة : يحدثنا علماء الاثر ان الامام الشافعي تفقه في الدين وافق وهو ابن خمس عشرة سنة وان العلامة الحلي بلغ الاجتهاد في العلم ولما يبلغ الخامسة عشرة (١) اقول : فاذا كان هذان العالمان بلغا تلك الدرجة العالية في هذه المدة الوجيزة على يد اساتذة هم سائر العلماء فماذا يكون مقياس تلك الدرجة العلمية التي نالها تلميذ الرسول الامين فى مدة ثمانية وعشرين عاما وهو من تعلمون . نعم حدثنا الرسول الامين عن مقياس هذه الدرجة بقوله ﴿ انا مدينة العلم وعلي بابها فمن اراد المدينة فليأت الباب ﴾ وفي حديث آخر : قال ﴿ من اراد أن ينظر الى نوح في عزمه وموسى في علمه وعيسى في ورعه فلينظر الى علي بن ابي طالب ﴾ وفي حديث ثالث قال (٢) ﴿ اقضاكم علي ﴾ واما رأي الصحابة فتحدث عنه الكلمة

﴿ ١ ﴾ كتاب روضات الجنات ﴿ ٢ ﴾ عن المجلدة الاولى من شرح ابن ابي الحديد في الصفحة السادسة

التاريخية وهي : ﴿لولا علي (١) لهلك عمر﴾ وقد قيل لابن عباس (٢) ﴿ اين علمك من علم ابن عمك فقال : كنسبة قطرة من المطر الى البحر المحيط ﴾ .

سادتي : اشعر بان بياني هذا غير كاف لرد تلكم الوساوس والشياطين واجدها لا تزال تهمس في اذني متعمقة في السؤال باية حجة تدفع من انكر علم امير المؤمنين عطفا على انكاره الدين ومن بشر به ؟ وللجواب على هذا السؤال لا بد لنا من عرض وتحليل لحياة امير المؤمنين والحالة العامة حينذاك ولو على وجه الاجمال : نعم لقد ترأس امير المؤمنين مدرسة المدينة الكبرى بعد وفاة الرسول مدة اربع وعشرين سنة وهي مدة خلافة الخلفاء الثلاثة وقد جنب في خلالها هو وجميع بني هاشم عن مباشرة المسؤليتين السياسية والحربية في حين ان مدرسة المدينة هذه ضمت اليها عشرات الالوف من الاسرى وهم ابناء امبراطوريتي كسرى وقيصر وكانوا تحت رياسته يتدارسون في مساجدها وجوامعها ونواديها الوان الحكمة والمعرفة — سواء الرومانية منها واليونانية ام الفارسية و العربية والعبرية والسريانية والقبطية اضافة الى دراسة معارف القران الكريم والاحاديث النبوية والسنة الشريفة — ولوأننا اضفنا سنى هذه المدة الى مدة دراسته في مدرسة الرسول لتجاوز مجموع مدد دراسته نصف القرن . هذا مع عدم ضم سني خلافته لهذا المجموع ومن الامور الواضحة ان مدة نصف القرن تزيد على مدة اعلى درجة علمية يمكن حيازتها — وعليه فهل يبقى

﴿١﴾ عن ج ١ ص ٦ ﴿٢﴾ ج ١ ص ٦

مجال لعاقل ان يشك فيما جاءنا عنه من العلم والحكمة والمعرفة وانه وحيد عصره .

سادتي اظن اننا قمنا بجواب منطقي على ذلك السؤال غير انني لا ازال أرى ضرورة الايضاح والوقوف على بعض انواع علم امير المؤمنين والوانه لتتم الفائدة وقد رأيت ان انسقها مجموعة في صنفين — صنف يتعلق في الدولة ويتعلق الاخر في الالهيات :

١ — اما ما يتعلق في الدولة :

فاولا — شكل الدولة : وكان يرى ان دستورها مبني على نظرية الامامة بالوصاية نصا بدلا من نظرية الانتخاب على اختلاف اشكالها . ومن المعلوم ان نظرية الوصاية هذه تتفق مع تقاليد العرب خلافا لمزاعم بعض المستشرقين كما انها تتفق مع نظرية جميع دول العالم حينذاك ولعمري لقد كانت نظريته عين الصواب بدلالة ان نظرية الانتخاب لم تعش لدى هذه الامة طويلا فسرعان ما تلاشت وهو برهان على عدم انسجامها مع اوضاع العرب الاجتماعية في ذلك العصر هذا على تقدير التسليم بصدق عنوان الانتخاب عليها .

الثاني نقل عاصمة الخلافة الى العراق لقد دله علمه والتجارب التي مرت امامه على ضرورة نقل العاصمة من الجزيرة الى العراق . ومن الامور الواضحة ان في نقل العاصمة انقلابا عظيما في شكل الدولة — انقلابا من فقر الجزيرة وخرابها الى غنى العراق وعمارته انقلابا من بساطة الاوضاع الاجتماعية والسياسية والادبية الى تعقداتها في العراق — انقلابا من مجموعة عنصرية متجانسة الى

اخلاط من الناس ومن آراء واهواء متقاربة الى عقائد وملل ونحل متضاربة . ومن منبت ممالك وامارات صغيرة الى مركز امبراطوريات عظيمة . وعلى الاجمال انتقال من حالة بدوية وقروية في الحجاز الى حالة مدنية — وقد جرت السنن السياسية ، ايها السادة ألا يحصل نقل العاصمة بهذا الشكل الا بعد انقلاب او في بدء انقلاب يقوم به عظيم من العظماء ، وربما كان في وقعة الجمل حوافز على هذا النقل غير ان تشريعه وتنفيذه امام انظار الانصار والمهاجرين لا يمكن ان ينهض بتحقيقه الا مثل أمير المؤمنين وكذلك القيام بملأمة قومه وانسجامه مع المحيط الجديد ، وقد تحقق في هذا النقل امران مهمان : الامر الاول التغيير العام في جميع اسس الدولة والمجتمع على افضل ما يمكن ؛ وقد استفاد من ذلك معاوية فسهل عليه اتخاذ دمشق عاصمة له ، والامر الثاني تركيز دعائم الدولة بين سكان هذه الديار وتقليص سائر النحل والاديان فلم نعد نسمع شيئا مهماً لنفوذ المجوس ونيرانهم واديرة الرهبان في طفوف الفرات ودجلة وفي قرى السواد ودساكره وانكمش معظمها في شمالي العراق وشرقيه ، ولعمري لولا اثر امير المؤمنين الشخصي لما كان نصيب اهل العراق في هذه الناحية اقل من نصيب اهل البلاد التي حكمها امثال معاوية

الثالث — مما يتعلق بالدولة سياسة المملكة والادارة العامة فيها كان يرى المحافظة على النظام والامن متقدمة على اي شيء آخر وقد تجلى ذلك في ظاهرتين : اولاهما تداخله على سبيل المشورة في انتقاء

بعض الولاة والعمال والقواد للامصار وعزلهم ، والظاهرة الثانية سخطه على الفوضى التي قام بها بعض الخوارج تحت ستار قولهم ﴿ما الحكم الا لله﴾ فاعلن انه لا بد لهذه الامة من آمر بر او فاجر ﴿١﴾ واما نظرياته الادارية وسياسته الداخلية فقد اوضحها في عهده للاشتر النخعي أجمل ايضاح وقد تضمنت جميع النظريات في ذلك العصر ولسنا في صدد البحث فيها

الرابع ـ الاقتصاد والسياسة المالية ـ فقد كانت نظريته ان المال ملك الامة لا ملك الخليفة او الامام او السلطان ولا يسوغ للآمر التصرف فيه كيفما شاء ولذلك انتقد بعض التصرفات المالية التي قام بها البعض مر الانتقاد مثل اعطاء الحارث بن الحكم ثلثمائة الف درهم واعطاء زيد بن ثابت مائة الف درهم واعطاء مروان الحكم خمس الفيء من افريقية الى غير ذلك ، ومن سياسته المالية المساواة في توزيع الاعطيات للجنود ، أما حرصه على مال الامة فيظهر جلياً في عملية الحديدة المحماة مع أخيه عقيل المعروفة .

الخامس ـ القضاء : ـ وكان للفكرة القضائية أثر عميق في نفسه ولذلك تمسك بالنظريات القضائية وقدس احكام الحكام يدل على ذلك وقوفه في مجلس القضاء امام قاضي الكوفة مدعياً بدرع له على خصم يهودي ولم يتذمر من خسران الدعوى لعدم توفر الشهود لأقامة البينة ، ولولا اعتراف اليهودي لما رجع القاضي عن حكمه ولما عادت الدرع الى امير المؤمنين ﴿٢﴾ وللدليل على تصلبه في الفكرة

﴿١﴾ ج ١ ص ٢١٤ ﴿٢﴾ عن عبقرية الامام للعقاد

القضائيه عدة حوادث : منها مباشرته بنفسه لتنفيذ الحد على والي الكوفه — الوليد بن عقبه بن أبي معيط — لثبوت تعاطيه الخمرة ومنها انه لم يحرق الغلاة الا بعد أن قامت البينه على كفرهم مع عدم ارتداعهم بتهديده ووعيده لهم ؛ ومنها انه لم ينهض لقتال الخوارج الا بعدأن قامت البينه القضائيه بنقضهم للعهد وصدعهم للحق والعدل والنظام ، ان هذه الفكرة القضائيه منبعثه من تمكنه على القضاء وسعه علمه فيه ، وقد حدثنا التاريخ عن كثير من حلوله لمشاكل القضاء وفروض الميراث ، حتى كاد الخليفه عمر أن يحصر الفتوى فيه حيث قال : ﴿ لا يفتين أحدكم وعلي حاضر في المسجد ﴾ (١)

السادس — العمارة والخراج — وكان رأيه فيها ان عمارة الارض والمملكه متقدمه على جمع الخراج لذلك طلب تخفيفه عن المتضررين كما جاء في عهده للاشتر بقوله : ﴿ وليكن نظرك في عمارة الارض أبلغ من نظرك في استجلاب الخراج لان ذلك لا يدرك الا بالعمارة ومن طلب الخراج بغير عمار أخرب البلاد وأهلك العباد ولم يستقم أمره الا قليلا فان شكوا ثقلا أو علة أو انقطاع شرب أو بالة أو احالة أرض اغتمرها غرق أو أجحف بها عطش خففت عنهم بما ترجو ان يصلح أمرهم ﴾

٢ — في الالهيات ﴿ ميتا فيزيقا ﴾

سادتي : هذه هي آراؤه في شكل الدولة وهو الصنف الاول من علمه أما الصنف الثاني وهو آراؤه في الالهيات فقد وضع فيها مناهج

---

(١) ج ١ ص ٦ البالة ما يبل الارض من قطر

٢٥

وخططاً تتلائم مع القران الكريم والحديث والسنة . وسنقتصر في محاضرتنا على ثلاث من هذه المقالات ١ ـ القضاء والقدر ٢ ـ الوجود ٣ ـ الصفات ، ونحن بادئون بالقضاء والقدر

١ ـ القضاء والقدر

لقد بدأ امير المؤمنين هذه النظرية بنظرية عدم تكفير ذوي المعاصي ذلك التكفير الذى سمع لاول مرة من بعض الصحابة فانكره عليه امير المؤمنين فترك كما حدثنا عن ذلك ابن ابي الحديد ﴿١﴾ وقد تمسك بنظرية التكفير قتلة عثمان وتبعهم الخوارج الذين كفروا عليا ومعاوية جميعا واستتبع هذا التكفير اخذ البعض بالنظرية القدرية او الجبر كرد فعل للتكفير تمهيداً لبيان خطأ هذا التكفير كما يظهر ذلك من كلام الشامي عندما سمع امير المؤمنين يقول : ﴿٢﴾ ما وطأنا موطئاً ولا هبطنا واديا الا بقضاء الله وقدره ﴾ فقال الشامي : (فعند الله احتسب عناي ما ارى لي من الاجر شيئا وكيف والقضاء والقدر ساقانا) ويظهر من كلام الامام ومن صراحة كلام الشامي ان الامة كانت منقسمة على نفسها الى قسمين ـــ مجبرة قدرية تبرئ بعض الصحابة من الاغلاط ومفوضة تقول بالاختيار وهم الخوارج المكفرون لذوي المعاصي ولكن امير المؤمنين وفق بين آراء القسمين وحل مشكلة الخلاف حلا دقيقاً في جوابه على كلام ذلك

﴿١﴾ ج ١ ص ٢٣٨ ﴿٢﴾ ج ٤ ص ٢٧٧

الشامي حيث قال : ﴿ ويحك لعلك ظننت قضاء لازما وقدراً حاتماً لو كان ذلك كذلك لبطل الثواب والعقاب وسقط الوعد والوعيد . ان الله سبحانه وتعالى امر عباده تخييراً ونهاهم تحذيراً ﴾ . سادتي يكون امير المؤمنين هو السابق في وضع نظرية وسطى او حل وسط فلا جبر مطلق ولا تفويض مطلق فقد يحصل الجبر في بعض السنن الطبيعية او يحصل فيها الاختيار . واما الامور الكسبية والنظريات الفكرية فالاختيار في بعض نواحيها ظاهر . ايها السادة ومما هوجدير بالذكران علماء الطبيعة في عصرنا هذا وكذلك الفلاسفة وعلماءالنفس والاجتماع اخذوا بهذه النظرية — نظرية لا جبر ولا تفويض واهملوا النظريتين جميعاً نظرية الجبر المطلق والحرية المطلقة

٢ — الوجود

سادتي لقد اتينا على بحث القضاء والقدر والآن نستعرض علم امير المؤمنين في مسائل الوجود وعند تحليل خطب نهج البلاغة نجده في بعضها يتفق هو وبعض الفلاسفة في اثبات الخالق من طريق بحث الوجود كما نجده في البعض الاخر يتفق هو وآراء المتكلمين في اثبات الباري من طريق الموجودات الممكنة — اما امثلة الطريق الاول اعني الوجود فقد جاءت في عدة موارد من خطبه ففي خطبة له (١) قال : ﴿ كائن لا عن حدث موجود لا عن عدم ﴾ وفي خطبة

---

(١) ج ١ ص ٢٥

اخرى ﴿١﴾ قال : ﴿ الحمد لله الذى بطن خفيات الامور ودلت عليه اعلام الظهور وامتنع عن البصير فلا عين من لم يره تنكره ولا قلب من اثبته يبصره ﴾ وايضا من خطبة له ﴿٢﴾ قال : ﴿ الحمد لله الذى لم تسبق له حال حالا فيكون اولا قبل ان يكون آخراً و يكون ظاهراً قبل ان يكون باطناً ﴾ ومن خطبة له ﴿٣﴾ قال : ﴿ الاول الذى لم يكن له قبل فيكون شيء قبله والاخر الذى ليس له بعد فيكون شيء بعده والرادع اناسي الابصار عن ان تناله او تدركه ﴾ ومن خطبة له ﴿٤﴾ قال : ﴿ ليس لأوليته ابتداء ولا لأزليته انقضاء هو الاول ولم يزل والباقي بلا اجل ﴾ . سادتي في هذه الامثلة القيمة من خطب امير المؤمنين نجد منهج الفلاسفة فى اثبات الوجود بارزاً وذلك فى كينونة واجب الوجود وانه غير حدث متأثر بالزمان وان وجوده الذاتي غير مسبوق بالعدم فان كل هذه معان ومسالك فلسفية وكذلك قوله ان اعلام الظهور وسمات الوجود تدل على وجوده الى درجة ان عين من لم تره لا تنكر وجوده وكذا عقل من لم يبصره . ولم يقتصر امير المؤمنين في بحثه الفلسفي على اثبات الوجود بل تعداه الى اثبات الوجوب لهذا الوجود كما فهم من قوله بعدم سبق حالته حال اخرى فان معنى ذلك انه تعالى لم يسبق بالعدم وكما يفهم ايضا من بيانه انه تعالى

﴿١﴾ ج ١ ص ٢٩٢ ﴿٢﴾ ج ١ ص ٤٧١ ﴿٣﴾ ج ٢ ص ١٣٨
﴿٤﴾ ج ٢ ص ٤٧٨

لم يسبقه سابق في اوليته ولم يلحقه لاحق في اخريته غير ان امير المؤمنين سلك مسلك الاستقراء لا مسلك الاستنتاج الذى اخذ به الفلاسفة واليكم رايهم قالوا : ان الوجود لا يخلو من احد امرين — ممكن وواجب — ولا يصح ان يكون وجود الباري ممكنا لان الممكن لا يتقوم بنفسه وانما ينتهي اخيراً الى الواجب فيستنتجون منه الوجوب لذلك الوجود . سادتي وكذلك لم يكتف امير المؤمنين في اثبات وجوب الوجود بل بين نظرية ان وجوده عين ذاته كما يفهم من بيانه بعدم انقضاء ازلية الباري وعدم زوال اوليته فان هذا صريح بدوام وجوده مادام الوجود وقد اثبت الفلاسفة هذه النظرية حسب مناهجهم بان ابانوا انه لو فرض ان مسمى الوجود يفيض على الموجودات الممكنة بحيث يشتمل ذات الباري وغيره لكان الباري ممكنا حادثا ايضا في حين انهم اثبتوا الوجوب لوجوده وهذا خلف وانه لو فرض ان مسمى الوجود يقصر عن ذاته تعالى لاستلزم اسناد جزئية العدم الى ذات الباري وهو خلاف وجوب وجوده — وبهذه الطريقة تحصل لهم النتيجة وهي ان وجوده عين ذاته وهو المطلوب . سادتي هذه بعض آراء امير المؤمنين الفلسفية في الوجود وهي من المسائل العويصة عرض لها فلاسفة اليونان منذ عصر الايونيين فا فلاطون فارسطو ، وكانوا يعنونون هذه الابحاث وما يتصل بها ﴿ ميتافيزيقا ﴾ اى ما وراء الطبيعة . سادتي ولنعد الآن الى استعراض كلام امير المؤمنين المتفق مع آراء المتكلمين في اثبات

الواجب من طريق الممكنات الموجودة فمن خطبة له (١) قال ﴿ الحمد لله الدال على وجوده بخلقه وبحدث خلقه على ازليته وباشتباههم على ان لا شبه له لا تستلمه المشاعر ولا تحجبه السواتر لافتراق الصانع والمصنوع ﴾ ومن هذه الخطبة قوله : ﴿ من وصفه فقد حده ومن حده فقد عده ومن عده فقد ابطل ازله ومن قال كيف فقد استوصفه ومن قال اين فقد حيزه ﴾ ومن خطبة له اخرى (٢) قال : ﴿ لا تقدره الاوهام بالحدود والحركات ولا بالجوارح والادوات لايقال له متى ولا يضرب له امد بحتى، الظاهر لا يقال مما والباطن لا يقال فيما لا شبح فيستقصى ولا محجوب فيحوى لم يقرب من الاشياء بالتصاق ولم يبعد عنها بافتراق ﴾ ومن خطبة له ايضا (٣) قال : ﴿ الحمد لله الذى لا تدركه الشواهد ولا تراه النواظر ولا تحجبه السواتر الدال على قدمه بحدوث خلقه وبحدوث خلقه على وجوده ﴾ .

نجد في هذه الفقرات السامية ايها السادة عرضا واضحاً لطرق علماء الكلام فى اثبات وجوده تعالى . فمن هذه الطرق ان الاجسام وما حل فيها من القوى جميعا محدثة ولا بد للمحدث من محدث . ويفهم هذا من قول الامام الدال على وجوده بخلقه ، ومن هذه الطرق ان ذلك المحدث الاول ازلي دائم الوجود بدليل انه لو كان حادثا لاحتاج الى محدث ايضا وهكذا يترتب الاحتياج بحيث يلزم منه

---

(١) ج ٢ ص ٤٤٢ (٢) ج ٢ ص ٤٧٨ (٣) ج ٣ ص ١٩٤

التسلسل وهو محال لدى علماء الكلام فمن هذا يثبت لديهم انه ازلي ويفهم هذا من قول الامام وبمحدث خلقه على ازليته . ومن الطرق التي نحن بصددها ان ذاته ليست كسائر الاجسام وان اشتباه الاشياء وتماثلها يدلان على ان نوع المادة الجسمية للاشياء الكونية غير مختلفة فلو كان نوع جسمه تعالى مثلها لكان محدثا ايضا او انها تكون قديمة مثله وكلاهما محال فيثبت بذلك انه ليس كالاجسام كما يدل على ذلك قوله : وباشتباههم على ان لا شبهله وقوله ان المشاعر والحواس لا تلمسه وان السواتر لا تحجبه لافتراق الصانع والمصنوع

٣ — الصفات

سادتي اما الثالث من المباحث الميتافيزيقية فهو الصفات وقدعرض امير المؤمنين الى صفاته تعالى فيما اسلفنا من الخطب : فانه اظهر صفة عالم (١) بقوله بطن خفيات الامور ومعناه علم الاسرار واظهر انه تعالى (٢) ليس بجسم بقوله ولا يقال له حد ولا نهاية فان الخالي من الحدود والابعاد ليس بجسم بالبداهة . واظهر انه (٣) ليس محلا للحوادث بقوله ولا انقطاع ولا غاية فان معناه الا تعتريه حوادث الانقطاع والغاية . ومما بينه من الصفات انه (٤) ازلي باق ابدى وذلك بقوله ليس لأوليته ابتداء ولا لأزليته انقضاء هو الأول ولم يزل والباقي بلا اجل . وقد عرض لبقية الصفات في خطب اخرى منها انه (٥) قادر مختار من قوله (١) قدر ما خلق فاحكم

(١) ج ٢ ص ١٤٥

تقديره ﴾ وبين انه تعالى ﴿٦﴾ مدرك بباقي الخطبة في قوله ﴿ ودبره فالطف تدبيره ووجهه فلم يتعد حدود منزلته ولم يقصر دون الانتهاء الى غايته ﴾ فان التدبير والتوجيه في سبيل الغاية يدلان على ادراك المدبر والموجه ، واوضح صفة ﴿٧﴾ الارادة بقوله ﴿ ولم يستصعب اذا امر بالمضي على ارادته فكيف وانما صدرت الامور عن مشيئته) . سادتي الى الآن بلغ عدد ماذكر من الصفات سبعاً ، ويفهم من الخطبة التي قال فيها ﴿١﴾ ولا يوصف بشيء من الأجزاء ولا بالجوارح والاعضاء ولا بعرض من الاعراض ولا بالغيرية والابعاض﴾ انه « ٨ » ليس بمركب وتفهم صفة انه ﴿٩﴾ متكلم فمن قوله من تلك الخطبة : ﴿ يخبر لا بلسان ولهوات ويسمع لا بخروق وادوات يقول ولا يلفظ ويحفظ ولا يتحفظ ﴾ كما تفهم صفة انه « ١٠ » مريد كاره من قوله : « ويريد ولا يضمر يحب ويرضى من غير رقة — ويبغض ويغضب من غير مشقة » هذا ويزيد صفات اخريات في خطبة له (٢) بقوله : « الذى صدق في ميعاده وارتفع عن ظلم عباده وقام بالقسط فى خلقه وعدل عليهم في حكمته » وهي صفة انه ﴿١١﴾ صادق كما ذكر صفة انه « ١٢ » غير محتاج بقوله « والخالق لا بمعنى حركة ونصب » فان عدم الحركة والنصب يدلان على الاستغناء ، وذكر صفة انه « ١٣ » حي بقوله « ٣ »

« ١ » ج ٣ ص ٢٠٨ « ٢ » ج ٣ ص ١٩٤ ﴿٣﴾ ج ٢ ص ٤٤٢

(والسميع لا باذان والبصير لا بتفريق آلة والشاهد لا بمماسة) فان الشهادة والسمع والبصر لا تصدر الا عن حي قيوم ويعلن صفة انه «١٤» لا شريك له بقوله « ١ » «واشهد ان لا اله الا الله وحده لا شريك له » ، كما اظهر صفة انه « ١٥ » ليس بمرئي بقوله « لا تحيط به الابصار والقلوب »

سادتي لم يقتصر امير المؤمنين بعرض الصفات الخمس عشرة بل عرض جميع اصول الدين منها التوحيد والعدل اللذين هما جماع تلكم الصفات وبمناسبة بحث الصفات لا بد لنا من بيان ان امير المؤمنين احال معرفة كنه تلكم الصفات ففي خطبة له « ٢ » قال « لم يطلع العقول على تحديد صفته ولم يحجبها عن واجب معرفته » وفي خطبة اخرى [٣] قال « ليس لصفته حد محدود ولا وقت معدود ولا اجل ممدود » وغرضه من هذا افهامنا الفرق بين مفهوم صفات الله والصفات التي نعرفها اذ ليس معنى قادر هو مقدرة الصانع على آلته وليس معنى عالم العلم الذي نحن نكسبه . وقد صرح بهذه المقايسة في خطبة اخرى [٤] قال « كل مسمى بالوحدة غيره قليل وكل عزيز غيره ذليل وكل قوي غيره ضعيف وكل مالك غيره مملوك وكل عالم غيره متعلم وكل قادر غيره يقدر ويعجز وكل سميع غيره يصم عن لطيف الاصوات

« ١ » ج ٢ ص ١٢٠ * ٢ * ج ١ ص ١٩٢ * ٣ * ج ١ ص ١٨
* ٤ * ج ١ ص ٤٧١

ويصمه كبيرها ويذهب عنه ما بعد منها وكل بصير غيره يعمى عن خفي الالوان ولطيف الاجسام وكل ظاهر غيره باطن وكل باطن غيره ظاهر وعلى اساس هذه المقايسة والمنافاة بين صفات الله وصفات غيره حدث جدل عنيف بين علماء الكلام في كنه تلكم الصفات كانت نتيجته رأيهم ان صفاته تعالى عين ذاته وذلك بناء على جهلنا لكنه الذات وحقيقة الصفات معا

سادتي : وايضا بمناسبة بحث الصفات هذا لا بد لنا ان نعرض لمقايسة امير المؤمنين بين تلك الصفات من جهة و بين بعض الخواص للاجسام وبعض مقولات ارسطو العقلية من جهة اخرى فان المفهوم من قوله : من وصفه فقد حده انه يمنع وصف الواجب بالنعوت والخواص كما تنعت الناس وتخص الاجسام فان جميع النعوت والخواص المعروفة تستلزم التحديد وهذا التحديد يكون لذوات الاقطار والجوانب والالوان والطعوم التي هي خواص الاجسام المحدثة الخاضعة لتغيرات الاعداد طبقاً لقوله ومن حده فقد عده . ومن المعروف ان العدد احد المقولات العقليه التى تستلزم عدم ازليته ولذلك قال ومن عده فقد ابطل ازله . وكذلك يفهم من قوله من قال كيف فقد استوصفه ومن قال اين فقد حيزه انه منع عنه تعالى خاصة الشكل والكيف والمكان لانها من صفات المادة والمقولات . وايضا منع عنه تعالى صفة الزمان فقال لا يقال له متى كما نزهه ان يوصف بانه شخص اوشبح يقاس ولا هو قوة اوعرض

تحجبه الاجسام او تحويه ولذلك قال لا شبح فيتقصى ولا محجوب فيحوى . وكل هذه من خواص الاجسام وبعضها من المقولات وكذلك منع خضوعه لقوانين المادة بقوله : لم يقرب من الاشياء بالتصاق ولم يبعد عنها بافتراق .

سادتي : لقد اتينا على المباحث الميتافيزيقية — القضاء والقدر والصفات والوجود ولكن لا يفوتن المفكر المدقق فيها ان امير المؤمنين يتحدى قدماء الفلاسفة في آرائهم ولكن بصورة رمزية لا يسعنا الآن غير تعداد تلك التحديات وهي : اولا — مخالفة القائلين بان الله روح في غاية اللطافة والقوة تنفذ في كل العالم .

ثانياً — مخالفة الرواقيين القائلين بنظرية الجوهر الفرد .

ثالثا — مخالفة الفيثاغوريين القائلين ان الاعداد المجردة هي مبدأ العالم رابعا — مخالفة الحلولية وكلمة التجسيد لدى بعض الفرق الدينية خامساً — نقد مذهب الاثنينية للذرات المادية والعقلية سادسا — نقض مذهب الكثرة فى تعدد الذرات المادية

آراء بعض العلماء فى علم امير المؤمنين

سادتي : ربما استغرب احد ما جاء في بحثنا من الآراء والمذاهب وحسبها مبالغة . لذلك رأيت ان اسمعكم آراء بعض المتقدمين والمتأخرين اضافة الى ما ذكرنا من آراء الرسول والصحابة فيه لتكون هذه الاراء خاتمة محاضرتنا هذه . قال المسعودي في مروج

الذهب (١) ما نصه : ﴿دخل ضرار بن ضمرة وكان من خواص علي على معاوية وافداً فقال له : صف لي عليا قال : اعفني يا امير المؤمنين قال معاوية لا بد من ذلك . فقال : اما اذا كان لا بد من ذلك فانه كان والله بعيد المدى شديد القوى يقول فصلا ويحكم عدلا يتفجر العلم من جوانبه وتنطق الحكمة من نواحيه ﴾ .

***

وقال ابن ابي الحديد في المجلدة الثانية من شرحه في الصفحة الثامنة والعشرين بعد المائة ما نصه : ﴿ واما الحكمة والبحث في الامور الالهية فلم يكن من فن احد من العرب ولا نقل في جهازا كابرهم واصاغرهم شيء من ذلك اصلا وهذا فن كانت اليونان واوائل الحكماء واساطين الحكمة ينفردون به واول من خاض به من العرب علي عليه السلام ولذلك نجد المباحث الدقيقة في التوحيد والعدل مبثوثة في فرش كلامه وخطبه ولا نجد في كلام احد من الصحابة والتابعين كلمة واحدة من ذلك ولا يتصورونه ولو فهموه لم يفهموه وانى للعرب ذلك ولهذا انتسب المتكلمون الذين لجوا في بحار المعقولات اليه خاصة دون غيره وسموه استاذهم ورئيسهم واجذبته كل فرقة من الفرق الى نفسها ! ألا ترى ان اصحابنا (يعني المعتزلة) ينتمون الى واصل بن

﴿١﴾ ج ٢ ص ٤٧

عطاء تلميذ ابي هاشم بن محمد بن الحنفية وابو هاشم تلميذ ابيه محمد ومحمد تلميذ ابيه علي عليه السلام فاما الشيعة من الامامية والزيدية الكيسانية فانتهاؤهم اليه ظاهر . واما الاشعرية فانهم بالاخرة ينتمون اليه ايضا لأن ابا الحسن الاشعرى تلميذ شيخنا ابي علي رحمه الله تعالى وابو علي تلميذ ابي يعقوب الشحام وابو يعقوب تلميذ ابي الهذيل وابو الهذيل تلميذ ابي عثمان الطويل وابو عثمان الطويل تلميذ واصل ابن عطاء فعاد الامر الى انتهاء الاشعرية الى علي عليه السلام ﴾

***

سادتي : وبعد كلام طويل لابن ابي الحديد لا غرض لنا فيه قال (واما الخوارج فانتهاؤهم اليه ظاهر ايضا مع طعنهم فيه لأنهم كانوا اصحابه وعنه مرقوا بعد ان تعلموا عنه واقتبسوا منه وهم شيعته اوانصاره في الجمل وصفين ولكن الشيطان ران على قلوبهم واعمى بصائرهم) هذه رأي ابن ابي الحديد المعتزلي . سادتي وقد تكلم امير المؤمنين عن نفسه (١) كما روى ابن ابي الحديد المدائني قال : ﴿ خطب علي عليه السلام فقال لو كسرت لي الوسادة لحكمت بين اهل التوراة بتوراتهم

(١) ج ٢ ص ٥٠

وبين اهل الانجيل بانجيلهم وبين اهل الفرقان بفرقانهم وما من آية في كتاب الله انزلت في سهل اوجبل الا وانا عالم متى انزلت وفيمن انزلت فقال رجل من القعود تحت منبره يا لله وللدعوى الكاذبة وقال آخر الى جانبه اشهد انك انت الله رب العالمين قال فانظر الى هذا التناقض والتباين فيه ﴾ اه .

* * *

سادتي : وجاء في (كتاب مختصر تاريخ العرب والتمدن الاسلامي) وهو تأليف الامير علي عضو شورى الملك في انكلترا في الصفحة ٤٣ ما نصه : ﴿ وفيما كان الاسلام ينتشر وتخفق رايته على ربوع تلك الامصار كان علي بن ابي طالب يصرف جهوده في المدينة لتوجيه نشاط العنصر العربي الناشيء الى الناحية العلمية فشرع مع ابن عمه عبد الله ابن عباس في القاء محاضرات اسبوعية في المسجد الجامع في الفلسفة والمنطق والحديث والبلاغة والفقه بينما تفرغ غيرهما الى القاء محاضرات في شؤون اخرى . وهكذا تألفت نواة الحركة العلمية التي ترعرعت وزهت بعد حين في بغداد عاصمة العباسيين) اه

* * *

سادتي : ولسنا في صدد التعليق على اراء هؤلاء العلماء ولكننا

نقول ان ضراراً كان تابعياً من علماء الكوفة وابن ابي الحديد عالم معتزلي عاش في بغداد في النصف الاول للقرن السابع الهجري ، اما الامير علي فهو عالم هندي واستاذ في اكسفورد ، سادتي هذا ما عن لنا والسلام عليكم ؟

محمد علي كمال الدين

الليلة الثانية

نابغة الاسلام — السيد محسن الامين

سياسة امير المؤمنين الدينية — الشيخ محمد حسين مظفر

نابغة الاسلام

للعلامة الكبير السيد محسن الامين

لسماحة السيد محسن الامين وهو يعد بحق في مقدمة العلماء المصلحين الذين أدوا للعالم الاسلامي خدمات تذكرهم بالشكر والثناء سواء في مجال التأليف او في ميدان الاعمال الاجتماعية من قبيل تنظيم مناهج التدريس واصلاحها وتنظيم المدارس وتهذيبها ، مما تقيض اعماله عن الاحصاء والتعداد ، وعلى رغم تقدمه في السن فهو مثل من الامثلة الرائعة للنشاط والحركة العلمية أدام الله ظله ونفع المسلمين بمساعيه .

ينبغ في الازمان على تعاقبها نوابغ يمتازون عن سائر اهل زمانهم ولكن هؤلاء النوابغ متفاوتون في نبوغهم وصفاتهم التي ميزتهم عمن سواهم — سنة الله في خلقه — ومهما تكثر النوابغون في الازمان المتطاولة فنابغة الاسلام بل نابغة الكون المتفرد في صفاته الفاضلة ومزاياه الكاملة في علمه وحلمه وسياسته وعدله وفصاحته وبلاغته وشجاعته واقدامه وجهاده وصبره وجلده وقوته وايده وزهده وعبادته واجتماع محاسن الاضداد فيه هو امير المؤمنين علي بن ابي طالب عليه السلام صنو رسول الله صلى الله عليه واله وسلم اكمل الخلق وخريجه

ذات علي عليه السلام ذات فذة يعسر او يمتنع على الانسان مهما اطال ومهما دقق ان يحيط بجميع ما فيها من سمو وتميز على سائر الخلق ومهما حاول الانسان ان يحيط بجميع صفاته قعد به العجز واستولى عليه البهر ولكن لا يترك الميسور بالمعسور

نشأ علي عليه السلام في حجر رسول الله صلى الله عليه واله وسلم وتأدب بآدابه وربي بتربيته وسبق الناس الى الاسلام

بعث النبي صلى الله عليه واله وسلم يوم الاثنين وأسلم علي عليه السلام يوم الثلاثاء ثم اسلمت خديجة ، وأقام مع النبي صلى الله عليه واله وسلم بعد البعثة ثلاثا وعشرين سنة منها ثلاث عشرة سنة في مكة قبل الهجرة مشاركا له في محنه كلها متحملا عنه اكثر اثقاله وعشر سنين بالمدينة بعد الهجرة يكافح عنه ويجاهد دونه ، وقتل الابطال وضرب بالسيف بين يدي رسول الله صلى الله عليه واله وسلم وهو بين العشرين و الخمس والعشرين سنة ، هاجر الى المدينة في المهاجرين الاولين وشهد بدراً وأحداً والخندق وبيعة الرضوان وجميع المشاهد مع رسول الله صلى الله عليه واله وسلم الا تبوك وله في الجميع بلاء عظيم وأثر لم يكن لأحد من الناس

واذا نظرنا الى علمه وجدناه العالم الرباني الذى يقول على ملأ من الناس : سلوني قبل ان تفقدوني ، ومن ذا الذى يجرأ من الناس ان يقول هذا الكلام فوق المنبر وعلى حشد من الوف الخلق وما يؤمنه ان يسأله سائل سؤالا لا يكون عنده جوابه فيخجله ، لا يجرأ على هذا

القول الا من يكون واثقاً من نفسه بان عنده جواب كل ما يسأل عنه وهل تنحصر المسألة في علم من العلوم وناحية من النواحي حتى يجرأ احد على هذا القول ولا يكون مؤيداً بتأييد الهي وواثقاً من نفسه كل الوثوق بانه لا يغيب عنه جواب مسألة مهما دقت واشكلت ، ان هذا المقام يقصر العقل عن الاحاطة به ، ويسأل وهو على المنبر عن مسافة ما بين المشرق والمغرب فيجيب بانه مسير يوم للشمس ، ويسأل عما بين الحق والباطل فيقول مسافة اربع اصابع الحق ان تقول رأيت بعيني والباطل ان تقول سمعت باذني ، ويسأل عن رجلين جلسا يتغديان ومع احدهما خمسة ارغفة ومع الاخر ثلاثة فجلس معهما رجل واكلوا الارغفة الثمانية فطرح اليهما الرجل ثمانية دراهم عوضا عما اكل فقال صاحب الخمسة ارغفة لي خمسة دراهم ولك ثلاثة فقال صاحب الثلاثة الارغفة لا أرضى الا ان تكون الدراهم بيننا نصفين فيحكم علي عليه السلام ان لصاحب الثلاثة درهما واحداً ولصاحب الخمسة سبعة دراهم ، وذلك لأن الثمانية الارغفة اربعة وعشرون ثلثاً لصاحب الثلاثة منها تسعه اثلاث اكل منها ثمانية واكل الضيف واحداً ولصاحب الخمسة خمسة عشر ثلثاً اكل منها ثمانية واكل الضيف سبعة ، فهذه المسألة لو أجاب عنها امهر رجل في الحساب بعد طول الفكرة والروية وأصاب فيها لكان له الفخر ، ويؤتى عمر بن الخطاب بامرأة ولدت لستة اشهر فيهم برجمها فيقول له علي عليه السلام ان خاصمتك بكتاب الله خصمتك ان الله تعالى يقول : وحمله وفصاله

ثلاثون شهراً ويقول : والوالدات يرضعن اولادهن حولين كاملين فاذا كانت مدة الرضاع حولين كاملين والحمل والفصال ثلاثون شهراً كان الحمل فيها ستة اشهر فخلى عمر سبيلها وثبت الحكم بذلك فعمل به الصحابة والتابعون ومن اخذ عنهم الى يومنا هذا ، ويؤتى عمر بمجنونة زنت فيأمر بجلدها الحد فيقول له علي عليه السلام : ان النبي صلى الله عليه واله وسلم قد رفع القلم عن المجنون حتى يفيق فيقول عمر : فرج الله عنك قد كدت اهلك في جلدها ، ويؤتى عمر بحامل قد زنت فيأمر برجمها فيقول له علي عليه السلام هب ان لك سبيلا عليها اي سبيل لك على ما في بطنها احتط عليها حتى تلد فاذا ولدت ووجدت لولدها من يكفله فاقم عليها الحد فيقول عمر : لا عشت لمعضلة لا يكون لها ابو الحسن ، ويجيء ابو الاسود الدؤلي فيخبره بانه سمع من يلحن في القرآن فيضع له اصول النحو في كلمات معروفة ويقول : انح هذا النحو فيزيد عليها ابو الاسود وتضبط لغة العرب بعلم النحو الى اليوم

واذا نظرنا الى شجاعته وقد ضربت بها الامثال وجدنا انه باشر الحرب وعمره عشرون سنة او فوقها بقليل وظهرت شجاعته الخارقة للعادة في مبيته على الفراش ليلة الغار والنفر من قريش محيطون بالدار ليفتكوا بمن في الفراش ، وظهرت شجاعته الخارقة ايضا لما سار بالف اطم عند الهجرة وليس معه الا ايمن بن ام ايمن وابو واقد الليثي فلحقه ثمانية من فرسان قريش امامهم جناح مولى حرب بن

امية فاهوى اليه جناح بالسيف وهو فارس وعلي عليه السلام راجل فخار علي عليه السلام عن ضربته وضربه لما انحنى على كتفه فقطعه نصفين حتى وصلت الضربة الى قربوس فرسه وانهزم الباقون ، وقتل يوم بدر الوليد بن عتبة وشرك في قتل عتبة وقتل جماعة من صناديد المشركين حتى روي انه قتل نصف المقتولين ، وفي يوم احد قتل اصحاب اللواء وهم سبعة ولما فر المسلمون ثبت فيمن ثبت مع النبي صلى الله عليه واله وسلم يحامي عنه وكلما شد جماعة على النبي صلى الله عليه وسلم تقدم اليهم فقاتلهم وقتل فيهم ؛ وفي يوم الخندق بارز عمرو ابن عبد ود بعدما جبن عنه الناس جميعاً فقتله وانهزم المشركون بقتله ، وفي يوم خيبر قتل مرحبا وهزم اليهود واقتلع الباب وفتح الحصن وكان الفتح على يديه ، وفي جميع الوقائع والغزوات كان له المقام الاسمى في الشجاعة والثبات ، وفي يوم الجمل وصفين والنهروان باشر الحرب بنفسه وقتل صناديد الابطال وجدل ابطال الرجال ولم يهرب في موطن قط وكانت ضرباته وتراً اذا علا قد واذا اعترض قط ولم يبارز قرنا فسلم القرن منه ولا دعي الى مبارزة فنكل وهذا كله من الامور العجيبة التي لم تتفق لغير علي بن ابي طالب عليه السلام وشجاعته ملحقة بالبديهيات يقبح بالانسان اطالة الكلام فيها واكثار الشواهد عليها

واذا نظرنا الى حلمه كفانا لأثبات بلوغه اعلى درجات الحلم حلمه عن اهل الجمل عموما وعن مروان بن الحكم وعبد الله بن الزبير

خصوصا وشدة عداوتهما له معلومة وايصاؤه جيوشه بان لا يتبعوا مدبراً ولا يجهزوا على جريح وعدم منعه الماء لعسكر معاوية يوم صفين لما استولى عليه بعدما منعوه منه .

واذا نظرنا الى عدله لم نجد له فيه نظيراً ، في الاستيعاب انه كان اذا ورد عليه مال لم يبق منه شيئا الا قسمه ولا يترك في بيت المال منه الا ما يعجز عن قسمته في يومه ذلك ولم يكن يستأثر من الفيء بشيء ولا يخص به حميما ولا قريبا ولا يخص بالولايات الا اهل الديانات والامانات واذا بلغه عن احدهم خيانة كتب اليه : قد جاءتكم موعظة من ربكم فاوفوا الكيل والميزان بالقسط ولا تبخسوا الناس اشياءهم ولا تعثوا في الارض مفسدين بقية الله خير لكم ان كنتم مؤمنين وما انا عليكم بحفيظ . اذا أتاك كتابي هذا فاحتفظ بما في يديك من عملنا حتى نبعث اليك من يتسلمه ،

واذا نظرنا الى فصاحته وبلاغته وجدناه امام الفصحاء وسيد البلغاء وحسبك ان يقال في كلامه : انه — بعد كلام الرسول — فوق كلام المخلوق ودون كلام الخالق ويقبح بنا ان نقيم شيئا من الشواهد والادلة على ذلك فانه كاقامة الدليل على الشمس الضاحية

وليس يصح في الاذهان شيء اذا احتاج النهار الى دليل ولا ادل على ذلك مما اثر عنه وجمع من كلامه كنهج البلاغة وغيره

واذا نظرنا الى زهده في الدنيا اخذنا العجب والبهر من رجل في يده الدنيا كلها عدا الشام ، العراق وفارس والحجاز واليمن وهو يلبس

الخشن ويأكل الجشب مواساة للفقراء ويقول : يا دنيا غري غيري ، ومن عجيب احواله انه اجتمعت فى صفاته الاضداد فبينما هو يمارس الحروب ويبارز الاقران ويقتل الشجعان ومن تكون هذه صفته لا بد ان يكون قاسي القلب شرس الخلق اذا به اعبد العباد يقضي ليله بالصلاة والعبادة والتضرع والابتهال والخضوع لله تعالى واذا به احسن الناس خلقا وارقهم طبعا والينهم عريكة .

لم يكن جهاد امير المؤمنين علي عليه السلام وحروبه في الاسلام لغاية دنيوية من طلب امارة وشهرة بين الناس او منزلة عندهم ماكان جهاده ولا كانت حروبه الا نصرة للحق ومحاماة عن الدين ولم يكن زهده في الدنيا طلباً لمدح او منزلة في قلوب الناس بل ارشاداً للامة الى ما يصلحها وتعليما لها ما ينفعها ومواساة للفقراء كيف لا وهو القائل لابن عباس في نعل كان يخصفها لا تساوي درهما : والله لهي (اى النعل) احب الي من امرتكم هذه الا ان اقيم حقاً او ادفع باطلا

ابا حسن تفنى المدائح والثنا
جميعاً ولا تحصى مناقبك الغر
فلو كانت الاشجار فيها يراعة
لها الارض طرس والمداد هو البحر
ورامت لما اعطيته من فضائل
لتحصى منه العشر ما احصي العشر

* * *

٤٧

ابا حسن جاراك قوم فقصروا
وانى لهم في شأو فضلك ان يجروا
واين الثريا والنجوم من الثرى
واين الحصى من ان يماثله الدر
معاليك في جيد الزمان قلائد
بهـا زهت الايام وافتخر الدهر
واوصافك الغر الخوالد في الورى
غدت تتمنى بعضها الانجم الزهر
عجبت لمن ساماك في رتب العلا
ولم يتـأخر حيث اخره الدهر
لك الرتبة العليا وفي كل موقف
لك الطعنة النجلاء والفتكة البكر
لك المعجزات اللأي ما حاز بعضها
سواك وجلت ان يحيط بها الحصر
وانك للسـاقي على حوض احمـد
غداً ولأنت الذخر ان عدم الذخر
لقد طبت اوصافا ونفسـاً وعترة
ونجراً ويزكوالفرع حين زكاالنجر
وناصية العليـاء عفواً قبضتهـا
وغيرك من امثالها كفه صفر

٤٨

معانيك روض يانع جاده الحيا
فاخصب منه النبت وازدوج الزهر
اذا انزل الذكر الحكيم بمدحكم
فيا ليت شعري ما يجيء به الشعر

محسن
الامين الحسيني العاملي

٤٩

سياسة الامام الرضا

الدين والملك والسياسة

الكاتب رئيس لجنة المجمع الثقافي الديني واستاذ
التفسير والتاريخ الاسلامي في كلية منتدى النشر ومؤلف
حياة الصادق والشيعة في التاريخ والشيعة والامامة وغيرها

جاء رسول الرحمة والسلام صلى الله عليه واله باحكام ونظام ، يكفلان للعالم السعادة والراحة في هذه الدار الدانية ، والنعيم والهناء في تلك الدار الباقية ، وكل ما جاء به فهو من عند الله عز شأنه (ان هو الا وحي يوحى علمه شديد القوى) وتلك المجموعة من الانظمة والقوانين في العبادات والمعاملات والايقاعات وما سواها تسمى بالدين و (ان الدين عند الله الاسلام) و (من يبتغي غير الاسلام دينا فلن يقبل منه) فليس الاسلام الا الدين وليس الدين الاهاتيك الاحكام وذلك النظام ، فالمسلم من دان بالاسلام عن اعتقاد في القلب

وتصديق بالرسول الامين وبما جاء به من شريعة وعمل بتلك الاحكام وطبق ذلك النظام — هذا هو الدين —

واما الملك فهو السيطرة على العباد والبلاد اذا لم تكن على النهج المشروع الذى جاءت به الشريعة الاحمدية من القوانين والاحكام ، ولو كانت على وفقها لم تكن باصطلاح اهل الاسلام بالملك وانما تسمى بالخلافة ، التي هي عندهم منصب الامامة للامة ، والنيابة عن سيد الرسل في العمل بشريعته وتنفيذها في العالم الاسلامي — هذا هو الملك —

واما السياسة فيقصد بها تدبير الملك خاصة ، ولا يمكن تحديدها لاختلافها باختلاف الامصار والاعصار ومقدرة اولياء الامر ، فليس من السهل ان يجعل لها قواعد مقررة ونظام خاص ، فتكون علما يدرس كما تدرس سائر العلوم ، ألست ترى البلاد الواحدة نفسها تختلف حسب اختلاف الزوابع المحلية وحسب الاختلاف بين الاهلين مذهبا واقتصاداً وحمية وما سواها ، وحسب الاختلاف بين الامة والسلطة ، والبواعث الجمة عليه التي لا تحصر في ناحية خاصة ، نعم يمكن تحديد السياسة بالمكر والخداع والحيلة والغدر ، فالساسة هم الذين يتقلبون في تدبير البلاد حسب الوقت والظرف ؛ ويتلونون للناس بصبغة الطوارئ المفاجئة ، والسياسي القدير من استطاع ان يخرج ظافراً عندما تحدث الانقلابات داخل البلاد ، والتطورات في الوقت ، والتصادم في المصالح مع الامم المجاورة — هذه هي السياسة

في الملك —

نعم قد نتجوز في الاصطلاح فنجعل لاهل الدين سياسة ، ولكن لا نقصد بها العمل بغير احكام الدين ونظامه حسب حاجة الوقت ، وهل يا ترى يسوغ الدين العمل بغير الدين حتى نسميه سياسة دينية وإن الدين لا يكون فيه خداع واحتيال وكذب، ولا يختلف باختلاف الايام والبيئات والامم ﴿ حلال محمد حلال الى يوم القيامة وحرامه حرام الى يوم القيامة ﴾ فلا مندوحة لنا اذن إن اردنا ان نطلق اسم الساسة على الخلفاء او رجال الدين الذين يقودون الشعوب ويملكون أزمة الحكم من ان نجعل السياسة الدينية هي الحذق والمهارة في تطبيق احكام الدين وتنفيذ نظامه ، لا انها التلون للناس تلون الحرباء كما يتلون ارباب السياسة الملكية ، فالسياسي الديني من قدر على تدبير البلاد بمهارة وجدارة منفذاً للشريعة من دون تحريف وتأويل ، ومتى كان السائس مخالفاً لتلك النظم والاحكام كان خارجا عن سياسة الدين ، وكان الجدير به ان يعد في سواس الملك

ما امير المؤمنين من السياسة

فاذا وضح لدينا الفرق بين الدين والملك ، والفرق بين السياستين فما موقف امير المؤمنين عليه السلام في خلافته ؟ وما سياسته ؟

إخال ان الناس من بدء الاسلام حتى اليوم لا تختلف في ان امير المؤمنين يعسوب الدين واطوع الناس للشريعة ، واعملهم باحكامها

ونظامها ، وانه النفذ الذى استطاع ان يطبق الشريعة المحمدية على نفسه قبل غيره من يوم صدوع النبي صلى الله عليه واله بالدعوة الى الاسلام الى عهد خلافته الى يوم وفاته ، ثم ان الناس لديه شرع سواء في تطبيق وتنفيذ الاحكام وفي العدل من دون ان يكون لاحد فيه مطمعَ بغير الحق ، فلا يجد القريب والزعيم والغني والقوي منفذاً لمطامعه عنده ، فلا يتغلب هؤلاء بباطلهم على الحق بل هم وبالا باعد والفقراء والضعفاء والسوقة في العمل بالحق وابطال الباطل سواء لديه ؛ لا تأخذه في الله لومة لائم ، كما هدتنا الى ذلك سيرته واعماله ، ومن ثم تجده يقول عليه السلام : ما ترك لي الحق من صديق . وكيف يبقى له مع الحق صديق والحق مر المذاق ، ثقيل العبء على الاكواهل والناس وان رغبت فى العمل بالحق والشريعة الا ان كلا منهم يريد ان يكون تطبيقه على غيره ، وتنفيذه على سواه ، ولو ظفرت به مخالب الحق لحاول التملص منها بكل ما اوتي من حول وحيلة ، وقد اعتاد ارباب الشأن والجاه على المصانعة والمجاملة ممن بايديهم التطبيق والتنفيذ ، فكيف تصبر على الحق والعدل مع امير المؤمنين ؛ ومن جراء هذا هرب منه من يريد ان يتخذ الناس مغنما بوفره او بقواه او بنفوذه ولجأ الى من يهب له الالوف ويبلغه امانيه كلها ، وخسرت يد باعة الدين ببلغة من العيش وان البائع لخاسر وان كان العوض الدنيا بأسرها

أجل وان ابا الحسن عليه السلام لأعلم الناس في تطبيق احكام

الدين ونظامه ، أليس هو اقضى الناس ، أليس هو باب مدينة علم الرسول (ص) وعلم الرسول ﴿ ان هو الا وحي يوحى ﴾ فما علم المرتضى علي عليه السلام الامن ذلك الوحي والالهام وتعليم علام الغيوب بواسطة الرسول الامين (ص) فامير المؤمنين هو السياسي الاول في سياسة الدين والعالم الاكبر في تدبير البلاد وتنظيم الامة وقيادتها على نهج الشريعة الحقة ، وليس له مثيل في السياسة الدينية عدا اخيه ومعلمه ومثقفه فهو اذن سائس الدين وقاضي الدين وحاكم الدين وعالم الدين لا يضارعه في هذه الخلال احد في الاسلام وليس خلاف الناس عليه خفوقا في سياسته ، بل لان الناس يعلمون انه صلب الايمان ، صلب في الحق ، خشن في ذات الله والناس عنده سواء فلا مطمع لاحد عنده في امرة الا في الله ، ولا مصانعة في اعظام واكرام الا في الله ، ولا مرونة وعطفاً في هبات وصلات الا في الله ، هذا موقفه في السياسة الدينية

واما السياسة الملكية وموقف ابي الحسن منها ، فما ابعد ما بينها وبينه بعد الدين من الملك ، وبون الحق من الباطل ، وشسوع الصدق من الكذب ، ولو كان في الملك شوب من حق وباطل فالمرتضى لا يعمل للملك والسلطان وفيه خروج على الدين ، ولا يخادع نفسه فيعمل بما يخالف الدين باسم السياسة في الدين ، فلا يمكن ان يحسب في ساسة الملك وقادة الامم باسم السلطان ، لا جهلا بمواقع التدبير وبعداً عن مرامي السياسة ؛ ولكنه الخوف من الله

العظيم من ان يعمل في عباده ما لا يرتضيه سبحانه ولا يرتضيه رسوله الصادق الامين واين انت عن قوله عليه السلام وهو الصادق : قد يرى الحول القلب وجه الحيلة ودونها حاجز من تقوى الله ، وعن قوله : والله ما معاوية بأدهى مني ولكنه يغدر ويفجر ولولا كراهية الغدر لكنت من ادهى الناس وكلامه في امثال هذا كثير ، وان الناس لترى ان مثال الدهاء والسياسة معاوية بن ابي سفيان وكيف ترى اميرالمؤمنين مثل لك ما تسميه الناس بالدهاء ومن تسميه بالداهية ، وما ذلك الدهاء الا الغدر والنكر والفجور وان ابا الحسن لتأبى نفسه من ان يكون من رجال السوء والغدر وان لم يكن هناك دين يحرم عليه سوء الفعل والقول ، شيم جبل عليها ومزاج طبع عليه فكيف والدين من ورائه يفرض عليه ان يسير على نهجه لا يحيد عنه قيد أنمله ، ومن كان شعاره الدين سار راسفآبقيوده واين هو ممن القى الحبل على الغارب لا يعرف من الدين الا قدر ما يكون حبالة الصائد وكم من اناس نصبوا الدين فخاخا ليصطادوا بها عميان الابصار والبصائر ويسمونها بسياسة الدين وليس الغريب ان يجعل هؤلاء الدين مصائد لاغراضهم السقيمة وانما الغريب ان نجد من يحبذ تلك المصائد ويجهد لان يخرج لها وجهاً من الدين

ولعدم الفقه للفرق بين السياستين وللفارق بين الملك والدين او للحياد عن ابي الحسنين خبط بعضهم خبط عشواء منتقداً تلك السياسة الالهية زاعماً انها لا تتفق وسياسة الملك وكانه لا يعلم ان

ابا الحسن من ساسة الدين لا من ساسة الملك

وليس لهم ان يقولوا : لم لا يسيس الناس جمعاً للكلمة ولما للشعث وان خالف في ذلك بعض احكام الدين أليس اجتماع الامة اهم من تطبيق بعض احكام الشريعة لأن هؤلاء جهلوا او تجاهلوا ان ان ابا الحسن عالم الدين وقاضيه او يخفى عليه الاهم الاصلح للامة ولنفسه . اذن على الاسلام السلام ان كنا اعرف من باب مدينة العلم للرسول في معرفة الدين وتطبيق احكامه

سياسته في الملك

على اننا نستطيع ان نتعرف سياسة امير المؤمنين الملكية وما كان منها — كما يقولون — مخالفا لسياسة الملك ، فندرسه درس خبير بالملك وسياسته وان لم نكن من رجال السياسة الملكية غير ان ما اخذوه عليه بين الخطأ ، جلي البطلان ، حتى على من لم يفقه السياسة وان اهم ما اخذ به امران (الاول) عدم اقراره لمعاوية على الشام حتى لجأ معاوية لحربه (الثاني) عزله لقيس عن مصر وتولية محمد بن ابي بكر مكانه وهنا ضروري ان ندرس الحالة عن كثب درس ملم بنواحي الامر وشؤنه ، لا درس عابر سبيل يقتطف الشيء قطفة المزهود ويقتبسه قبسة العجلان

اما الاول فاخالك عليما بما كان بين الحيين هاشم وامية من العداء من يوم هاشم وامية سبق هاشم في المكارم والفضائل فساد قريشا

وكان امية يحسده فيعجز عن مجاراته وينافسه فلا يأتى بشيء وهكذا كان الشأن من اولاد امية لاولاد هاشم ، فكان الحسد يدعو بني امية لعداء بني هاشم ما كان لهما بنون حتى اذا بزغ فجر الاسلام من بين جبال مكة وشعابها وصرخ رسول العدل والحق بالشهادتين ودوت صرخته في تلكم الجبال والشعاب كان الحيان اميه ومخزوم اول المناوئين له في دعوته وكانا يتباريان فى تكذيبه وايذائه في مكة والتأليب على حربه بعد الهجرة . وما كان يوم الفتح ـ وقد كفاه الله بعض المكذبين ـ الا وقد مد يد الطاعه ابو سفيان وحزبه حين لم يجدوا مفراً منه ولا عونا على مناصرة الوثنيه والنفوس ما زالت تضمر الحسد وتأليه الاصنام ونكأ القرحه ما كان لهم من قروم صرعها سيف الاسلام ابو الحسن بحده الصارم فكان ابو الحسن مجمع المناوين لعداء قريش واميه فهو قاتل ساداتهم وشجعانهم وهو ابن هاشم وهو اخو الرسول وهو الخلف للرسول على الامه وعلى دينه وهو الاسلام في احكامه ونظامه بل هو الرسول في كل شأن عدا النبوة ولقد ايقنت قريش واميه بان ابا الحسن ان نجح في امامته لم يجدوا فرصه اخرى للانتقام من الرسول وشريعته ولأخذ الترات منه ولاظهار ما انطوت عليه نفوسهم ولئن ثنيت له الوسادة لم يبق قرشي يتطلع لامرة ويطمع في خلافه فما وجدوا بداً ان هم أرادوا تنفيذ مقاصدهم الا من الوقوف امام الامام وصده عن تنفيذ خطته التي دبرها له النبي (ص) ووضع اسسها الرصينه وما معاوية

الا حجر من تلك الاحجار القائمة عثرة فى سبيله .

ولا تنس ان معاوية وقد اقام في الشام عشرين عاما واليا عليها قد اعد العدة للاستقلال في الشام والطمع فى سواها ، وقد جمع حوله ارباب المطامع والاضغان والحسد من قريش للهاشميين ، ومعاوية يشاهد امامه من افترع منبر الخلافة ، ولم يكن باعلى منه شأنا وبيتا في قريش ، بل كان من اهله من سبق الى ذلك المقام ، ومعاوية من ذوي النفوس الطماحة الى تلك الزعامة ، خصوصا وقد وطأ له السابقون ظهرها الصعب ، وساعد على امانيه في الشام ان المرتضى ليس له سابقة ذكر فيها الا نزراً . وكيف يعلو له ذكر وعمال الشام من يوم فتحها حتى ساعة المحنة من اولاد ابي سفيان اعداء آل ابي طالب ، فاهل الشام تربية معاوية لا يعرفون بعد الرسول والخلفاء غير آل ابي سفيان ،

فلما انتهى الامر لأمير المؤمنين عليه السلام علم معاوية ان الامر ان تم لأبي الحسن ذهبت امانيه وآماله من الشام والشام مطمعه ومطعمه وهذه فرصة الوثبة ، وما كان مقتل عثمان الا امنية من امانيه العذاب ليتخذه ذريعة لمقاصده ، ولو اهمه عثمان وقتله وقاتلوه لأتى اليه بجيشه الذى قاده يوم صفين ليرفع عنه الحصار ويخلصه من حدود الشفار ، فان ذلك ايسر له من حرب صفين التي أكلت نارها العرب ، على ان عثمان كان يستصرخه ويستنجد به وهو واقف وقفة المتفرج ينظر الحوادث عن كثب ، وينتظر الساعة التى يقتلون فيها

عثمان ، ليستغل الحادثة لغايته ، ولماذا يوم بعث البعث من الشام الدفاع عن عثمان امرهم بالوجوم وانتظار الحوادث وامره فيها ، وكان جديراً ـ لو صدق في الدفاع عنه ـ ان يأمر البعث بالذب عنه ولو ذبوا عنه لما قتلوه . ولماذا لم يؤاخذ احداً بعثمان يوم عاد الامر اليه ، على ان بنات عثمان حرضنه على الانتقام :

وان ابا الحسن لعليم بما عليه القوم من العداء له وجهادهم في دفعه عن هذا الامر بكل غال ورخيص ، وعليم بما كان يتحين معاوية له الفرص ويحسب له الف حساب ، وقد جاء الوقت الذى ينتظره معاوية ، اترانا وقد بعد العهد نعرف ما عليه معاوية ويخفى ذلك علي ابي الحسن ، وهو الخبير بما عليه القوم والممتحن بهم من يوم بزوغ الاسلام الى يوم نهوضه بالأمر ، فكيف يعين ابو الحسن معاوية على انتهاز هذه الفرصة ، وكان معاوية يود لو ان المرتضى أقره على ولاية الشام ليدفعه عن الخلافة ؛ وكيف يمكن معاوية علياً امير المؤمنين من الشام وقد قبض عليها بيد من حديد ، ولو ولاه لم يأمن من غدرته كما هي عادته كما وصفه بها في كلامه السابق ، فما اسرعه الى النكثة والبدار الى القول : إن علياً ارتضاني للولاية فاقرني لأنه وجدني لها اهلا ، ولا ارتضيه للخلافة فدفعته لأني لا اراه لها محلا ، وبماذا يحتج عليه عندئذ ابو الحسن والحجة قائمة عليه جائية من قبله باقراره اياه على الولايه ، فكيف يجعل امير المؤمنين وقد فطن للامر سبيلا لمعاوية عليه

وقد ارتأى بعض اصحاب امير المؤمنين ان يوليه الشام برهة ثم يعزله بعد ان يأخذ له البيعة ويستوثق منه ، وهل يخفى على امير المؤمنين هذا الرأي وهو الخبير بمعاوية ونواياه ، وكيف يستسلم معاوية منقاداً وهو العليم بان عليا صلب الايمان وهل يأمن من ابي الحسن اذا اخذ البيعة له ان يعزله في يوم آخر فيكون قد اقام الحجة على نفسه بهذه البيعة . فامير المؤمنين لا يأمن معاوية لغدره وفجوره ومعاوية لا يأمن ابا الحسن لصلابته في الدين ، الصلابة التي لا تلين بالرضائخ والمصانعة ، ومتى يجد معاوية الفرصة للنزو على اعواد السلطان ان فاتته هذه الفرصة المواتية ، حتى لو ايقن بدوام الولاية له ، وابن الولاية من الملك .

واما الحرب من معاويه لأمير المؤمنين فلا محالة قائمة ، لان معاوية يعلم بانه لا يبلغ امانيه من الشام دون ان يدفع عنها ابا الحسن وكيف يدفعه بغير السيف ، وكيف يقود الناس بغير هذه الخدعة — التلطخ بدم عثمان — ولماذا وجم حتى قتل الناس عثمان لو لم يكن لهذا المكر .

هذه جلية الامر في معاوية ولعل هناك اسبابا أخر آثرت عزل معاوية عن الشام ، وكفى ما اثبتناه في لزوم اقصائه عن الحكم وصحة موقف ابي الحسن معه ، وليت شعري كيف يجزم الناقدون لسياسة ابي الحسن في ان الاصلح في سياسة الملك اقرار معاوية على الشام ، وهو غيب جهلوه والشواهد على عكس ما يزعمون

واما الامر الثاني فلم يعلمنا التاريخ ان الظفر بمحمد ومصر عن قلة تدبير في محمد او لضعف في رأيه وعسى ان يكون عن تخاذل جيشه وخلافهم عليه لان مصر لم تكن كلها على رأي محمد ولعل اهل الشام كانوا اكثر عدة وعدداً بل واحسن سمعاً وطاعة وأين يكون الدهاء والسياسة اذا اختلف العسكر واتفق عليه محاربوه فهلا نفعت العدة والعديد مروان الحمار وهو صاحب الدهاء والرأي يوم اختلف عليه جنده

فمن ثمة لايصح ان ننسب ظفر ابن العاص بمصر لقلة التجربة في محمد وانه لا يعدل قيسا في الحزم والخبرة كما زعم ذلك العقاد في عبقرية الامام ص ١٢١ وكيف نعرف ان محمداً لم يكن من الساسة المجربين وانه دون قيس في حزمه وخبرته ، وعهده لم يطل في البلاد والبلاد لم تكن كلها طوع ارادته

ولعل هناك اموراً قد تدعو لفصل قيس عن مصر احدها حاجة امير المؤمنين له لصلابته وحزمه وطاعته في الانصار ثانيها اتهام الناس له بمكاتبة معاوية واتفاقه سراً معه ، ثالثها الجاء الناس لامير المؤمنين على فصله فلم يجد بداً من نزوله على رغبة الرأي العام وان اخطأ الرأي العام في اراداته لانك جد خبير بما للرأي العام من الاثر في تغيير مجارى السياسة وضياع الرأى على القائد اذا شغب عليه الاتباع ، واين انت عن صفين ورفع المصاحف وانشقاق اهل الكوفة والجائهم للمرتضى على التحكيم وهل له حيلة في تلك الساعة والسيوف

مسلولة في وجهه دون ان ينزل لهم على ما يريدون ولو أصر ابوالحسن على حرب اهـل الشـام لوقع بين لحيي لهـذم ولعل الذى ألجأه لقبول التحكيم هو الذى ألجأه لعزل قيس وقد حضر وغبنا

ولا نسامح العقاد عما كتبه عن سياسة الامام في عبقريته ونسبته الغلط للامام في عزله لقيس وانه ليناقض نفسه ويذكر المبرر لعزله فقد ذكر ان اصحاب امير المؤمنين كانوا يحرضونه على عزل قيس وهو يستمهلهم ويراجع رأيه حتي اجتمعت الشبهات لديه فعزله وهو غير واثق من التهمة ولكنه كذلك غير واثق من البراءة وشبهاته مع ذلك لم تكن بالقليلة ولا بالضعيفة ثم ان العقاد نفسه اطنب في استيراد الشبهات، انظر عبقرية الامام ص ١١٩، ويقول ص ١٢٢ ومن عجائب هذه القضا ان ندم معاوية على تقريب قيس من جوار علي وقال : لو أمددته بمائة الف لكانوا أهون علي من قيس

قل لي بوجدانك أيجدر بمن يسطر هذه الوجوه عذراً لابي الحسن في فصل قيس عن مصر وتقريبه منه ان ينسبـه الى الغلط في عزله على انه امير المؤمنين في علمه وكياسته ورأيه وسياسته واننا لانثق بان امير المؤمنين عزل قيسا لاجتماع الشبهـات لديه فيه لانه الخبير بنصحه وتصلبه في الدين وشدة عدائه لمعاوية وحزبه ولكن ماذا يصنع المرتضى وقد أفسد اهل الكوفة عليه رأيه بالخذلان وبتداخلهم في شؤون سياسته وتدبير رغبته ومن الذى يؤمنه انه اذا أصر على ابقاء قيس ان يبلغ الخلاف عليه ما لا يحمد عقباه وما يوم النهروان

عنه ببعيد

وجملة القول ان سياسة ابي الحسن كانت للدين وفي الدين غير ان الدين بحدوده ثقيل على الكواهل مر المذاق والباطل خفيف المحمل حلو الطعم فماذا يفعل وتلكم النفوس وهاتيكم الرؤوس لا تخضع للحق ولا ترضخ للمساواة وأصبحت الاحياء من قريش - وقد فتح لهم الباب على مصراعيها تتطلع للخلافة وتطمع في الامرة ولا تقنع بغير الاثرة والوفرة ولو استسلموا للمرتضى وسالموه لبددوا عن هاتيك الاماني وأيسوا من تلك المطامع واين الايمان الصادق من هؤلاء ؟ على ان سياسة الملك تبرر مواقفه المشهوره كما عرفت وكان الجدير به ان يقطع تلك الرؤوس ويميت تلك الآمال من النفوس فان هاتيك الآمال ما دامت حية في نفوس القوم تجعل تلكم الرؤوس طامحة ابداً لتلك السلطة والسيطرة فلا تهدأ الحال ولا يرتفع الشغب على ولي الامر ولكن أنى له بالسمع والطاعة

ولو سالمه الزبير وطلحة ومعاوية لانتقض عليه سواهم ما دامت خلافة في الاسلام وما دامت قريش في البلاد وما دام ابو الحسن ذلك الخشن في ذات الله ولو لم يجاهر بتلك السياسة الدينية ويعلن باحكام الدين ونظامه لاصبح الدين ما يراه الملك من السياسة ويهواه من الامر فالدين بعدئذ ما وافق السياسة والاهواء ولولاه ايضاً لما عرفنا الفارق بين الملك والدين ولا بين سياستيهما وهذه من نفحاته القدسية وتدابيره السياسية وما أكثر فضائله ونفحاته وفواضله وكراماته

محمد الحسين الظهري

الليلة الثالثة

علي والامامة — الشيخ محمد رضا فرج الله

نص الغدير — الاستاذ عز الدين آل ياسين

٦٤

علي والامامة

الكاتب عضو في ادارة منتدى النشر ومؤلف
كتابي (الغدير في الاسلام والشيعة وما يعتقدون
وغيرهما) وهو عضو شرف في لجنة المجمع

﴿ يا ايها الرسول بلغ ما انزل اليك من ربك ، وان لم تفعل فما بلغت رسالته والله يعصمك من الناس ﴾ . ليس مما يهم الباحث كثيراً معرفة الامام بما له من معنى معروف ، لكن المعنى الجدير بالبحث الحقيق بالاهمية ، هو حصر الامامة في علي (ع) وقصرها عليه .

ولعل هناك من يتذوق شرح معنى الامامة والامام وجهة الاحتياج اليه ، ليستوضح منه الامر في علي (ع) ويدرس الموضوع درساً تحليلياً ، لا يعتريه التباس ، ولا تشوبه شائبة شك . ليعرف انه النجمة الوضاءة النازلة من السماء لهداية الخلق بعد ابن عمه (ص)

قال اهل علم الكلام ﴿ الامامه رياسة عامة في امور الدين والدنيا لشخص انساني نيابة عن النبي (ص) ﴾

او هي كما في المواقف وشرحه « خلافة الرسول في اقامة الدين وحفظ حوزة الملة ، بحيث يجب اتباعه على الامة كافة »

وانا — لو دققنا النظر — لا نجد فرقا جوهريا بين التعريفين للامامة ؛ عدا تشكيكات علمية يبعثها اجتهاد الباحثين ، ويصورها تفكيرهم ، اذ الهدف واحد والقصد واضح .

فالامام اذن كما يحدده التعريفان . النائب العام والرئيس المتبع ، في صيانة نواميس الشرع ، واقامة كيان الملة ، الحافظ لقوانينها دينية كانت او دنيوية .

وبعد تبيين معنى الامام وتحديده ، تظهر — ضمناً — الغاية المنصوب من اجلها . ومن البديهي ان يحكم عليه حينذاك ، بامور هي من لوازمه وضروریاته ، منها : اولا : ان يكون الامام معصوما

هذا الامر من اهم بل اهم ما يجده العاقل ويشعر بضرورته في الامام . لئلا تنتقض الغاية الملمح لها ، وتنتقض الفائدة المشار اليها فانه — اذا كان حافظا لنواميس الشرع مراعياً لقوانين الدين — صار حاله حال النبي (ص) ، ولذلك نقول ان الامامة من فروع النبوة وتوابعها ، فالغاية من وجود الامام ، رد الظالم عن ظلمه ، ورد ع الفاسد عن فساده واقامة الحدود والفرائض والسنن . وبالجملة فهو حامل الناس على الطاعة ، ومانعهم عن المعصية ولو كان كواحد منهم لجاز ان تقرب اليه المعصية ويتمشى مع الهوى وعندئذ تنعدم الفائدة من وجوده .

ولو جازت عليه المعصية والخطأ لوجب الافتقار الى امام آخر منزه عن المعصية والخطأ . ولو جاز ذلك لذهبت السلسلة الى ما لا ينتهي وهو باطل بضرورة العقل وبداهته ، بل قل كيف يقلع الظالم عن ظلمه بامر من يجوز عليه ان يكون ظالماً مثله .

وهناك نقد آخر — وما اكثرها — على القول بعدم عصمته وهو — لو فرض صدور الخطأ ووقوع المعصية منه — اما ان يجب الانكار عليه او لا يجب . فان كان الاول فقد قلت هيبته وانعدمت سلطته وضعفت منزلته . وان كان الثاني فهو اعراض عن امر الله وامر رسوله — وهو الامر بالمعروف والنهي عن المنكر — ومجلبة للفساد واخلال في النظام لا يؤمن معه التلاعب بالاحكام فكيف بعد كل ذلك يجوز لحافظ الشرع والشريعة الا يكون معصوما (غفرانك اللهم)

وامر ثان من لوازم الامام وضروریاته هو ان يكون افضل من غيره وهذا الامر ايضا مما يفرضه العقل ويحتمه فانه يمنع من امامة المساوي والمفضول لوضوح ان تقديم المساوي يلزمه الترجيح بلا مرجح وهذا من المستحيلات في العقل والعرف والعادة

واما تقديم المفضول فكذلك هو مما يقبحه العقل ايضا وهذا القول يشين الجاهل لو نسب اليه فكيف بالعاقل والى للعقل ان يرضى بتقديمه على الافضل وهو الحاكم العادل ولا ينفلص عن حكمه الا من استولى على مشاعره الجهل او كانت نزعته العناد وكيف

يسوغ بحكم العقل ذلك وادنى لوازمه رفع درجة المفضول وخفض منزلة الفاضل وعلى م يفقد العقل مقاييسه ويضيع موازينه أليس هو المرشد الوحيد والرائد الصادق لا يتردد في حكمه ولا يكذب اهله

فالامام بحكم العقل افضل اهل عصره ، وهو الانسان الكامل الخالي من النقص ، وهو المثل الاعلى المنزه عن الخطأ . وهو جامع الاخلاق العالية والصفات الفاضلة لا يطاوله احد ، ولا يلحقه سابق والعقل يحكم بامامة الافضل وعدم جوازها للمفضول كما صرح بها القران المجيد . وهو الدليل القاطع والبرهان الناصع اذ قال ﴿أفمن يهدي الى الحق احق ان يتبع ام من لا يهدي الا ان يهدى فما لكم كيف تحكمون﴾ وقال تعالى ﴿هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون . انما يتذكر اولو الالباب﴾

ومما يحكم العقل به ايضا ، امران آخران هما : ان يكون عالماً بجميع ما تحتاجه الامة من امور الدين والدنيا ، لعدم حصول الفائدة منه بغير ذلك . وان يكون — حيث تلزم فيه العصمة — منصوصا عليه بخصوصه ؛ من الله سبحانه الى النبي (ص) يوحي اليه بعصمته ، ويدله على حسن سريرته ، اذ لم تكن العصمة من الامور الجلية ، او الاشياء الظاهرة ان هي الا سر خفي ، ومعنى باطني ، لا يعلمه غيره تعالى . واذ يوحي بها الى نبيه ، ويكشفها له في وليه ، يلزمه حينذاك دلالة الامة عليه وارشادهم اليه ، ووجب عليهم طاعته ، والامتثال

باوامره ، والتلقي لتعاليمه ، دون اي اعتراض منهم عليه ، او توقف فيما يرشدهم اليه .

هكذا يجب ان نفهم من معنى الامامة ، وهكذا يجب ان نعرف حكم العقل في الامام . ثم ماذا يجب علينا ان نفهمه بعد ذلك فاقول ؟

يجب علينا ان نفهم ناحية اخرى من نواحي حكم العقل ، وهي احتياج الناس الى امام حجة ، وهل لهم اختياره او هل يختاره الله لهم ؟

هاتان ناحيتان متلازمتان كل التلازم متفقتان اشد الاتفاق لا تنفك احداهما عن الاخرى

ولو نظرنا في حكمة خلق البشر لوجدناهم — بعد ادنى تأمل وايسر تفكير — مضطرين الى الحجة ، اذ لا يشك احد ذو منطق سليم وفهم مستقيم ان الانسان لم يخلق عبثا ، ولم يترك هملا ، بل خلق محتاجا لأشياء كثيرة ، تازمه في معاشه ومعاده وفي خلواته ومجتمعاته خلق الانسان مطوقا بتكاليف لا بد منها فى باديء نشأته ، خلق الانسان وله مزاجان يتصارعان في جبلته وطبيعته ، فحب للدنيا ورغبة فى الآخرة ، خلق وله وعليه احكام وحدود لا يتعداها وانظمة وقوانين لا يتخطاها ، خلق الانسان خاضعا لسلطان القوة وسيطرة السطوة ، طبيعته التغلب وغريزته الطمع ، قاصراً عن مرتبة الكمال ، بعيداً عما يصلحه قريبا من شهواته وما يفسده ؛ واذ يريد الله منه الطاعة فيما امر ويكره منه المعصية فيما نهى ، وجب في الحكمة وجود سفير بين الله وبين خلقه من جنس البشر ، لئلا ينفروا منه ، او يتباعدوا

عنه ، لطفاً منه بعباده كيلا تكون مؤاخذته لهم مؤاخذة بغير بيان وعقوبة بلا حجة ، ذلك السفير هو النبي (ص) يختاره الله فيرسله مبلغاً منذراً ، ومرشداً هاديا (وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا) فالنبي هو الانسان المخبر عن الله بغير واسطة احد من البشر ، يبعثه الله ليقيم العدل بين الناس ويقودهم الى ما فيه صلاح النشأتين ، يبين لهم ما فيه السعادة فيعدهم ، ويكشف لهم عما فيه الشقاء فيوعدهم يقرض فهم دعائم الآراء ، وتشتت المذاهب ، وتكاثر الاديان ، تهذبه اخلاق الهية ومعارف ربانية بجمع كل فضيلة خلقية وخلقية منزهاً عن كل رذيلة وعيب معصوما عن كل خطيئة صغيرة او كبيرة ، بعد البعثة او قبلها ، يجيء بما يؤكد صدقه من آيات ، وبما تدل عليه من المعجزات

هذه الناحية هي جهة الاضطرار الى الحجة ، وعليها المسلمون وذووا الملل وجماعة الفلاسفة اما ناحية اختياره فليس الامر فيه موكولا لآرائهم ولا مقرونا بتدبيرهم، واني تدرك عقول البشر الناقصة من هو الاكمل ، فتدل عليه ومن هو الافضل المعصوم فيهم فيختارونه مهطعين مطيعين

نعم ! كما يجب في الحكمة على الله سبحانه وتعالى ارساله يجب علية اختياره فيرسله مختاراً من عالم التكوين مؤيداً له بروح منه ﴿ وربك يخلق ما يشاء ويختار ما كان لهم الخيرة ﴾ وهل يتردد ذو عقل يعترف بحكمة الصانع فى ان ما يختاره هو الاصلح

لا . وكيف وهو الانظر لمصالح عباده ، المطلع على سرائر خلقه ﴿ يعلم خائنة الاعين وما تخفى الصدور ﴾

وقد ارسل الله محمداً (ص) والناس مذاهب شتى وآراء مختلفة واهواء مضلة جاء بالنبوة ،ودلائلها بينة ومعجزاتها واضحة كان القرآن اصدقها دلالة واظهرها معجزة لا شك فيه ﴿ ذلك الكتاب لا ريب فيه تنزيل من عزيز حكيم ﴾

جاء فجمع الناس على كلمة التوحيد والشهادة له بالرسالة بلغ فانذر ووعظ فاعذر سن قوانين العدل في امته وشرع اقامة الحدود في قومه وأزاح عنهم غاشية الظلم وعادية الباطل ، حينما لبى دعوة ربه ولحق بالرفيق الاعلى دلهم على من اختاره الله لهم بعده اماماً حافظاً لشرعه وشريعته ناشراً اعلام الهداية في امته ذاك هو علي (ع)

﴿ يا ايها الرسول بلغ ما انزل اليك من ربك وان لم تفعل فما بلغت رسالته والله يعصمك من الناس ﴾

سمعت الاشارة ولعلك وعيت حكومة العقل بوجود امام معصوم افضل الناس عالم مختار من الله ويجد الباحث هذه العناوين مصدقة من قبل عقله واسعة المفهوم تشير الى واحد فذ وفرد متميز يكون هو المعنون بها بين افراد خارجية محسوسة

نعم ! هي كذلك والمعنون بها علي (ع)

ينص القرآن ﴿ قل تعالوا ندع ابناءنا وابناءكم ونساءنا ونساءكم وانفسنا وانفسكم ﴾ وما من شك في ان المقصود بالنفس علي (ع)

كما جاء في التفسير المعتبر

وقد جاء في الاثر عن النبي (ص) ﴿ ليأخذن الراية غدا رجل يحبه الله ورسوله ﴾ وجاء ايضا ﴿ اعلم امتي بالسنة والقضاء بعدي علي بن ابي طالب ﴾

وجاء ايضا ، انا وهذا حجة على امتي يوم القيامة) يعني علياً (ع)

يتنقل العقل في زوايا الآية الشريفة ويتقلب فيما بعدها من معاني صحاح الاخبار فيتدرج الى تلك العناوين بالملازمات القطعية وعندها يبعث حكمه البات الذى لا نقض فيه بان المعنون بها علي (ع)

فعلي معصوم بحكم العقل الناتج من الآية لأنه نفس النبي ص والنبي معصوم ولا شك وهناك في صحاح الاخبار المروية في الكتب المعتمدة ما يؤكد انه نفس النبي ﴿ص﴾ بصورة واضحة لا غبار عليها

ذكر الكنجي الشافعي في كفايته والتقي الهندى في كنزه وغيرهما ان رسول الله قال ﴿ ان علياً نفسي ﴾ وقال ﴿ لينتهين بنو وليعة او لأبعثن اليهم رجلا كنفسي ينفذ فيهم امرى ﴾ ولانه نفسه كان يقول كما عن الخوارزمي ﴿ هذا علي لحمه لحمي ودمه دمي وهو مني بمنزلة هارون من موسى ﴾ ويقول ايضا في الكنز ﴿ علي منى وانا من علي ﴾ (من آذى علياً فقد آذاني) ﴿من سب علياً فقد سبني﴾ وكان يخاطبه فيقول له « كذب من زعم انه يحبني ويبغضك لانك مني وانا منك » وخاطبه قائلا كما في حلية الاولياء ﴿يا علي اخصمك بالنبوة ولا نبوة بعدي﴾ كل ذلك يكون لنا صورة صادقه عن انه نفس النبي في خلقه وصفاته

وشمائله عدا النبوة

على افضل

يحكم العقل ويساعده عرف الناس وعادتهم ان الاختصاص بالمحبة لا يكون الا من اجل ميزة في المحبوب تفضله على غيره

كان علي « ع » احب الخلق الى الله والى الرسول « ص » لصفاته النفسانية وكمالاته الروحية الممتاز بها على من سواه ويضيق الموقف عن بيانها

لم يزل ذلك مؤكداً بكثير مما ورد فيها من الاخبار ولقد امر الله سبحانه وتعالى نبيه بحبه كما في النص المأثور عن النبي « امرني ربي بحب اربعة » الى ان قال « انك يا علي منهم » يكررها ثلاثا وقد سأله علي عن الثلاثة الباقين فقال هم فاطمة والحسنان وكم كررت الاحاديث والروايات المسندة حديث الطائر كما في بعض الصحاح وغيرها عن انس بن مالك وتحدثنا الرواية عن انس انه رد عليا ثلاث مرات

نعم ! لم يكن رده الارغبة منه بان تكون تلك المزية لرجل من قومه كما في كفاية الكنجي عن النبي قال : اهدي لرسول الله طائر فوضع بين يديه فقال اللهم ائتني باحب خلقك اليك يأكل معي فجاء علي فدق الباب فقلت من ذا فقال انا علي فقلت ان النبي على حاجه فرجع ثلاث مرات كل ذلك يجيء قال فضرب الباب برجله فدخل فقال النبي

ما حبسك ؟ قال جئت ثلاث مرات كل ذلك يقول : النبي على حاجة فقال النبي ما حملك على ذلك ؟ قال كنت احب ان يكون رجلا من قومي . قال راويه ﴿ وفيه دلالة واضحة على ان علياً احب الخلق الى الله واول الدلالة على ذلك اجابة دعاء النبي فيما دعا به وقد وعد الله من دعاه بالاجابة ﴾ الخ . ولو عقلت حديث ﴿ انت مني بمنزلة هارون من موسى الا انه لا نبي بعدي ﴾ لعلمت من هو الافضل يقول الحاكم النيسابوري ﴿ هذا الحديث دخل في حد التواتر وقد كان هارون افضل امة موسى فوجب ان يكون علي افضل من كل امة محمد (ص) صيانة لهذا النص الصحيح الصريح ﴾ ولعل الباحث المفكر ينتقل الى عصمته وافضليته من كونه نفس النبي (ص) وفي قول النبي ﴿ اخصمك بالنبوة ﴾ وعموم المنزلة في هارون

يحدثنا الكنجي حديثاً يشمل ذكر النفس رواه عن ابن سويدة التكريتي فيقول في كلامه : ولا بد ان يكون المراد هو المساواة بين النفسين وهذا يقتضي ان كل ما حصل لمحمد من الفضائل والمناقب فقد حصل مثله لعلي (ع) ترك العمل بهذا النص في فضيلة النبوة فوجب ان تحصل المساواة بينهما فيما وراء ذلك . الى ان قال : ﴿ ولم أر الاصوليين اجابوا عن هذا الشيء ﴾

نعم ! ولقد انصف الاصوليون اذ لم يتكلموا جزافا ولم يحتجوا بباطل .

على عالم بجميع ما تحتاجه الامة

علم علي (ع) لا يحتاج الى اقامة برهان، او اثبات حجة وتنظيم بيان وقد ملأت الكتب اقضيته وافعمت الصدور احكامه، حتى كاد ان يلحق علمه بالمعجزات الخوارق للعادات بل هو كذلك، فكم من قضاء له حير الالباب. وحكم فيه تاهت العقول حتى قال الخليفة عمر ﴿ اعوذ بالله من معضلة ليس لها ابو الحسن ﴾ وما سبب ذلك الا ما كان عند علي (ع) من علم محجوب عنهم واحكام لم تكن حاضرة لديهم

يقول رسول الله ﴿ اعلم امتي بالسنة والقضاء بعدي علي بن ابي طالب ﴾ ويقول ايضا كما في الينابيع وغيره ﴿ لما صرت بين يدي ربي وكلمني وناجاني فما علمت شيئا الا علمته علياً فهو باب علمي ﴾ وقوله كما في حلية الاولياء وغيره ﴿ ليهنك العلم يا ابا الحسن فقد شربت العلم شربا ونهلته نهلا ﴾ ويحدث ابن عباس ان عليا (اعطي تسعة اعشار العلم وانه لأعلمهم بالعشر الباقي). وقد سمعت الكلمة الذهبية للعلامة الشيخ عبد المهدى مطر كيف حلت ﴿ انا مدينة العلم وعلي بابها ﴾

يتخطى العقل في عرصات هذه الصحاح من الاخبار فتصل خطوته الاخيرة الى الحكم بانه عالم بجميع ما تحتاج اليه الامة. فمن باب علمه يكون الدخول الى مدينة علم النبي وانت لا تشك في ان

النبي عنده علم جميع ما تحتاجه امته . ولو تدبرت قوله عليه السلام ﴿ سلوني قبل ان تفقدوني ﴾ وقوله : ﴿ لو شئت لا وقرت من تفسير الفاتحة سبعين بعيراً ﴾ وقوله : ﴿ لو ثنيت لي الوسادة لقضيت بين اهل التوراة بتوراتهم وبين اهل الانجيل بانجيلهم وبين اهل القرآن بقرآنهم والله ما من آية نزلت الا وانا اعلم فيمن نزلت وفي اي شيء نزلت ﴾

ان علياً لم يكن عنده حينذاك علم ما تحتاجه الامة فقط ، بل عنده العلم كله . وانا لو اردنا سرد ما جاء في علم علي لأحتجنا الى مجلدات ضخمة . لكن مقصودنا الاشارة الى ذلك بالاجمال

على اختاره الله

يحكم العقل بذلك حكما جازما لا ترديد فيه ولا تشكيك لأنه حجة وليس للناس اختيار الحجة ؛ وان قيل ان ذلك للامة فيرده العقل ويمنعه القرآن الكريم وتبطله الاخبار الصحاح

لا نريد ان نطيل في البرهان على خلافه ولعل فيما ألمحنا اليه كفاية لذي النظر الثاقب والفكر الحصيف . انما نريد ان نلفت الانظار الى ما ورد من بعض الاخبار كتأكيد للحكم العقلي الذى نقوله في ان علياً قد اختاره الله

جاء في الكتب المعتبرة كبعض الصحاح الستة والكنز والمستدرك والمناقب . والتذكرة وغيرها حديث طويل يخاطب رسول الله (ص)

فيه علياً ومنه : ﴿ ان الله تبارك وتعالى خلقني وخلقك من نوره واصطفاني واصطفاك فاختارني للنبوة واختارك للامامة فمن انكر امامتك فقد انكر نبوتي ﴾

وفي رواية اخرى ﴿ يا علي انت اخي وانا اخوك انا المصطفى للنبوة وانت المجتبى للامامة ﴾ وفي ثالثة من حديث طويل يجيب به ابنته الطهر فاطمة (ان الله عز وجل اطلع الى اهل الارض اطلاعة فاختارني منهم فبعثني نبياً مرسلا ، ثم اطلع اطلاعة فاختار منهم بعلك فاوحى الي ان ازوجه اياك واتخذه وصيا) ، وفي رواية رابعة (ان الله باهى ملائكة السماء بعبادة علي (ع) ثم قال يا ملائكتي انظروا الى حجتي في ارضي . اشهدكم انه امام خلقي ومولى بريتي)

وبهذا يتم حصر العقل الامامة في علي (ع) ويقصرها عليه وهذا الدليل « العقلي» هو من ادلة اربعة مفيدة لا يشك في حجيتها احد من علماء الاسلام فانهم قرروا ان القاطع للعذر والحجة على الحكم العقل والكتاب والسنة القطعية والاجماع . وانت بما سمعت عرفت دلالة العقل على امامة علي « ع » وحكومته بالامامة له دون سواه بقي علينا ان نستعرض الدليل الثاني وهو القرآن ونتصفح السنة القطعية وهي الدليل الثالث ونستوضح حكمها في الامام علي ﴿ع﴾ وماذا يقولان بشأنه وان كان ما قلناه من الدليل العقلي قد استغنا عليه بالكتاب والسنه .

وقبل البحث ألفت انظار السامعين الى اني ما كتبت ولم اكتب

عن الامام علي عليه السلام الا ما تحدثني به كتب اخواننا اهل السنة

القرآن وعلى

يحدثنا مجاهد وعكرمة كما في التذكرة وغيرها ان مامن آية فيها « يا ايها الذين آمنوا » الا وعلي رأسها واميرها ، فعلي امير كل مؤمن ؛ ومقتدى كل مسلم ، حقه على المسلمين كحق الوالد على الولد فان السامع لعلى يقين من ان القرآن هو المعجزة الكبرى الخالدة لمحمد ﴿ ص ﴾ لا ينكره ولا يشك فيه الا من انكر النبي او شك فيه وقد تخصص في تفسيره والاحتفاظ بمعانيه ثقات الرجال فاستفرغوا الوسع واجهدوا النفس في رواية تفسيره عن صاحبه « ص » وهذا القرآن ينطق آيه بعدة مقامات منه — على ما فسرها اولئك الثقات بالمأثور عن النبي بولاية علي عليه السلام وتوليه ، وخوف الاطالة يحملني على الاختصار فى التفسير والاكتفاء بالاشارة الى هذه الآيات .

قال تعالى : « ولتسألن يومئذ عن النعيم » قالوا : النعيم ولاية علي ابن ابي طالب عليه السلام

وقال تعالى ﴿وقفوهم . انهم مسؤولون﴾ قالوا يعني عن ولاية علي ع

وقال تعالى ﴿ واني لغفار لمن تاب وآمن وعمل صالحاً ثم اهتدى﴾ فعن انس بن مالك . اي اهتدى الى ولاية اهل بيت النبي

وعنه « ص » في تفسيرها مخاطبا لعلي « ع » « لن تهدي الى

الله من لم يهتد الى ولايتك »

وقوله تعالى « يا ايها الذين آمنوا ادخلوا في السلم كافة » والسلم هو الولاية

وقوله تعالى : « انما انت منذر ولكل قوم هاد » قالوا : المنذر محمد ص والهادي بعده علي ع

وقوله تعالى : « واعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرقوا » وفي تفسيرها جاء ان رسول الله ﴿ ص ﴾ ضرب يده في يد علي وقال « تمسكوا بهذا هو حبل الله المتين »

وقوله تعالى : « انك على صراط مستقيم » ذكروا في تفسيرها انه علي ع

وقوله تعالى : « اولئك هم خير البرية » قالوا : هو علي واهل بيته

وقوله تعالى : « وانذر عشيرتك الاقربين » جاء في تفسيرها المروي في كتب التفسير والسير والتاريخ انه «ص» جمع بني عبدالمطلب وتكلم معهم في دعوته ثم قال : فايكم يؤازرني على امري فقال علي — وكان احدثهم سناً — انا يا نبي الله فاخذ النبي برقبته وقال « ان هذا اخي ، ووصيي ، خليفتي فيكم فاسمعوا له واطيعوا فقام القوم يضحكون ويقولون لابي طالب قد امرك ان تسمع لابنك وتطيع

وقال تعالى : « يا ايها الذين آمنوا اطيعوا الله واطيعوا الرسول واولي الامر منكم » فعن مجاهد انها نزلت في علي

وقال تعالى : « انما وليكم الله ورسوله والذين آمنوا الذين

يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة وهم راكعون » قالوا: سبب نزولها ان النبي ص دعا الله سبحانه ان يجعل له وزيراً من اهله فنزل جبريل عليه بهذه الآية وكان علي هو الذى تصدق بخاتمه وهو في الصلاة

وقال تعالى « قل لا اسألكم عليه اجراً الا المودة في القربى » ولما نزلت قالوا يا رسول الله من قرابتك هؤلاء الذين وجبت علينا مودتهم فقال « علي وفاطمة وابناهما »

وقال تعالى « انما يريد الله ليذهب عنكم الرجس اهل البيت ويطهركم تطهيرا » قال الكثير من المفسرين والمؤرخين واهل السيرة انه دعا علياً وفاطمة وابنيهما وقال « اللهم هؤلاء اهل بيتي »

وبهذه الآيات كفاية لمن استبصر وهل يستطيع الكاتب بهذه العجالة ان يأتي على الآيات النازلة في علي عليه السلام كلا. ولعل الظروف تساعدنا على جمعها من القرآن

علي والسنة

اشرنا الى بعض السنة في طي ما ذكرناه من الدليل العقلي واليك ما نذكره الآن فعنه «ص» « اقدم امتي سلما واكثرهم علماً واصحهم ديناً وافضلهم يقيناً واكلهم علما واسمحهم كفاً واشجعهم قلباً علي ع وهو الامام على امتي » وقال ص يخاطبه « لولا اني خاتم الانبياء لكنت شريكا في النبوة . فان لم تكن نبيا فانك وصي نبي وارثه بل انت سيد الاوصياء وامام الاتقياء »

وخاطبه « ص » ايضا بقوله ﴿ يا علي انك وصيي ، حربك حربي وسلمك سلمي وانت الامام وابو الأئمة الاحدى عشر الذين هم المطهرون المعصومون ومنهم المهدي الذي يملأ الله الارض فيه قسطا وعدلا ﴾

وقال ايضا « انت وصيي ووارثي وانت امام امتي »

وقال « ص » « هذا علي امير المؤمنين وسيد المسلمين »

واخرج الحموينى من حديث وفيه « لحمك من لحمي ودمك من دمي وروحك من روحي وسريرتك من سريرتي وعلانيتك من علانيتي وانت امام امتي ووصيي . سعد من اطاعك وشقي من عصاك وربح من تولاك وخسر من عاداك فاز من لزمك وهلك من فارقك ومثلك ومثل الأئمة من ولدك مثل سفينة نوح من ركبها نجى ومن تخلف عنها غرق

وقال « ان الله عهد الي في علي « ع » انه راية الهدى وامام اوليائي ونور من اطاعني وهو الكلمة التي الزمتها المتقين فمن احبه احبني ومن ابغضه ابغضني فبشره » فجاء علي فبشرته بذلك

وقال « ص » وهو آخذ بضبع علي « ع » « هذا امير البررة وقاتل الفجرة منصور من نصره مخذول من خذله »

وقال « علي مع الحق والحق مع علي يدور معه حيثما دار »

هذه الاخبار هي الدليل الثالث على امامة علي ع وهناك اخبار كثيرة تدل على امامته آثرت الاختصار فى تركها بقي علينا الدليل الرابع وهو الاجماع فقد ارجأناه الى فرصة اخرى

محمد رضا فرج الله

٨٩

نص الغدير

الكاتب ـ من نوابغ الشباب العراقي الذين خدموا النهضة الادبية الحديثة في العراق خدمة صادقة ومن بيت علمي كبير اشتهر بالجد والاجتهاد وفيه اليوم علماء اعلام
وقد تخرج الكاتب من دار العلوم المصرية وشغل منصب استاذ الادب العربي في دار المعلمين العالية وهو عضو شرف في لجنة المجمع

ضرورة الامامة

لقد اعذر النبي ونصح للامة ، وبين للناس مراشدهم ، واوضح لهم من احكام شرعته ما امر ان يصدع به فى عصره قولا وفعلا واقراراً ، ودل اتباعه على الجملة الباقية باحالتهم الى اخيه وابن عمه

الذى اثره الله بوارثة علمه ، واستحفظه اياه ؛ وجعله الخليفة على الامة بعده ؛ في تبليغها تكاليفها التى تفرضها المصلحة وتمليها الشريعة

ولهذا قال النبي : انا مدينة العلم وعلي بابها . هو مدينة العلم الحصينة التى لا يطمع طامع في اقتحامها وولوجها الا من بابها وعلي بابها الذي تفتتح من جهته ، ويوصل اليها من طريقه ، والا فهي الصعبة على من يرومها تتقطع دونها الاسباب ، وتنبو الغرائم وتتقاصر الاعناق

فالامام هو المخصوص بتفصيل ما اجمل النبي ، وتوضيح ما اشكل على اتباعه ، وهم مسؤولون ان يعوا عنه ، ويسمعوا له ويزيحوا عللهم بنهجه السديد ، ورأيه الرشيد ، ومنهله الفرات

ولو فرض ان النبي لم يخلف عن الامة شيئا ، ولم يؤثر بعلمه منهم احداً ، لم يكن مع ذلك سبيل الى الاستغناء عن الامامة بعد النبي لان النبي ص انما انتظم بتعاليمه معاصريه ، وهم كأهل كل زمان متفاوتون عقلا وذكاء ، وخلقاً وعلما واستعداداً : فيهم الذكي الاريب ، والفدم البليد ، والمتوفر على العلم والبرم به ، والزاهد في الدنيا ، والمقبل عليها ، والصادق المتحرج ، والماذق الأثيم . وكل منهم مظنة ان يقع في لبس من الامر ، او خطأ من القول ، او ضلال من الرأي . وقد تتضارب الروايات ، وتتناقض وجهات النظر ، ويصدم بعضها بعضا فمن للناس اذا لبس عليهم الحق ، وعمى عليهم سبيله ما دام كل من الروايات والآراء لا يستند الى عصمة تنفي عنه شوائب الخطأ او

التحريف بله التزوير والافتراء ؟ . فما حيلة الناس اذا تخبطوا فى ديجور هذا الاختلاف الا الرجوع الى الظن وهو لايغني من الحق شيئاً . وما كان الله — وهو اللطيف بعباده — الذي اختار النبي رحمة لهم ان يسلم الناس بعده الى هذه الفوضى تركبهم طبقاً عن طبق ، فتعمى عليهم سبل النجاة لا يدرون اين مردها ولا اين مأتاها

ولو جوزنا ان تسمع الامة جميع تفاصيل الشريعة ونظمها وتعاليمها وتحيط بها وتتفق عليها وتسقط عنها معرة الاختلاف فيها ! أفلايجوز على افرادها الشك والنسيان ، ام يستحيل من بعضهم الجحد والكتمان ؟ واذا صح هذا لم يكن ما حفظت ووعت واصفقت عليه بمؤمن من وقوع ما هو جائز عليها وممكن منها من الغفلة او الجحود . وفي جواز ذلك جواز سقوط الحجة عن الأمة ، إن لم يكن هناك معصوم هو عدل للكتاب ، يدرك منه الحق ويعرف وجه الصواب

ولو توسعنا فانكرنا ان يكون بين افراد الأمة من يشك او ينسي او يكتم او يجحد او يدهن ، فما الحيلة في الطبائع المتباينة ، والمنازع المتصادمة ؟ من لهذه الشهوة يكمها ؛ ولتلك النزوة يردعها ، ولذلك العرام يكفكف من غربه ؟ وفي الناس كلهم او بعضهم ميل الى المال والجاه والسلطان ، مع اختلاف حظوظهم من الفكر والارادة والوجدان ، ومن هنا كان التحايد والتحاسد ، والتناكر والتباغض وايقاع بعض الناس ببعض ، وكيد بعضهم لبعض ، ونيل بعضهم من بعض . ولا منجى لهم من كل ذلك الا برئيس يزعمهم فينقادون

له ، فيقيم بهيبتـه اودهم ، ويلم برأيه شعثهم ويمنع الضعيف ان يتحكم فيه القوي ، حتى تستقيم امورهم ، ويسلموا على انفسهم واموالهم ، والا فالبلبلة والفتنة والهرج واختلاط الحابل بالنابل ، وقديمـا قال القائل :

لا يصلح الناس فوضى لاسراة لهم
ولا سراة اذا جهـالهم سـادوا

واذا كان الله انما خلق خلقه لصلاحهم ؛ فينبغي في عدله ورأفته ورحمته الا يخليهم في كل زمان وفي كل جيل من رئيس يكون لهم اماما . هذا الى ان الامة مجمعة ان في الشريعة احكاماً لا يجوز اهمالها او اغفالهـا ، وليس لأفراد الامة ان يتولوا اجراءها ، فوجب ان يكون للناس في كل زمان امام يقيم حدود الشرع ، ويقتص من الجناة ويدفع عن المسلمين اسباب الاذى ، ويسير فيهم بالهدى والرشـد ، لا بحيد عما يمليه الكتاب والعقل السليم

فليس لمن آمن بالرسل سفراء بين الله وعباده بد من الايمـان بوصي زكي يقوم مقام الخلافة عن النبي في امته ، اميناً على ما استودع من تراث النبوة ، كفواً لما عصب به من إمارة المؤمنين ، ناهضا بأعباء هذه الأمارة ، لا يألوا جهداً ولا يدخر وسعاً . يقود سفينـة الدنيا والدين بمجذافين من كفاية ويقين . ويسكن الناس منه في الازمات والمشكلات الى خير مفزع ، يسلك بهم نهجاً قاصداً في صراط مستقيم وطريق مهيع . معصوما عن الضلال فلا يزل ، قويا على

الاحداث فلا يذل . قد عرف الحق وعاينه وذاقه وتمثله وخالط منه لحماً ودما فهو يدور معه حيثما دار تنطق به اقواله وتنطق به اعماله

الوصاية

وقد شاء الله ورسوله ان تكون وصاية خاتم الانبياء (ص) لأهل بيته الأئمة الراشدين الهداة المعصومين الذين أذهب الله عنهم الرجس وطهرهم تطهيرا . وامر المسلمين ان يتمسكوا بهم ويعولوا عليهم فقال عز من قائل : ﴿ ولو ردوه الى الرسول والى اولي الامر منهم لعلمه الذين يستنبطونه منهم ﴾ . وقال النبي (ص) إني مخلف فيكم ما ان تمسكتم به لن تضلوا كتاب الله وعترتي اهل بيتي الحديث

اولهم علي الذي أتم الله به الحجة على الناس فبرأه من العيب وعصمه من الخطل فهو خليفة النبي على مكانه ووارثه على علمه وامينه على وديعته ووصيه على امته المحب له محب لله ولرسوله والمبغض له مبغض لله ولرسوله لانه اخو رسول الله وصفيه استظهر به (ص) واستد بسيفه ورأيه ونصبه للناس علماً يهتدون بنوره ويقتدون بهديه فهو خليق ان يرشد الجاهل ويجيب السائل وينبه الغافل ويفقههم في الدين ويقفهم على معالمه ويبصرهم باحكامه

وبعد فقد يسأل هنا سؤالان : اولهما ما الدليل على ان النبي وصي ؟ والثاني من قال ان الوصي علي بن ابي طالب ؟

وللجواب عن السؤال الاول نقول : قد جاء القرآن والحديث

بالحث عن الوصية والترغيب فيها والاغراء بها . واجمع لذلك المسلمون على حسنها وحميد اثرها في حياطة المال والاهل والولد وجميع ما يحفله الموصى ويرعاه ويعنى به حتى عداها لها عندهم تفريطاً وتضييعاً والاهتمام بها حسن نظر وحزما واحتياطاً أفيصح ان يأمر النبي بالوصية فى عرض من عروض الدنيا ونشبها وعقارها وزبرجها ثم يفارق امته التي يرعاها ويسوسها ويقوم بشأنها وينهض بتدبير امرها دون ان يوصي الى احد يخلفه على شؤونها حفظا لكيانها الجديد ورعاية لدينها الوليد ؟ وكيف يزهد في امر قد بالغ في الدعوة اليه وهو اسبق الناس الى كل فضل ؟

قالوا : لسنا نجحد ان علياً وصي الرسول ولا سيما وقد زخرت آثاره وخطبه بكثير من التصريحات الدالة على اعتداده بهذه الوصية واستناده اليها في ترشيحه نفسه للخلافة وبها احتج اهل بيته وشيعته حتى سارت في شعر الشعراء والرجازين سيرورة لا تقبل الجدل والمراء — ولكنها وصية لا تتعدى شؤون بيتة (ص) واملاكه وتركته ولم يوص النبي اليه بشيء من امر الامة

قلنا : اذا كان النبي لا يورث وكان ما خلفه صدقة ليس لاحد الحق في ادعاء ملكية شيء منه — ولو شهد على ذلك من ائتمنه النبي ووصاه وصيته المعترف بها — فليت شعري بماذا اوصاه ان لم يكن ناط به حفظ الشريعة والقيام بامر الامة ؟

كان النبي لا يبرح المدينة الا اذا استخلف عليها من يقوم بادارة

شؤونها بعده ايثاراً لمصلحة اهلهـا مع قرب المسـافة بينه وبينهم وسرعة عودته اليهم فكيف يصح ان ينقطع عن جميع امته بخروجه من الدنيا ويعرض اتباعه لاختلاف الكلمة وتشتت الشمل وانفراط العقد وطمع اهل النفاق دون ان يحسن النظر لهم تاركا الاستخلاف فيهم مفرطاً في الامر الجليل وهو الذى يحتـاط للصغير الصغير من الامور ينظر في عواقبه ويحسب له حساب الالمعي الحكيم والله يقول : ﴿ لقد جاءكم رسول من انفسكم عزيز عليه ما عنتم حريص عليكم بالمؤمنين رؤوف رحيم ﴾

* * *

هل هناك نص

قد يلجأ بعض المنكرين للنص على امير المؤمنين (ع) الى ان وجود الاختلاف في هذا النص برهان عدمه والا فان كان حقا قد اعلن على رؤوس الاشهاد ففيم هذا الاختلاف والانشطار بين صفوف المسلمين — ؟ كأنهم نسوا او تناسوا ان النبي (ص) نص على عبادات كثيرة واعلمها امته ثم اختلفت الامة مع ذلك فيها ولم تتفق عليها ! من ذلك الوضوء الذى عرفهم كيفيتـه وكرر فعله بحضرتهم وهو فرض على جميعهم يترادف وجوبه عليهم ويتكرر فعله منهم ومع ذلك لم يتفقوا عليه ولا صدق بعضهم بعضـا فيما يرويه فمنهم من مسح اذنيه ومنهم من انكر ذلك ومنهم من مسح بعض

رأسه ومنهم من مسح جميعه ومنهم من مسح رجليه وقال لا يجوز غسلهما ومنهم من يرى ان الفرض غسلهما ومنهم من مسح على خفه ومنهم من انكر ذلك وكل ذلك ينسب قوله وفعله الى رسول الله ص ومن ذلك الاذان على اشتهارة بين الناس وسماعهم له في اليوم والليلة خمس مرات ينادي به للصلاة وهم فيه وفي الاقامة على اختلاف بين زيادة ونقصان وبعض يبدع بعضا ومن ذلك احكام الصلاة التي نص النبي (ص) لهم على جملتها وتفصيلها وكان يصلي بهم حضراً وسفراً فقال بعضهم : يرفع يديه مع كل تكبيرة وقال آخرون انما رفعها في تكبيرة الاحرام وقال بعضهم جهر بالبسملة ونفى قوم ذلك وقال قوم كبر على الميت اربعاً وقال آخرون خمساً ونحو ذلك من العبادات التي قد نص عليها واضطرد التكليف بها في كل يوم . أفيحرؤ احد على القول بان الاختلاف في هذه العبادات ينم على عدم الامر بها والنص عليها ؟ ام ان الاختلاف في النص على الامام فحسب يفضي الى تجاهل هذا النص او البت بعدم صدوره عنه (ص) ؟

يحتج الامامية بتواتر نصوص ينقلها الخلف منهم ومن غيرهم عن السلف صريحة في تعيين علي بعينه خليفة على المسلمين بعد الرسول وتوليته من امرهم ما كان النبي يتولاه منهم حاشا النبوة وخصائصها فتستضعف منهم هذه الطريقة او تنكر دلالتها على ما يدعون . وقد فات هؤلاء المنكرين ان هذه الطريقة نفسها هي محجة المسلمين جميعاً في اثبات نبوة النبي ومعجزته وتحديه المشركين بكتاب الله فان

لم يكن مفر من الاذعان للتواتر هنـا فكيف الشموس على التواتر هناك ؟ وهما شيء احد في استحالة التواطؤ على الكذب فيهما . ولا ينبغي الالتفات الى القلة والكثرة في العـدد ، فالمسلمون جميعاً قلة بالنسبه الى سواهم من غير المسلمين

ولو كان الى الأمة اختيار الامام بعـد وفاة النبي — كما تفرض ذلك النظم الشورية — فلم لم يكن اليها اختيار احد من العمال او تعيين امير من الامراء في حياته (ص) ؟ ولماذا كان النبي يتولى بنفسه استخلاف من يستخلفـه وتأمير من يؤمره على رعاياه ، او يبعثه في جيوشه وسراياه ؟ حتى انه قدم جعفراً في غزوة موته وقال للنـاس : ان اصيب فاميركم زيد بن حارثة ، وان اصيب فاميركم عبد الله بن رواحة ، فلم يملكهم حق اختيار الرئيس وهو حي ؛ فكيف يملكهم اياه عند وفاته ، وهو لو امتحنهم في اياه فزلوا امكن تدارك زللهم بسديد رأيه وثاقب بصيرته وليس كذلك الشأن من بعده اذا زلت بهم الأقدام وقد سبق السيف العذل

واما الجواب عن السؤال الثاني وهو : من قال ان الوصي علي بن ابي طالب ؟ — فان من النصوص التي جاءت تعلن امامة اميرالمؤمنين في صراحة لا تقبل الريب — حديث الغدير . فقد ثبت فى المنقول بالطرق المتواترة عند جميع المسلمين دون تفريق بين فريق وفريق ، ان رسول الله (ص) لما رجع من حجة الوداع نزل بغدير خم ، ولم يكن منزلا . ثم امر مناديه فنادى في الناس بالاجتماع لأمر ذي بال ،

فاجتمع منهم مائة الف او يزيدون ، فكورت الحدائج كهيئة المنبر ، فصعد عليها رسول الله (ص) حتى اشرف على الناس ، ثم وعظهم وذكرهم النار ، وشوقهم الى الجنة ثم قال : ايها الناس انما انا بشر مثلكم ، يوشك ان يأتيني رسول ربي فاجيب واني تارك فيكم ما ان تمسكتم به لن تضلوا ابدا : كتاب الله وعترتي اهل بيتي ، وقد نبأني اللطيف الخبير انهما لن يفترقا حتى يردا علي الحوض ، فلا تقدموهم فتهلكوا ، ولا تأخروا عنهم فتهلكوا ، ولا تعلموهم فانهم اعلم منكم ثم قررهم على ما جعل الله له عليهم من فرض طاعته والانقياد له فقال ألست اولى بالمؤمنين من انفسهم ؟ قالوا جميعاً : بلى . فلما اجابوا بالاعتراف ، رفع بيد علي حتى بان بياض ابطيه وقال ـ عاطفاً على التقرير الذى تقدم به اليهم ـــ : فمن كنت مولاه فهذا علي مولاه اللهم وال من والاه وعاد من عاداه ، وانصر من نصره واخذل من خذله ، وأدر الحق معه حيثما دار وكيفما دار . فجعل لأمير المؤمنين في اعناق الامة ما جعل الله له عليهم مما اخذ به اقرارهم . وهذا يفضي الى ان امير المؤمنين اولى بهم من انفسهم ، ولا يكون كذلك الا وطاعته مفترضة عليهم ، وامره ونهيه نافذ فيهم . وهذه رتبة الامامة المنصوص عليها له (ع)

قيمة الحديث ودلالته

في هذا الدليل اربع مسائل : الاولى ان يقال : ما الحجة على صحة

الخبر في نفسه ؟ والثانية ان يقال : ما الدليل على ان لفظة مولى تحتمل الاولى وانه احد معانيها ؟ ، والثالثة ان يقال . ما البرهان على المراد بها في الخبر الاولى دون ما سوى ذلك من مدلولاتها ؟ ، والرابعة ان يقال ما ضرورة ان يكون الاولى هو الامام ، ومن اين يستفاد ذلك ؟

اما السؤال عن صحة خبر الغدير ، وهو من الظهور والانتشار والتواتر ما هو ؛ فالسؤال عن حجة الوداع ، أحقيقة هي ام اختراع؟ وكيف يدنو الشك من خبر نقله اصحاب السير ، ونقلة الآثار على اختلاف الوانهم ونزعاتهم نقلا متواتراً يحمله جيل عن جيل وقرن بعد قرن وخلف عن سلف ، حتى ضمنه كثير منهم مؤلفاتهم بغير اسناد ، كما فعلوا في سرد الحوادث الشهيرة ، والوقائع الكبيرة التي لا يحتاج في العلم بها الى سماع الاسانيد المتصلة . وورد مع ذلك في مؤلفات كثيرة معنعنا بالأسانيد المعتبرة ، ورواة اصحاب الحديث من الخاصة والعامة من طرق كثيرة لا سبيل الى استيعابها في هذه العجالة ، وقد صرح بتواتره صاحب الفتاوى الحامدية والامام السيوطي وغيرهما . وهكذا تلقاه العلماء بالقبول ، وتناولوه بالتسليم فاما الشيعة فطاروا به دليلا واضحاً على النص ، واما غيرهم فجعله مبعث فضل عظيم ، ومنزلة جليلة . ولو وسع احداً من الناصبة انكاره ما احجم ؛ ولكنها الشمس لا يسترها غربال ولا يخفي شعاعها سحاب . وقد تعبث كثير من العقول والاقلام في تأويله وتخريج الوجوه له للافلات من دلالته المطابقة ، بعد ان اعيتها الحيل في دفعه

اوالطعن في روايته ، اوالغمز في احد من رجال سنده . وقد كان انكاره اسلم لهم لو قدروا عليه ، وتجريح رجاله اسهل عليهم لو وجدوا سبيلا اليه

واما السؤال الثاني فكتب اللغة رهينة بالجواب عنه ، ولفظة م لى في اللغ ة تحتمل عشرة معاني : الاولى ، مالك الرق ، المعتق ، المعتق ، ابن العم ، الناصر ، من يحوز الميراث الحليف ، الجار ، السيد المطاع . والمعنى الاول اصل هذه المدلولات ، ومردها الذي ترجع اليه قال تعالى : ﴿ فاليوم لا يؤخذ منكم فدية ولا من الذين كفروا مأواكم النار هي مولاكم وبئس المصير ﴾ . فسره على هذا الوجه ابو عبيدة معمر بن المثنى في كتابه ﴿ المجاز في القران ﴾ وسمي مالك الرق مولى لانه اولى بتدبير عبيده من غيره ، وكذلك المعتق اولى بمعتقه في تحمله لجريرته والصق به من غيره ، وابن العم اولى بالميراث ممن هو أبعد منه في نسبه ، واولى ايضا من الاجنبي بنصرة ابن عمه والناصر أولى لما اختص به من النصرة وكذلك تجري هذا المجرى بقية المعاني فهي تعود بمعناها الى الاولى . وهذا يشهد بخطأ من يزعم ان مولى مجاز في الاولى وكيف يكون مجازاً ومدلولات مولى كلها — كما ترى — تصدر عنه وتنتهي اليه وقد قال الفراء في كتاب معاني القرآن : ان الولي والمولى في كلام العرب واحد

واما ان المراد بلفظة مولى في خبر الغدير الاولى دون غيرها من المعاني المحتملة فذلك لانه قد جرت عادة ذوي اللسن في خطابهم

ذا اوردوا جملة مصرحة ، وعطفوا عليها بكلام محتمل لما تقدم به التصريح ولغيره — ! ألا يريدوا باللاحق الا ما صرحوا بـه في الكلام السابق . فلو ان رجلا اقبل على جماعة فقال لهم : ألستم تعرفون صديقي فلانا ؟ ثم وصف لهم احد اصدقائه وميزه عنهم بنعت يخصه ويعينه فاذا قالوا : بلى قال لهم — عاطفـا على ما تقـدم — فاشهدوا ان شطر مالي هبة لصديقي فانه يتعين ان يريد لهذا الصديق ذلك الذى سماه وصرح بوصفه لا غيره ولو أراد سواه من اصدقائه لكان ملغزاً غير مبين . ونظير هذا ما نحن فيه من خبر يوم الغدير فان رسول الله وهو من تعلمون لسنا وفصاحة وبيانا قد طالع الناس في مفتتح كلامه يوم الغدير بامر صرح به وقرر امته عليـه وهو — انه اولى بهم من انفسهم على المعنى الذى أراده الله في كتابه العزيز بقوله عز من قائل : النبي اولى بالمؤمنين من انفسهم — ثم عطف على ذلك بعد ما ظهر من اعترافهم بقوله : فمن كنت مولاه فهذا علي مولاه . وكلمة « مولاه » هـذه تحتمل ما صرح به في سابق كلامه وتحتمل غيره ولا ينبغي ان يريد بها الا ما صرح به فى كلامه الذى قدمه واخذ اقرار امته به دون سائر مدلولاته الاخرى والا لكان ملبساً عليهم . فهذه عبارة اخرى عن قوله فمن كنت اولى به من نفسه فعلي اولى به من نفسه وهذا ما نريد

واما الجواب على السؤال الرابع وهو دلالة هـذه العبارة على الامامة والزعامة المطلقة على الامة فذلك انا نجد اهل اللغة لا يصفون

بهذه اللفظة الا من كان يملك تدبير ما وصف بانه اولى به وتصريفه على خروجه فهم يقولون السلطان اولى باقامة الحدود والمولى اولى بعبده والزوج اولى بامرأته وولد الميت اولى بميراثه . وقد اجمع المفسرون على ان المراد بقوله سبحانه النبي اولى بالمؤمنين من انفسهم انه اولى بتدبيرهم والقيام بامورهم من حيث وجبت طاعته عليهم ومن كان اولى بتدبير الامة وامرها ونهيها من كل احد من افرادها فهو امامها المفترض الطاعة عليها

وقد أراد النبي ان ينزل امير المؤمنين من امته منزلة الرئيس والامام بعده فقررهم بلفظة اولى على امر يستحقه عليهم بمقتضاها وقد ثبت انه يستحق في كونه اولى بالمؤمنين من انفسهم انه الرئيس عليهم المطاع فيهم فلا ريب ان يستحق امير المؤمنين منهم مثل ذلك لانه جعل له منهم ما هو واجب له فكأنه قال من كنت اولى به من نفسه في كذا فعلي اولى به من نفسه فيه

واذا استقرأنا ما تحتمله لفظة مولى من المعاني لم نجد فيها ما يصح ان يكون مراد النبي إلا المعنى الاول الذى يقتضي امامة علي بعده وذلك ان امير المؤمنين (ع) لم يكن مالكا لكل من ملك رسول الله (ص) رقه ولا معتقاً لكل ما اعتقه ولا يصح ان يريد ابن العم او الناصر فيكون إنما جمع الناس وحشر المسلمين في ذلك الحشد الحاشد والخضم المتماوج من الناس ليقول لهم من كنت ابن عمه فعلي ابن عمه او من كنت ناصره فعلي ناصره ! ! — ومن ذا الذي يرتاب في ان

كل من كان رسول الله ابن عمه فعلي ابن عمه ؟ ومن ذا الذى يجهل ان المسلمين انصار من نصره النبي لافرق في ذلك بين علي وغيره ؟ ولا يجوز ان يريد به استحقاق الميراث كما هو واضح ولا الحليف لان علياً لم يكن حليفاً لجميع حلفاء رسول الله ولا الجار اذ لا فائدة في ذلك وليس هو صحيحاً في كل حال . فاذا بطل ان يكون مراده شيئا من هذه المعاني لم يبق إلا ان يكون قصد الى ما كان له من تدبير الامر والحل والعقد وفرض الطاعة

فاما الذين ذهبوا الى أن رسول الله انما قصد بما قاله في امير المؤمنين يوم الغدير أن يؤكد ولاءه في الدين ويوجب نصرته على المسلمين وأن ذلك على معنى قوله سبحانه : ﴿ والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض ﴾ فيرده ما قدمنا من البيان على أن لفظة مولى يجب ان تطابق معنى ما تقدم به التقرير في الكلام ولا يسوغ حملها على غيره على ان علياً لم يكن مجهول القدر خامل الذكر مغموراً فيحتاج النبي الى أن يقف ذلك الموقف ليعلن أن لعلي من حق الولاء على غيره ما لكل مؤمن على أخيه المؤمن من حق النصرة والولاء. وهو (ع) المعروف بين المسلمين بفواقه وتبريزه في العلم وسابقته في الاسلام والجهاد وأخوته لرسول الله و . و .

هذا إلى ان من ذهب في تأويل الخبر إلى معنى الولاء في الدين فقوله داخل في قول من حمله على الامامة والرياسة لان المسلمين ملزمون أن ينصروا إمام عصرهم وينضووا إلى رايته

قد يقول قائل ما المانع من أن يكون علي إنما استحق هذه الامارة بعد عثمان ؛ وأن النبي إنما كان يرغب ان يكون لعلي منها حظ ولو بعد حين من وفاته ولكن الواقع أن الذاهبين إلى استحقاقه إياها بعد عثمان مجمعون على أنها لم تعصب به في ذلك الوقت امتثالا لحديث الغدير ولا لغيره من وجوه النص عليه وإنما نيطت به بالاختيار وكل من ذهب إلى إمامته بالنص أوجبها له بعد رسول الله بلا تراخ في الزمان كما هو ظاهر هذه النصوص .

وثبت فيما نقله الجميع أن عمر بن الخطاب قام في يوم الغدير فقال بخ بخ لك يا أبا الحسن أصبحت مولاي ومولى كل مؤمن ومؤمنه ولحسان بن ثابت في جملة أبيات له بهذا المعنى منها

فقال له قم يا علي فانني
رضيتك من بعدي إماماً وهاديا

وقد أحتج أمير المؤمنين بنص الغدير في غير موطن ذكره يوم الشورى ويوم الرحبة وقد أخرجه غير واحد من ثقات المحدثين ونحن ننقله اليكم كما جاء في مسند أحمد بن حنبل الجزء الرابع ص ١٧٠ مرويا بسند كله من رجال البخاري ومسلم قال من حديث زيد بن أرقم عن ابن الطفيل قال جمع علي الناس في الرحبة ثم قام « أنشد كل امرئ مسلم سمع رسول الله يقول يوم غدير خم ما سمع لما قام » فقام ثلاثون من الناس فشهدوا حين أخذه بيده فقال للناس ﴿ أتعلمون أني أولى بالمؤمنين من أنفسهم ؟ ﴾ قالوا ﴿ نعم يا رسول الله ﴾ قال ﴿ من كنت

مولاه فهـذا مولاه اللهم وال من والاه وعاد من عاداه » فحدث ابو الطفيل بعدها زيد بن ارقم بهذه المناشدة ، وما سمعه في جوابه من الصحابه ، فقال له زيد كما فى ص ٣٧٠ من الجزء الرابع من مسند احمد : ﴿ فما تنكر ؟ انا قـد سمعت رسول الله يقول ذلك ﴾ وكان في هؤلاء الثلاثين اثنا عشر بدريا ، فيما اخرجه غير واحد من المحـدثين كالامام احمد في ص ٨٨ من الجزء الاول من مسنده

وقد حفظ عن قيس بن سعد بن عبادة ابيات بهذا المعنى كان يقولها وهو بين يدي امير المؤمنين سلام الله عليه بصفين ومعه الرايه

ومما يدلكم على ان الصحابة وغيرهم انما فهموا من حديث الغدير استخلاف علي ونصبه اماما وخليفة ، ما ورد في تفسير قوله تعـالى ﴿ سأل سائل بعذاب واقع ﴾ الآية قالوا : لما اخذ النبي بيد علي وقال ما قال ، شاع ذلك وتطاير في البلاد ، فبلغ الخبر الحرث بن النعمان الفهري ، فجاء رسول الله على ناقة له ، فاناخ راحلته ونزل عنها وقال يا محمد ! امرتنا عن الله ان نشهد الا اله الا الله وانك رسول الله فقبلنا منك ، وامرتنا ان نصلي خمساً فقبلنا منك ، وامرتنا بالزكاة فقبلنا وامرتنا ان نصوم رمضان فقبلنا ، وامرتنـا بالحج فقبلنـا . ثم لم ترض بهذا حتى رفعت بضبعي ابن عمك تفضله علينا ، فقلت : من كنت مولاه فعلي مولاه . فهذا شيء منك ام من الله ؟ فقال النبي « والذى لا اله الا هو ، ان هذا لمن الله عز وجل » فولى الحرث يريد راحلته وهو يقول : ان كان ما يقول محمد حقاً فامطر علينا حجارة

من السماء او ائتنا بعذاب أليم : فما وصل الى راحلتـه حتى رماه الله بحجر سقط على هامته فخرج من دبره فقتله ؛ فانزل الله تعالى : (سأل سائل بعذاب واقع للكافرين ليس له دافع من الله ذي المعارج)

الخاتمة:

سقنا هذا النص الجلي واسطنا اللثام عن دلالته الصريحة على امامة علي عليه السلام ليعلم ناس ان احداً من الامامية لا يرد امامته الى قرابته من النبي فحسب ، فيقال في الرد عليهم : ان الاسلام قد الغى هذه الاعتبارات النسبية ، وحارب النزعات الجاهلية التقليدية ، فلا يصح من النبي (ص) وقد آذن العصبيات بحرب منه ومن الله ان يستجيب لداعيـة القربى والنسب فيجمع في هـاشم النبوة لنفسـه والخلافة لأبن عمه ، وكيف يسكت العرب وهم يرون هاشما تستأثر دونهم بالسلطان ، ولا تترك لأحدهم منه نصيبا

كلام لا كتبه الألسن قديما ، ولفظته الحجة الناصعة وهو يعـاد الآن في سياق واحد ونسق مطرد

وليت شعري متى كانت النبوة وهي سفارة بين السماء والارض والامامة وهي خلافة عن النبي ، وامتداد لسلطان شرعته ، ملكا منتزعا وامارة مسلطة يختار لها الناس من يشاءون ، ويضعونها حيث يهوون ؟

وهل قال احد من شيعة علي إن محمداً حين اصطفى علياً وآخاه

واختاره لوزارته وآثره لخلافته ، استجاب لنعرة جاهلية أملت عليه ان يفرض ابن عمه على الناس من حيث يرضون او يأبون ؟

كلا فان الله الذى نصب محمداً للنبوة ، امره أن ينصب ابن عمه للامامه ، ليكمل به الدين ويتم النعمة على المسلمين . ولا يضير الله ولا دينه الحق ولا رسوله الامين بعد ذلك ، ان تنتفخ انوف وتمتلئ بالحقد والموجدة صدور . فلو كانت مجاملة الناس واستجابة ميولهم وارضاء اهوائهم ، مبدأ من مبادئ الدين ! ما هدم وثن ، ولا محي شرك ، ولا أذن للحق ان يظهر ويعلو ، ويزهق الباطل ولو كره المشركون .

أمر محمد أن يقولها كلمة مداوية ، ويمليها املاء في موقف من مواقف المسلمين الغر ، بعد ان أمرهم بالاجتماع ، وهو منهم على وشك الوداع . وعرف الناس امامهم بعده ، فاقبلوا عليه يهنئونه راضين او مكرهين ؛ فليس لهم مجال ان يديروا رأيا او يريغوا قولا والنبي منهم بمرأى ومسمع . فاذا واتت الفرصة للمقال بعد الوفاة ، واحتج كل فريق بحجته ، كانت حجة المهاجرين انهم لحمة النبي (ص) وقرابته ، فاين هذا من انكارهم خلافة علي لقرابته من النبي والتحام نسبه به ؟

وقد قيل قديماً وحديثاً إن العدول عن علي الشاب الى المشيخة من المهاجرين هو الصواب الذي اقتضته المصلحة

ولست أدري ما هي هذه المصلحة التي اقصت علياً من مكان

لا يملاه سواه ، ونزعت عنه سربالا سربله إياه الله ورسوله ، وهما اعرف بكفايته وجدارته . وما ذنب شبيبة علي إلا أنها كانت قوة جبارة يستظهر بها الايمان كله حين يهجم على الشرك كله ؟ ما ذنب شبيبة علي إلا انها كانت وقود الايمان والاخلاص إبان المآزق والازمات ؟ ما ذنب شبيبة علي الا انها كانت ينبوع الفضائل وعنوان المحاسن وكرائم الخيم ؟ ما ذنب شبيبة علي الا انها كانت كهولة متوقدة فيها كيس المجربين ؛ وحصافة الشيوخ ، وحرارة الشبان ، وهمة الفتيان ؟ ما ذنب شبيبة علي إلا أنها الرجولة المختارة الناضجة ، التي لا يسمو اليها عنق ولا يطمع في مساماتها ضريب

اللهم اكتبنا في شيعة علي واحشرنا في زمرتهم

عز الدين آل ياسين

الليلة الرابعة

بطل البيان — الاستاذ محمد جواد جلال

ادب الامام — للسيد محمد جواد شبر

١٠٢

بطل البيان

او

بيان البطل

الاستاذ محمد جواد جلال عصامي التربية
من ذوي الرأي والافكار الوقادة والخلق العالي وله
منزلة مرموقة في الاداب والعلوم وهو الان مدرس
في ثانوية البصرة وعضو شرف في لجنة المجمع

الكلام فى علي — ايها السادة — سهل من وجه وصعب من وجه فهو سهل لأن علياً (ع) جم الفضائل ، كثير المناقب ، فمجال القول فيه ذو سعة اذا أراد المتكلم وصف خلاله الكريمة ، ومزاياه الحميدة

ويصعب فيه الكلام من ناحية اخرى لأن علياً (ع) شخصية فذة بلغت من الفضل شأوا بعيداً ضلت فيها العقول ؛ واختلفت الآراء فهو بذلك كالبحر تفيد منه ما تشاء من خير لا ينفد ، ونعم لاتحصى وتنتهي الى حيث شئت من مرافئه وموانيه ؛ ولكنك لا تدرك غوره ، ولا تستطيع سبره ، وكالشمس تستمد منها النور والبهجة والحياة ولكنك لا تبلغ مداها ولا تدرك كنهها

واذا كانت مناحي الكمال في علي كثيرة ، وجهات الفضل فيه متعددة فخير لي ان اسلك في حديثي عنه منحى واحداً من مناحي عظمته لا ترك لغيري من الخطباء سبيل الكلام في المناحي الاخرى ولانه أيسر لي ان اقف بسفينة بحثي عند مرفأ واحد من ان اجشمها خوض ذلك الخضم المتلاطم الذي لا آمن ان تضل فيه ضلالا بعيدا

وأود ان يعلم ان حديثي عن علي (ع) لم يكن مستمداً من عقيدة دينية لاني لا احاول ان اتكلم عنه بوصفه اماما معصوما حقت له الخلافة ، وثبتت له الولاية ، وتوفرت له اسباب الافضلية على الناس بعد النبي المختار ؛ بل اريد ان اتكلم عنه بوصفه بطلا جمع احسن صفات البطولة ، وفارساً حاز امجد صفات الفروسية مبينا أثر هذه الفروسية ؛ وتلك البطولة في كلامه البليغ ، على اني لا اريد ان ادل على ان علياً بطل لان ذلك تحصيل حاصل . كما لا اريد ان ادل على انه البليغ لان كتاب نهج البلاغة ابلغ مني بيانا ، واحسن تبيانا ، ولكنني اريد ان ابين في خطابي هذا اثر هذه البطولة في كلامه (ع) وبعبارة

أخرى اريد ان اقول : ان بيان البطل بطل البيان

كان علي (ع) بطلا وكانت صفات البطولة بارزة في كل ما اثر عنه فهو بطل في قيادة جيشه وتعبئته وبطل في مبارزة عدوه وبطل في صراحته وجهره بالحق وبطل في صبره على المشاق وتحمل الاعباء وبطل في سياسته وقضائه وبطل فيما يدلي به من بيان اخاذ وكلام ان ارهفت له سمعك واصغيت له قلبك رأيت فيه البطل يخطب والشجاع يصول والاسد ينطق والزعيم القوي الجبار يأمر وينهي في قوة عارضة وروعة بيان . ولقد يعجبني الشيخ محمد عبده مفتي الديار المصرية في مقدمته على النهج اذ يقول : وكان يخيل لي في كل مقام ان حروبا شبت وغارات شنت وان للبلاغة دولة وللفصاحة صولة وان للاوهام عرافه وللريب دعارة وان جحافل الخطابة وكتائب الذرابة في عقود النظام وصفوف الانتظام تنافح بالصفيح الابلج والقويم الاملج — الى ان يقول : وان مدير تلك الدولة وباسل تلك الصولة هو حامل لوائها الغالب امير المؤمنين علي بن ابي طالب عليه السلام

ولكن الشيخ في كلامه هذا يرمي الى الغرض الذى نستهدفه لانه يريد المجاز لا الحقيقة ويشير الى المعنى جملة لا تفصيلا فهو يتصور جيشين متناهضين : الاول جيش البلاغة الذي يقوده الامام والثاني جيش الاوهام والاباطيل التي تشيع في النفوس الخبيثة واخيراً تسفر هذه الحرب المجازية عن حق منتصر وباطل منكسر

١٠٥

اما نحن فنحاول في حديثنا هذا ان نلمس تلك البطولة لمسا في تضاعيف كلام الامام وندركها حقيقة لا مجازاً سالكين النهج الذى يسلكه الكتاب في تحليل الآثار الادبية ونقدها .

قلنا ان علياً بطل في قيادة جيشه وتعبئته فهل فى كلامه ما يدل على ذلك ؟ لنستمع اليه يقول لأصحابه في ساعة الحرب : فقدموا الدارع ، واخروا الحاسر ، وعضوا على الاضراس فانه انبى للسيوف عن الهام ، والتووا في اطراف الرماح فانه امور للاسنة ، وغضو الابصار فانه اربط للجأش ، واسكن للقلوب ، واميتوا الاصوات فانه اطرد للفشل ، ورايتكم فلا تميلوها ولا تخلوها ولا تجعلوها الا بايدي شجعانكم .

ومن وصية له وصى بها جيشا بعثه الى العدو : فاذا نزلتم بعدو او نزل بكم فليكن معسكركم في قبيل الاشراف ، وسفاح الجبال او اثناء النهار كيما يكون لكم ردءا ، ودونكم مرداً ولتكن مقاتلتكم من وجه واحد او اثنين ، واجعلوا لكم رقباء في صياصي الجبال ، ومناكب الهضاب لئلا يأتيكم العدو من مكان مخافة او أمن ، واعلموا ان مقدمة القوم عيونهم ، وعيون المقدمة طلائعهم ، واياكم والتفرق ، فاذا نزلتم فانزلوا جميعا ؛ واذا ارتحلتم فارتحلوا جميعاً واذا غشيكم الليل فاجعلوا الرماح كفة ، ولا تذوقوا النوم الا غرارا او مضمضة .

فهذا — يا سادة — كلام بطل قاد الجيوش فاحسن قيادتها ،

وخاض الحروب فكان ليث وغاها ، وقطب رحاها . ولقد ضل من قال ان خالد بن الوليد اعلم من علي في التعبئة ، ان علياً اعرف منه في المبارزة ودليل القائل هو ان خالداً لم يهزم له جيش ابداً ، ولكن علياً لم يهزم له جيش ايضاً على ان هذا القول ليس بجديد وقد أشار اليه الامام في بعض كلامه بقوله : حتى قال قائلهم علي شجاع ولكن لا علم له بالحرب .

وقلنا إن علياً بطل في علوهمته ، وصبره على المشاق وتحمل الأعباء الثقال ، وفيما يضطلع به من مهام سياسية وادارية واجتماعية وعسكرية كان يرى نفسه اهلا للاضطلاع بها فلنبحث عن آثار هذه الهمة القعساء في كلامه ولنستمع اليه يقول : أما والذي فلق الحبة ، وبرأ النسمة لولا حضور الحاضر ، وقيام الحجة بوجود الناصر ، وما اخذ الله على العلماء الا يقاروا على كظة ظالم ولا سغب مظلوم لألقيت حبلها على غاربها ولسقيت آخرها بكأس اولها . ومن قوله (ع) في بعض رسائله : والله لو تظاهرت العرب على قتالي لما وليت عنها ولو امكنت الفرص من رقابها لسارعت اليها ، ولأجهدن نفسي فيان اطهر الارض من هذا الشخص المكوس والجسم المركوس حتى تخرج المدرة من بين حب الحصيد

ومن كلام له (ع) فقمت بالامر حين فشلوا ، وتطلعت حين تقبعوا ، ونطقت حين تتعتعوا ؛ ومضيت بنور الله حين وقفوا وكنت اخفضهم صوتا واعلاهم فنوتا ، فطرت بعنانها ؛ واستبددت برهانها

كالجبل لا تحركه القواصف ، ولا تزيله العواصف . وهذا النوع من الكلام الذى يعرب عن علو همته ورباطة جأشه كثير في خطبه وكتبه فلا أكتف بهذا القدر منه ولعلي لم اصل حتى الان الى صميم الموضوع ولم المس جوهره وكل ما ذكرته من كلام امير المؤمنين ع انما هو في مواقف البطولة التي لا يمكن ان يظهر فيها البطل الا بطلا وفيما يرى امير المؤمنين عليه نفسه من علو الهمة ، ومضاء العزيمة ، ومرادي من هذا البحث ان اثبت ان كلامه (ع) متأثر بهذه البطولة في شتى المواقف ، ومختلف المقامات حتى فيما يناجي به ربه ، في مواقف الخشية والعبادة .

فلا أنتقل الان الى بعض الصفات التى يمتاز بها البطل عن سواه من الناس والتمس من كلام بطلنا شواهد على ذلك .

فمن صفات البطل الاعتزاز بنفسه ، والارتفاع بمنزلته ، والبعد عن مجاراة عامة الناس فيما هم فيه ، وقد يضطر الى هذه المجاراة فيصبر على مضض . ولنستمع الى بطلنا يقول في خطابه لأخيه عقيل بن ابي طالب : لا تحسبن ابن ابيك ولو اسلمه الناس متضرعا متخشعا ، ولا ماشيا بالضيم واهنا ، ولا سلس الزمام للقائد ، ولا وطئ الظهر للراكب المتقعد .

ومن قوله (ع) في خطبته الشهيرة بالشقشقية : أما والله لقد تقمصها فلان وهو يعلم ان محلي منها محل القطب من الرحى ينحدر عني السيل ولا يرقى الي الطير وفي هذه الخطبة يقول : متى اعترض

الريب في مع الاول منهم حتى صرت أقرن الى هذه النظائر ، ولكني اسففت اذا سفوا وطرت اذ طاروا

ومن صفات البطل انه لا يقيم وزنا للجمهور ، ولا يابه للرأي العام مهما كان هذا الجمهور قويا لانه يعتقد بان قوة الجمهور التي يستوي فيها الفارس الشجاع والجبان الرعديد ليست من البطولة في شيء . وبعكس ذلك نجد البطل الذي يحتقر الجمهور يقدر نظراءه من الابطال حق قدرهم ، ويعرف لهم منزلتهم من البطولة ، ومن هنا نجد بطلنا كثيراً ما يشبه الجمهور بالانعام والمواشي والعجماوات ، فهو يقول مشيراً الى ازدحام الناس عليه للبيعة : فما راعني الا والناس كعرف الضبع ينثالون علي من كل جانب ، حتى لقد وطئ الحسنان ، وشق عطفاي ، مجتمعين حولي كربيضة الغنم . ومن قوله مخاطباً اهل الكوفة : ما انتم الا كابل ضل رعاتها فكلما جمعت من جانب انتشرت من آخر . وفي موضع آخر يقول لهم : جرجتم جرجرة الجمل الاسر وتثاقلتم تثاقل النضو الادبر . وفي موضع آخر يقول لهم : كم نداري البكار العمدة ، أكلما أطل عليكم منسر من مناسر اهل الشام اغلق كل رجل منكم بابه ، وانجحر انجحار الضبة في جحرها ، والضبع في وجارها . وفي موضع آخر يخاطبهم بقوله : كأنكم نعم أراح بها سائم الى مرعى وبي ، ومشرب روي . وفي ذم اهل البصرة يقول : كنتم جند المرأة ، واعوان البهيمة ، رغا فاجبتم وعقر فهربتم . ويذكر يوم البهيمة له فيقول : فتداكوا علي تداك الابل الهيم يوم وردها قد

ارسلها راعيها وخلعت مثانيها .

هذا هو رأيه في الجمهور وبعكس ذلك نجده يقول في الاشتر النخعي : رحمه الله مالكا لو كان حجراً لكان فنداً ، ولو كان جبلا لكان صلداً . ومن كتابه فيه لاهل مصر : اما بعد فقد بعثت اليكم عبداً من عباد الله ، لا ينام ايام الخوف ولا ينكل عن الاعداء ساعات الروع اشد على الفجار من حريق النار . وتذكر (ع) اصحابه المستشهدين فندبهم في بعض خطبه قائلا : اين عمار ؟ واين ابن التيهان ؟ واين ذو الشهادتين ؟ واين نظراؤهم من اخوانهم الذين تعاقدوا على المنية وابرد برؤوسهم الى الفجرة

هذا هو نظره (ع) الى رجاله الابطال وقد رأيتم انه يختلف كثيراً عن نظره الى الجمهور وتلك لعمري صفة البطل

ومن صفات البطل انه لا يداجي ولا يحابي لأن منشأ هاتين الصفتين ضعف النفس وقصورها عن بلوغ مراميها عن طريق الحق والمصارحة والبطل المعتد بنفسه المعتمد على ارادته يابى ذلك ولنستمع الى بطلنا يقول : اني والله لعالم بما يصلحكم ويقوم اودكم ولكني لا أرى اصلاحكم بافساد نفسي . يريد انه (ع) لا يتبع السياسة المكيافيلية كمعاوية يحابي اصحابه ويداجيهم فيستقيمون له ومن كلامه ايضاً : ان في العدل لسعة ومن ضاق عليه العدل فالجور عليه اضيق . ومن كتاب له الى احد عماله وقد تصرف بشيء من مال المسلمين : والله لو ان الحسن والحسين فعلا مثل الذي فعلت

ما كانت لها عندي هوادة ولا ظفر مني بارادة حتى آخذ الحق منهما

هذا هو علي — ياسادة — في عدله وصراحته وبعده عن المحاباة والمداجاة وقصة الحديدة المحماة التي أشار اليها في بعض خطبه اعظم شاهد على ذلك

ومن صفات البطل انه يهيم بالقدرة ويعجب بها ويراها ابرز صفات الكمال وهذا ما نراه جلياً واضحاً في خطب امير المؤمنين ع التي يمجد فيها الله تعالى في مقام التوحيد فانه لا تكاد تخلو خطبة من خطبه التي يعرض بها لتمجيد الله تعالى من وصفه بالقوة والقدرة والخلق ويندر ذكره لسائر الصفات من العلم والحكمة والحياة والقدم والبقاء والسمع والبصر وغيرها من الصفات الثبوتية او السلبية كأن صفات القوة هي كل ما يعجب بطلنا ويستهويه فلنستمع اليه يقول في احدى خطبه : فطر الخلائق بقدرته ونشر الرياح برحمته ووتد بالصخور ميدان ارضه . وفي اخرى يقول : اللهم داحي الدحوات وداعم المسموكات وجابل القلوب على فطرتها . وفي اخرى يقول : لا يعجزه من طلب ولا يفوته من هرب . وفي اخرى يقول وانقادت له الدنيا والآخرة بازمتهما . وقذفت اليه السماوات والارضون بمقاليدهما وسجدت له بالغدو والآصال الاشجار الناضرة وقدحت له من قضبانها النيران المضيئة وآتت اكلها بقدرته الثمار اليانعه وفي اخرى يقول : وما الذى نرى من خلقك ونعجب له من قدرتك ونصفه من عظيم سلطانك الى ان يقول فيها : فمن فرغ قلبه واعمل

فكره ليعلم كيف اقمت عرشك وذرأت خلقك وكيف علقت في الهواء سماواتك وكيف مددت على موج الماء ارضك رجع طرفه حسيرا وقلبه مبهورا وفي اخرى يقول : وكان من اقتدار جبروته وبديع لطائف صنعته ان جعل من ماء البحر الزاخر المتراكم المتقاصف يبسا جامداً فطر منه اطباق ارضه الى آخر الخطبة التي يضمنها خلق السماوات والارضين وما على الارض من جبال رواس وأراني — يا سادة — قد اسرفت كثيراً في ايراد الأمثلة من كلامه فلا اكتف بهذا القدر ومن أراد المزيد منها فليراجع خطب التوحيد من النهج ليتبين صحة ما ذكرت . ومما ينبغي ان يشار اليه هو ان الأمام (ع) كثيراً ما يطرد في كلامه هذا التعبير من القسم وهو اما والذي فلق الحبة وبرأ النسمة وهذا يؤيد ما ذهبت اليه من انه يهيم بالقدرة ويعجب بها

ومن صفات البطل تفضيله ان يقتل على ان يموت والى ذلك اشار (ع) عندما صرع في محرابه فقال : فزت ورب الكعبة . وما الفوز الذي اشار اليه الا الشهادة التي طالما تمناها . ومن قوله في احدى خطبه والذي نفس ابن ابي طالب بيده لألف ضربة بسيف اهون علي من ميتة على فراش

ومن صفات البطل انه يروض نفسه على تحمل المشاق والصعوبات خلافا للضعيف الجبان الذي يخلد الى الراحة ويحب العافية وكانت حياة بطلنا كلها جهاداً لنفسه فقد انصب جسمه وراض نفسه

رياضه منقطعة النضير فلنستمع اليه يقول وأيم الله يمينا استثنى فيها بمشيئة الله لا روضن نفسي رياضة تهش معها الى القرص اذا قدرت عليه مطعوماً وتقنع بالملح مأدوما ولا دعن مقلتي كعين ماء نضب معينها مستفرغة دموعها — الى ان يقول طوبى لنفس ادت الى ربها فرحها وعركت بجنبها بؤسها وهجرت في الليل غمضها حتى اذا غلب الكرى عليها افترشت ارضها وتوسدت كفها . وهذا النوع من الزهد هو زهد البطل الذي ملك الدنيا فرغب عنها لا زهد اولئك الضعفاء الذين فروا من ميدان الكفاح العملي لقصورهم وجبنهم فاتخذوا الزهد وسيلة للتسلية وستراً يخفون وراءه ضعفهم وخورهم ومما اوصى به بطلنا ولده الحسن « ع » قوله : وتجرع الغيظ فاني لم أر جرعة احلى منها عاقبة ولا الذ مغبة . وبديهي ان ضبط النفس وجهادها وقهرها بالسيطرة عليها اقوى انواع البطولة

سادتي تلكم هي بعض صفات البطل لمسناها في كلام بطلنا واضحة جلية في هذا العرض الذى اسرفت فيه بايراد الشواهد من كلامه على اني ارجو الا تروني متجذلقا في هذا الاستنتاج فقد ثبت ان الفكرة او العادة التي تسيطر على الاديب لا بد لها من السيطرة على آثاره الادبية ولا مناص لهذه الآثار من الاصطباغ والتأثر بتلك الفكرة او تلك العادة فعمر بن ابي ربيعة الذي قيل عنه انه زير نساء يكاد يكون ديوان شعره موضوعا واحداً هو الغزل القصصي بالحسان والحسناء التي اعجبت باخيها صخر وساءها فقده يكاد يكون ديوان

شعرها قصيدة واحدة في رثائه وذكر محامده ، وابو نواس الذى استهام بالخمرة قال في وصفها معظم شعره ، والمتنبي الذى طلب العلى والمجد لا تكاد تخلو قصيدة من قصائده عن ذكر الاعتداد بنفسه ، والتعالي بمنزلته

والآن — يا سادة — فلننتقل الى بحث اعم فنستعرض من كلامه صوراً تختلف موضوعاتها ، وانا على يقين من انكم ستوافقني على ان قوة هذا البيان من قوة ذلك الجنان ، وصولة هذه البلاغة القوية من صولة تلك الفروسية . إننا سنلمس هذه البطولة في مختلف ما أثر عنه من خطب وكتب ووصايا وكلم موجز كما سنلمس هذه البطولة فيما اشار اليه من معان وفيما عبر به من لفظ واسلوب

اما المعاني فتبدوا فيها اثار البطولة في الصورة التي يعبر بها امير المؤمنين (ع) عن المعنى من طريق التشبيه والكناية والمجاز فلنستمع اليه كيف يشبه الضلال بجيش مغلوب يقوده الشيطان فيقول : اطاعوا الشيطان فسلكوا مسالكه ، ووردوا مناهله ، بهم سفرت اعلامه ، وقام لواؤه ، في فتن داستهم باخفافها ، ووطئتهم باظلافها وقامت على سنابكها . ولنستمع اليه كيف يقوم في نفسه معنى الفروسية فيشبه الخطايا بالخيل الشمس ، والتقوى بالمطايا الذلل فيقول : ألا وان الخطايا خيل شمس حمل عليها اهلها ، وخلعت لجمها فتقحمت بهم فى النار . الا وان التقوى مطايا ذلل حمل عليها اهلها ، واعطوا ازمتها

فاوردتهم الجنة . وكأن هذه التشبيهات التي املتها عليه الفروسية تعجب فارسنا البطل فتردكثيراً على لسانه في مختلف الاحوال ، فلنستمع اليه في الشقشقية يقول : فصاحبها (اي الخلافة) كراكب الصعبة ان اشنق لها خرم ، وان اسلس لها تقحم ، وم . قوله في بعض عظاته ألا وان اليوم المضمار ، وغدا السباق والسبقة الجنة ، والغاية النار ، ومن كلام له يصف به المؤمن فيقول : امرؤ لجم نفسه بلجامها ، وزمها بزمامها ، فامسكها بلجامها عن معاصي الله ، وقادها بزمامها الى طاعته ومن كلماته الموجزة قوله : فجعلت اتبع مأخذ رسول الله (ص) فاطأ ذكره حتى انتهيت الى العرج . يريد انه (ع) كان يذكر رسول الله مع كل خطوة تخطوها راحلته . والشريف الرضى يعجب بهذا التعبير ويقول انه من اوجز الكلام وافصحه دون ان يوضح لنا معنى هذه الاستعارة ، وكيف يوطأ ذكر النبي (ص) أليس فى هذا التعبير شيء من الخشونة ؟ لا ادري سوى ان التعبير تعبير فارس ألف الركوب ووطيء الاشيا في طريقه وقداستعار (ع) لفظ الوط لمعني التكرار بجامع الاقتران الزمني على طريقة الاستعارة التصريحية التبعية

والآن — ايها السادة — أرأيتم الفارس البطل كيف يعبر عن بطولته وفروسيته في سائر كلامه ، ومختلف نظامه ، وشتى معانيه ، فلننتقل بعد هذا الى الفاظه واساليبه ، وهي كما تبدو لمن استقرأها قوية نغمة ، تحس فيها شدة الوقع ، وبلاغة التأثير ، وتقرأ فيها آيات البطولة نيرة لامعة ، واعير المؤمنين (ع) في جميع خطبه وكتبه

ووصاياه لا يألف الأسلوب الهادئ المتصل بل اسلوبه ع على الاكثر اسلوب الثائر المحتدم الذي يخاطب به الوجدان والقلب اكثر مما يخاطب به العقل الهادئ ، وهو لذلك قصير الجمل كثير الفواصل تتكرر فيه عبارات التوكيد والقسم والاستفهام والامر ، ويطرد فيه السجع والموازنة بوقع يهز النفس والمشاعر ويجتذب القلب والخاطر ، ومازلت اذكر عبارة ابن ابي الحديد في الموازنة بين خطبة الامام وخطبة ابن نباتة في موضوع الجهاد وقد أراد ابن نباتة معارضة خطبة الامام فلم يوفق . قال ابن ابي الحديد (وانت اذا نسبت هذه الخطبة — يعني خطبة ابن نباتة — الى خطبة ابي الحسن وجدتها نسبة مخنث الى مخل)

ولكي نفهم اسلوب الامام على الصورة التي رسمناها له فلنستمع اليه يخاطب الدنيا قائلا : اليك عني يا دنيا فحبلك على غاربك ، قد انسللت من مخالبك ، وافلت من حبائلك ، واجتنبت الذهاب الى مداحضك اين القوم الذين غررتهم بمداعبك ؟ واين الامم الذين فتنتهم بزخارفك ؟ والله لو كنت شخصا مرئيا ، وقالبا حسيا لأقمت عليك حدود الله في عباد غررتهم بالأماني ، وألقيتهم في المهاوي ، وملوك اسلمتهم الى التلف ، واوردتهم موارد البلاء

ماذا تسمعون في هذا الكلام — ايها السادة — ألستم تسمعون صوت البطل الذي استطاع ببطولته وقوته ان يفلت من مخالب دنيا غرت العباد ، وأهلكت الملوك ، ثم هو لا يكتفي بالافلات

منها بل يريد ان يتيم عليها الحدود لينتقم منها للعالم الانساني الذى غرته وخدعته . هل بقي لديكم شك في ان هذا الاسلوب اسلوب بطل قوي جبار ؟ . ولنستمع بعد هذا اليه كيف يهدد معاوية ويوعده فيقول : وأيم الله لتؤتين حيث انت ولاتترك حتى يختلط زبدك بخاثرك ، وذائبك بجامدك ، وحتى يعجل في قعدتك ، وتحذر من امامك كحذرك من خلفك ، وما هي بالهوينى التي ترجو ، ولكنها الداهية الكبرى يركب جملها ، ويذل صعبها ويسهل جبلها

بهذا الاسلوب ونحوه كان يخاطب خصومه ؛ وما عثرت له على عبارة يوجهها الى مخالفيه وفيها رجاء او التماس او تأليف لقلوبهم . استغفر الله ! ماذا اقول ؟ ان هذا الاسلوب الذى توحيه اليه بطولته قد يجري على لسانه فيما يدعو به ربه ؛ ويضرع اليه فيقول : أتسلط النار على وجوه خرت لعظمتك ساجدة وعلى السن نطقت بتوحيدك صادقة — الى ان يقول — ما هكذا الظن بك ولا اخبرنا بفضلك عنك يا كريم . ويعود الى توسله وتضرعه الى ان يقول : فبعزتك يا مولاي اقسم صادقا : لأن تركتني ناطقا لأضجن اليك بين اهلها ضجيج الاملين ولأصرخن اليك صراخ المستصرخين ولأبكين عليك بكاء الفاقدين . ويجرى على هذا الاسلوب من الدعاء الذي هو اشبه بالاحتجاج منه بالتوسل والتضرع — الى ان يقول — هيهات ما ذلك الظن بك ولا المعروف من فضلك ولا مشبه لما عاملت به الموحدين من برك واحسانك

وقد لاحظت انه ، ع ، في وصفه واحتجاجه يجري على اسلوبين متضادين فهو في وصفه يميل الى الاطناب وهو في احتجاجه يميل الى الايجاز ولا اريدان اشق عليكم بايراد الشواهد من اسلوبه الوصفي فخطبه التي ضمنها وصف الخليقة ووصف الطاووس والخفاش ووصف الموت والبرزخ والجنة والنار معروفة بطولها ووفرة معانيها فلتراجع في النهج . اما احتجاجه ع فموجز للغاية : سمع ان قريشا في يوم السقيفة احتجت على الانصار بانها شجرة الرسول ص فقال ع احتجوا بالشجرة واضاعوا الثمرة . ولما كثر الكلام فى امر مقتل عثمان واتهم ع بالقتل قال : انا جامع لكم امره : استأثر فاساء الاثرة وجزعتم فاسأتم الجزع : ولله حكم في المستأثر والجازع

وسر هذا الاطناب وهذا الايجاز واضح فان البطل في وصفه يريد ان يعرب للجمهور عن احاطته بالموضوع وقدرته على التصوير والتأثير فهو بهذا الاطناب يعبر عن شخصيته وعبقريته وبطولته هذا بالاضافة الى انه سيئ الظن بفهم الجمهور الذي كثيراً ما يشبهه بالعجماوات فاطناب القول هنا ابلغ في التأثير وعلى العكس من ذلك نراه يحتج على خصمه بايجاز كأنه يفرض عليه حجته فرضا دون حاجة الى نقاش وجدال ذلك لأن البطل يريد من خصمه الاذعان السريع لحجته التي لا تقبل الرد والنقض

والى هنا ايها السادة ينتهي بي هذا البحث الذى املاه علي خاطري املاء دون رجوع الى تقليد او مجاراة وسواء أكنت

مصيبا ام مخطئا فيما ذهبت اليه فاني — على الاقل — قد وفقت لعرض طائفة من كلام شيخ البلغاء وسيد الخطباء على مسامع حضراتكم وهـذا افضل ما يؤثر عن امام شدت به البلاغة نطاقها ومدت عليه الفصاحة رواقها فكلامه ع كلام الفارس الذى لا يناضل والبطل الذى لا يساجل والحكيم الذى يتفجر العلم من جوانبه وتنطق الحكمة من نواحيه

صلى الله على روحه الطاهرة ونفسه الزكية . والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته

محمد جواد جلال

ادب الامام

الكاتب مدرس في مدرسة منتدى النشر وعضو
مؤسس في لجنة المجمع الثقافي الديني ومن الخطباء المعروفين

السلام عليك يا امير المؤمنين

لا اريد ان اكبر من شخصيتك وازيدها اعظاما في النفوس وهل عرف التاريخ اعظم منك بعد ابن عمك الرسول ولا اريد يا بطل السيف والمنبر ان اضم الى مناقبك غير المحدودة مناقب اخرى ولا يتسنى لي ان ابحث في النفوس اعجابا بصفاتك فوق الاعجاب الذى تحسه النفوس وتشعر به . اما معرفتك بحقيقتها بما ضمت من نواحي العظمة فهل هي كما نتصورها كلا ثم كلا وهل تطمع الافكار في ادراكها بعد قول الرسول « ص » فيك ﴿ يا علي ما عرفك الا الله وانا ﴾

يتجلى بكل وضوح من هذه الفقرة الصادرة عن سيد الانبياء الذي لا ينطق عن الهوى ان شخصية الامام مما يعسر علينا معرفتها

وعلى العلماء تحليلها قد خلقها الله واصطفاهـا من مجموعة القرون المتباعـدة والدهور المتطاولة فذة في علمها وادبها واخلاقهـا وقوة دينها وجرأتها وبسالتها في المناضلة عن الحق

فهي على عهد النبي ﴿ ص ﴾ كلها شجاعة وبأس وذود عن الدين ودفاع عن الاسلام وعلى عهـد من تقدمه من الخلفـاء علمية قضائية ترد شبه المبطلين واقفة بالمرصاد لكل من ينوي المس بشرف الشرعة الغراء التي شاد بناءها بمهنده

بني الدين فاستقـام ولولا ضرب ماضيك ما استقام البناء

اما حياته في خلافته فكانت حلقة خطابية متصلة بالوعظ والارشاد منبعثة من ذلك الينبوع المتدفق بلاغة التي هي فوق مقدور البشر ما عدا ابن عمه الرسول

تلك الحلقة الخطابية التي تدفقت منه ايام خلافته والتي كان فيها سيد البلغاء وامام الأدباء هي موضوع بحثي في علي ع

ولا اظنكم يا سادة تطمعون مني في التحدث عن الامام نفسه وشخصيته الادبية وعن المؤثرات التي اثرت في حياته والمعارف التي توفرت لديه فاسالت منه هذا الادب المعجز الفياض او عن العصر الذي كان يعيش فيه والذي خلق منه شخصا فذاً كان فيه بحق امام الادباء ؛ كما تطمعون في ذلك حين أتحدث اليكم عن ادب غيره من اعاظم الادباء وكما تطمعون من كل من يتحدث عن اي شخص من الاشخاص لا اظنكم تطمعون في ذلك لان كلمة النبي ﴿ ص ﴾ المتقدمة

﴿ يا علي ما عرفك الا الله وانا ﴾ لم تغب عن اذهانكم ولم يمض على سماعكم لها زمن طويل ولأنكم تعرفون اني لست من اولئك الكتاب الذين يعتقدون بتأثير العصر او المحيط وسائر المؤثرات من نواحي الحياة على شخصية الامام بل شخصية الرسول نفسه فيخضعونها لتأثيرات العصر وسياسة المحيط ، انما انا من اولئك الكتاب الذين يؤمنون بقول النبي كل الايمان والذين يعتقدون ان الامام فوق مستوى البشر وانه هو الواسطة بين الله والعباد فلا يخضعونه للمؤثرات والمميزات التي يخضع لها الانسان . ولا يقيسونه بالمقاييس التي يقيسون بها الناس

اذا انا في سعة من العذر لو تحاشيت الامام وتجنبت الحديث عنه نفسه فحدثتكم عن ادب الامام لا الامام الاديب. وادب الامام يا سادة ليس كادب غيره من الادباء كما ان الامام نفسه ليس كغيره من الأئمة الذين اطلق عليهم اسم الامام فليس لمن يريد التحدث عن ادب الامام ان يزنه بالميزان الذى يزن به آداب الغير كما ليس لمن يريد تحليل شخصية الامام ان يخضعها لمؤثرات العصر ومقتضيات المحيط كما قلت ، وكما ان كلمة النبي ص في علي هي الحد الفاصل بينه وبين غيره من الناس فكذلك الكلمة المشهورة في مأثور كلامه (ع) ﴿ انه فوق كلام المخلوق تحت كلام الخالق ﴾ هي الحد الفاصل ايضا بين كلامه وكلام غيره من البلغاء والمائز الفارق بين ادبه وادب سواه من الناس

واذا اردنا ان نفهم ادب الامام (ع) ففهمنا له — في الحقيقة —

هو فهمنا لهذه الكلمة المشهورة عن ادبه فاذا استطعنا ان نفهم كيف كان كلامه فوق كلام المخلوق وادبه فوق ادب الناس نكون قد فهمنا ادبه وقدرناه حق قدره واذا كان كلام المخلوق — وليس المراد بالكلام هنا الا الادب طبعا — واذاً قل الادب ، اذا كان الأدب كما يقولون هو الأخذ من كل شيء بطرف . فان المطلع على ادب الامام يحس ان ادبه لم يكن كذلك لم يكن هو الأخذ من كل شيء بطرف انما هو ادب فوق ذلك الادب وكلام فوق ذلك الكلام نستطيع ان نقول عنه انه هو (الأخذ من كل شيء بجميع الاطراف)

ولست مسرفا حين اقول ذلك عنه فان نهج البلاغة الذى بين ايدينا والذى يضم اكثر مأثور كلامه (ع) يتكفل بتصديق ما اقول واني احيل القارئ عليه ليتصفح ما فيه فسيجده قد اخذ كل شيء واخذه من جميع اطرافه سيجد بين دفتيه الأدب والاجتماع والفلسفة والدين والقضاء والوعظ والارشاد والتاريخ سيجد الدراسات الواسعة في علم النفس وعلم الكلام وفلسفة التشريع في الدين الاسلامي ودقائق الحكمة في الخلق والتكوين ، سيجد المطالب الدقيقة والابحاث المهمة التى هي وراء المادة والتى تلمسك مصير الانسان ما بعد الموت الى غير ذلك من معضلات المعارف والعلوم ، سيجده (ع) قد اخذ كل واحد من هذه الابحاث بجميع اطرافه وألم به من جميع نواحيه فهو ليس كغيره من الادباء الذين اخذوا بطرف قليل من كل شيء ليستعينوا به على ادبهم السطحي حين يتحدثون بل هو اكبر الفلاسفة

المضطلعين بدقائقها حين يتحدث اليك عن فلسفة شيء من الاشياء وهو اعظم رجال الاخلاق واعلمهم حين يتعرض في كلامه الى مايزين المرء من الاخلاق وهو امام الوعاظ المتدينين حين تستعرض حديثه في الزهد والوعظ والتذكير وهو . . وهو . . . الخ ما هنالك من الابحاث التى تناولها في نهجه (ع)

ولقد اشار سيدنا الشريف في مقدمته لكتاب النهج الى ذلك حيث يقول ﴿ ومن عجائبه (ع) التي انفرد بها وآمن المشاركة فيها ان كلامه الوارد في الزهد والمواعظ والتذكير والزواجر . اذا تأمله المتأمل وفكر فيه المتفكر وخلع من قلبه انه كلام من مثل من عظم قدره ونفذ امره واحاط بالرقاب ملكه . لم يعتره الشك في انه من كلام من لاحظ له في غير الزهادة ولا شغل له بغير العبادة . قد قبع في كسر بيت . وانقطع في سفح جبل لا يسمع الا حسه ولا يرى الا نفسه ولا يكاد يوقن بانه كلام من ينغمس في الحرب مصلتا سيفه فيقط الرقاب ويجدل الابطال ويعود به ينطف دما ويقطر مهجا وهو مع تلك الحال ازهد الزهاد وبدل الأبدال ﴾

ولم تكن هذه الظاهرة موجودة في كلامه الوارد في الزهد والمواعظ فحسب بل هي موجودة في كل موارد كلامه يدركها المتأمل ويحسها المتفكر

هذا اذا كان الأدب هو الأخذ من كل شيء بطرف كما يقولون وقد عرفت ان ادب الامام هو فوق ذلك . اما اذا كان الادب هو

الكلام الفني الذى يمس العقل ويمس الشعور ، فان ادب الامام ليس كذلك ايضا ليس هو الكلام الفني الذى يمس العقل ويمس الشعور انما هو الكلام الذي فوق هذا الفن، الكلام الذى يتجاوزمس العقل والشعور الى التأثير والسيطرة عليهما ، الكلام الذى اعجز البلغاء بصياغته الفنية وصناعته الراقية، الكلام الذى هو فوق كلام المخلوق تحت كلام الخالق

واود في هذه الآونة ان انقل اليكم شيئا من كلام الشيخ محمد عبده فى هذا الموضوع حيث يقول في مقدمة النهج : ﴿ كنت كلما انتقلت من موضع الى موضع احس بتغير المشاهد وتحول المعاهد فتارة كنت اجدني فى عالم تعمره من المعاني ارواح عالية في حلل من العبارات الزاهية تطوف على النفوس وتدنو من القلوب ـ الى ان يقول ـ وطوراً كانت تنكشف لي الجمل عن وجوه باسرة وانياب كاشرة وارواح في اشباح النمور ومخالب النسور قد تحفزت للوثاب وانقضت للاختلاب فخلبت القلوب عن هواها واخذت الخواطر دون مرماها فاغتالت فاسد الاهواء وباطل الآراء واحيانا كنت اشهد ان عقلا نورانيا لا يشبه خلقا جسدانيا فصل عن الموكب الالهي واتصل بالروح الانساني ﴾ الى آخر ما يقول

وليس الشيخ محمد عبده وحده الذى يجد ذلك ويتكشف له ويحس ان انتقاله من موضع الى موضع كان من تأثير كلامه ﴿ ع ﴾ وسيطرته على العقل والشعور بل كل من تأمل في نهج البلاغة ونظر

فيه يحس بهذه السيطرة وهذا التأثير . وهذه الظاهرة في كلامه ﴿ع﴾ واضحة جداً لا تحتاج الى تدليل او برهان على ان التدليل عليها لا يكلفني اكثر من ان اوقفك على قطع من مأثور كلامه ﴿ع﴾ تعرف منها كيف كان كلامه هو الكلام الفني الذى يوقظ الافكار ويثير الشعور وسأحاول ان تكون القطع من كلمه القصار فانها ادل على ما اقول

ينظر الى عقول الناس حينما تصطدم والمطامع الدنيوية فتعود منكسرة امام الاهواء والاغراض فيقول حكمته البالغة [اكثر مصارع العقول تحت بروق المطامع]

واذا فكر فى الحق والقوة وكيف يتغلب الحق على القوة صور لنا مبلغ قوة الحق باشد مظاهر البطش فيقول « من صارع الحق صرعه »

واذا أراد ان يضع للرجال ميزانا لمعرفتها وضعها في موازين القسط فيجعل الولايات ميادين والولاة كخيل السبق فيقول « الولايات مظامير الرجال »

واذا ارادان يصف ضعف الخلق وعجزها وجهل الانسان وقصوره اظهره من اضعف المخلوقات واقل الكائنات فيقول ﴿ مسكين ابن آدم تؤلمه البقة تقتله الشرقة تنتنه العرقة ، مكتوم الاجل مكنون العلل محفوظ العمل ﴾

واذا رأى انحطاط اخلاق البشر ومبلغ اهتمامهم بجمع المال يقول ﴿ ينام الرجل على الثكل ولا ينام على الحرب ﴾ قال السيد ومعنى

ذلك انه يصبر على قتل الاولاد ولا يصبر على سلب الاموال

واذا فكر في المرأة وكيف انها مجموعة شرور ومفاسد في المجتمع يقول ﴿ المرأة شر كلها ﴾ ثم ينظر الى موقفها في الحياة وانها الشيء الذى لا ينتظم الكون بدونه فيتم حكمته ويقول « وشر منها انها لا بد منها »

واذا نظر الى المرائين والمدلسين وكيف تنجلى حقائق نفوسهم امام الخلق قال « ما اضمر احد شيئا الا وظهر على فلتات لسانه وصفحات وجهه »

واذا ما التفت الى ميول النفوس البشرية وجبلتها على المباهاة باعمالها والتشكي من حياتها والتذمر من وقائعها قال فيها حكمته البالغة ﴿ ثلاثة من كنوز الجنة ، كتم العلة وكتم الصدقة وكتم المصيبة ﴾ . وهكذا استدامت حلقات سلسلته الادبية يأخذها من معدن الخير ويذيبها في بوتقة العقل ويصبها في قالب الايجاز ويدفعها حكمة مصكوكة كقطعة النقود تتداولها العقول معجبة بها مستفيدة منها

محمد جواد شبر

الليلة الخامسة

عصر الامام — السيد محمد تقي الحكيم

ما ينفع الناس — الاستاذ يوسف رجب

١٢٨

عصر الامام

كما يراه الامام

الكاتب محاسب جمعية منتدى النشر وعضو مؤسس في لجنة المجمع واستاذ البلاغة في الصفوف العالية من كلية المنتدى ومؤلف كتاب (مالك الاشتر) وغيره

ايها السادة.

لقد كان الامام علي ﴿ع﴾ من اكثر الناس تأثيراً على عصره وتأثراً به لذلك كان علينا — ونحن نريد ان نلتمس تحليل حياته المباركة في اسبوعنا هذا — ان نعرض لعصره بشيء من التحليل نستعين به على فهم بعض الخصائص الاجتماعية التي كان لها علاقتها التامة بسيرة الامام ﴿ع﴾

سادتي — لقد سار الامام « ع » في بدء نشأته — عصر

الجاهلية — وفي شبابه عصر الاسلام او قل عصر النبي (ص) وفي كهولته عصر الخلفاء الثلاثة ثم عصر خلافته وكان له في كل واحد من هذه العصور مقام كبير نريد ان نلتمس اثره في هذه المحاضرة

وقبل ان ادخل في الموضوع احب ان انبهكم بانني حاولت قدر استطاعتي ان اتحلل من مسؤولية هذا البحث الشائك المعقد الذى كان ولا يزال ملتقى لعواطف الكتاب والمؤلفين وملتقى للميول والنزعات الخاصة وان اترك التحدث للامام نفسه فى تصويرها وتصوير مقدار ما اثر عليها وتاثر بها — اوذلك لأن الامام اقدر على تمثيل نوازعه النفسية المقدسة ونوازع مجتمعه وابعد عن الخضوع للعواطف والميول وفي نهج البلاغة متسع للحديث فكتاب النهج هو المصدر الوحيد الذى اعتمد عليه في هذه المحاضرة وسيكون بحثي هذا في تحليل بعض النصوص الواردة فى الكتاب والتنبيه على محل الشاهد منها لا غير — واليكم اوجه الحديث

قال ﴿ ع ﴾ في تصوير العصر الجاهلي من كلام له ﴿ ان الله بعث محمداً (ص) نذيراً للعالمين واميناً على التنزيل وانتم معشر العرب على شر دين وفى شر دار منيخون بين حجارة خشن وحيات صم تشربون الكدر وتأكلون الجشب وتسفكون دمائكم وتقطعون ارحامكم الاصنام فيكم منصوبة والآثام بكم معصوبة ﴾ وقال في كلام آخر مفصلا لما اجمل في هذا الحديث ﴿ والناس في فتن انجذم فيها حبل الدين وتزعزعت سواري اليقين واختلف النجر وتشتت الامر

وضاق المخرج وعمي المصدر فالهدى خامل والعمى شامل عصي الرحمن ونصر الشيطان وخذل الايمان فانهارت دعائمه وتنكرت معالمه ودرست سبله وعفت شركه اطاعوا الشيطان فسلكوا مسالكه ووردوا مناهله في فتن داستهم باخفافها ووطئتهم باظلافها وقامت على سنابكها فهم فيها تائهون حائرون جاهلون مفتونون في خير دار وشر جيران نومهم سهود وكحلهم دموع بارض عالمها ملجم وجاهلها مكرم ﴾

ومن هذين الحديثين تعرف ما في الجاهليه من حيوات اقتصادية واجتماعية وروحية وسياسية ، فالحياة الاقتصادية حياة واطئة للغاية ديار موزعة بين الحجارة الخشنة والحيات الصم — وفي وصفها بالصم آية من آياته القنية فالحية الصماء لا تنزجر عن التنزيل لما فيها من الصمم — وتأخر في التجارة والصناعة نظراً لاكتفائهم بالوسائل المعاشية البسيطة فالأكل الخشن والماء الكدر هو كل مايقتات به البدوي اذذاك

والحياة السياسية كانت مضطربة كل الاضطراب تسافك في الدماء واختلال في نظام الامن الداخلي وحروب شعواء يشنها الجار على الجار اما الحياتان الاجتماعية والروحية فحدث عنهما بما شئت شيطان منتصر وايمان منخذل واصنام تعبد من دون الله واثام معصوبة بهؤلاء وهؤلاء ثم فتن تدوس بالاخفاف وتطأ بالاظلاف وتقاطع بين الارحام وبين الجيران وبين الاخوان واختلاف بالنجر وتشتت بالامر ﴿ في ارض عالمها ملجم وجاهلها مكرم ﴾. ولااظن

انحطاطاً يمكن ان يتصور اشد من هذا الانحطاط الذي صورته هذه الآيات

سادتي — ليس المهم ان نطيل في الحديث عن هذا العصر وانما المهم ان نعرف موقف الامام منه وهنا يجب ان لا ننسى بان الامام شاهد هذا العصر في سنيه الاولى وهي سني التربية وسني التربية — كما يذكر التربويون — هي من اهم ما يمر على الانسان في الحياة واليها يعود الفضل في توجيه حياة الطفل كيفما شاء ابواه وذلك ان السيطرة فيها للعقل الباطن على العقل الواعي نظراً لضعفه والعقل الباطن يقبل انواع الايحاآت لذلك يتقبل الطفل كل ما يوحى اليه ابواه او محيطه الخاص وعلى هذا فليكن حديثنا في التماس موقف الامام من ذلك العصر من طريق النظر في تربيته والامام يحدثنا عن ذلك فيقول

﴿ وضمني في حجره — يعني رسول الله — وانا ولد يضمني الى صدره ويكنفني الى فراشه ويمسني جسده ويشمني عرفه كان يمضغ الشيء ثم يلقمنيه ولقد كنت اتبعه اتباع الفصيل أثر امه يرفع في كل يوم من اخلاقه علما ويأمرني بالاقتداء به ولقد كان يجاور في كل سنة بحراء فاراه ولا يراه غيري ﴾ ولك الآن ان تتصور قيمة التربية التي يقوم بها اعظم المربين (محمد) ، ومن هذه التربية نعرف انه لم يتأثر بشيء من ذلك العصر وانما تأثر منه غاية التأثر وأثر فيه أثراً فعالا نعرفه من مساهمته في نشر الدعوة الاسلامية التي حولت وجهة ذلك العصر الى ما يناقضها تماما

وما لنا نجمل في الحديث والامام اول من اسلم واول من ناصر واول من جاهد في سبيل تطوير تلكم الحياة واذا علمنا بان دعوة محمد (ص) قامت على دعامتين قويمتين معجزه الخالد وسيف علي علمنا تأثيره القويم على ذلك العصر وهاكم شيئا من كلماته في الموضوع

(انا وضعت في الصغر بكلاكل العرب وكسرت نواجم القرون ربيعة ومضر)

(بنا اهتديتم في الظلماء وتسنمتم العلياء وبنا انفجرتم عن السرار)

(اقمت لكم سنن الحق في جواد المضلة حيث تلتقون ولا دليل وتحتفرون ولا تميهون)

ومن هذه الكلمات التي قيد سحرها القلم عن الانطلاق في الحديث قبل ان يقف عندها مأخوذاً بهذا الجمال : انفجرتم عن السرار ، تحتفرون ولا تميهون ، جواد المضله

ومن هذه الكلمات تعرفون مقدار ذلك التأثير

واذا كانت الحياة الجاهلية كما وصفها الامام « ع » كان علينا ان نتصور ما لاقوه في سبيل ذلك الفتح الخالد الذى حول وجهة الحياة

كان علينا ان نعود الى علمي النفس والاجتماع لتفسير بعض الظواهر الاجتماعية والنفسية التي تقف في طريق الباحث عندما يريد ان يصور ذلك الانقلاب

كان علينا ان ننظر ان الدين الجديد كان لايوافق ميول هؤلاء ولا يشبع شيئا من رغباتهم وكان يعرض الى دياناتهم بالتوهين

والتسخيف وكان يندد بالقديم واكبار القديم ومع ذلك لم تكن للقائم بالدعوة صبغة سياسية جبارة تفرض عليهم الآراء فرضا لا مندوحة عنه

كان علينا ان ننظر كل ذلك لنعرف ان هذا الدين لا يمكن ان يفرض على الناس بسلام ولا يمكن ان يتم من دون ان يحكم السيف لذلك كان العصر النبوي كما يصوره الامام عصر جهاد ونضال كابدوا فيه اصعب مايكابد داع في سبيل انجاز دعوته

﴿ فاراد قومنا قتل نبينا واجتياح اصلنا وهموا بنا الهموم وفعلوا بنا الافاعيل ومنعونا العذب واحلسونا الخوف واضطرونا الى جبل وعر واوقدوا لنا نار الحرب ﴾

ويحدد لنا موقف قبيلته من الامر فيقول

﴿ فعزم الله لنا على الذب عن حوزته والرمي من وراء حرمته مؤمننا يبغي بذلك الاجر وكافرنا يحامي عن الاصل ﴾

وبهذا يشير الى النزعة القبيلية التي كانت متأصلة في نفوس العرب اذ ذاك

ويعرض لتحديد موقف بقية المسلمين في بدء الدعوة فيقول

﴿ ومن اسلم من قريش خلو مما نحن فيه بحلف يمنعه اوعشيرة تقوم دونه فهو من القتل بمكان أمن ﴾

واخيراً يعرض للون سياسة النبي في الحروب الاسلامية اذ يقول

﴿ وكان رسول الله « ص » اذا حمي البأس واحجم الناس قدم

أهل بيته فوفى بهم اصحابه حر الا سنة ﴾ وهو لون من السياسة تعرفون تأثيره على النفوس

اما الحياة الاجتماعية في ذلك العصر فقد كانت على العكس من تلكم الحياة اجتماع بعد الفرقة وائتلاف بعد النفرة وارتفاع في المكانة بعد الضعة كما يصور ذلك الامام في هذه الفقرات

﴿ فلم الله به الصدع ورتق به الفتق وألف بين ذوي الارحام بعد العداوة الواغرة في الصدور والضغائن القادحة في القلوب ﴾ ويقول ﴿ فساق الناس حتى بوأهم محلتهم وبلغهم منجاتهم فاستقامت قناتهم واطمأنت صفاتهم ﴾

واخيراً يذكر بعد هذا كله الحياة الروحية ومقدار تأثر الناس في الاسلام فيقول

﴿ ولقد كنا مع رسول الله « ص » نقتل آباءنا وابناءنا واخواننا واعمامنا ما يزيدنا ذلك الا ايمانا وتسليما ومضيا على اللقم وصبراً على مضض الالم وجداً في جهاد العدو ﴾ الى ان يقول ﴿ فلما رأى الله صدقنا انزل بعدونا الكبت وانزل علينا النصر حتى استقر الاسلام ملقياً جرانه ومتبوئاً اوطانه ﴾ وهذا اللون من الايمان كان شائعا اذ ذاك وهو في غاية السمو والجمال

ويهمنا الآن ان نعرف مقدار تأثر الامام نفسه بذلك العصر ولنترك الحديث له كما هي عادتنا في هذا اليوم قال الامام في تحديد مقدار ما وصل اليه

﴿ أرى نور الوحي واشم ريح النبوة ولقد سمعت رنة الشيطان حين نزل الوحي عليه « ص » فقلت يا رسول الله ما هذه الرنة فقال هذا الشيطان أيس من عبادته انك لتسمع ما اسمع وترى ما أرى الا انك لست بنبي ولكنك وزير وانك لعلى خير ﴾

وهذا الحديث كما ترون لا يفرق بينهما الا بالنبوة والوزارة فمحمد نبي وعلي وزير وهو على خير ولا يمكن ان يكون ذلك الا من شدة تأثره بالاسلام وقال في مقام آخر

﴿ ولقد علم المستحفظون من اصحاب محمد « ص » اني لم أرد على الله ولا على رسوله ساعة قط ولقد واسيته بنفسي في المواطن التي تنكص فيها الأبطال وتتأخر فيها الاقدام نجدة اكرمني الله بها ﴾ الى ان يقول ﴿ فمن ذا احق به مني حياً وميتاً ﴾ ويقول في كتابه لمعاوية بعد حديث طويل « وأراد من لو شئت لذكرت اسمه — يعني نفسه — مثل الذى أرادوا من الشهادة ولكن آجالهم عجلت ومنيته اجلت » فهو كما ترى كان يتمنى على الله الشهادة وهو في حياة الرسول كل ذلك مما يدلنا على شدة علاقته بالاسلام

ومالنا نطيل في الحديث والنبي « ص » لم يجد شروط الامامة « وهي الشروط التي يجب ان توجد في النبي » متوفرة بغيره من الصحابة لذلك نص عليه في يوم الغدير كما يدلنا استشهاد الامام بالرحبة وشهادة ثلاثين من الصحابة البدريين له بذلك

فالنبي على هذا لم يمت قبل ان يؤدي ما يجب عليه تأديته للامة

فلا يتركهم هملا يتضاربون في الآراء دون ان يختار لهم اماماً يرجعون اليه في شؤونهم ودون ان يهيئ خطة سياسية خاصة يعمل عليها الامام من بعده « علمني رسول الله الف باب من العلم ينفتح لي من كل باب الف باب »

ولكن حديث الصحابة في سقيفة بني ساعدة وقف دون مايريد النبي اما انه كيف دبر وكيف كان وهل كان وليد ساعة كما يفسر جل المؤرخين كلمة الخليفة عمر « كانت بيعة ابي بكر فلتة وقى الله المسلمين شرها ومن عاد لمثلها فاقتلوه » وهل كانت مدبرة في زمن النبي كما يقول المستشرق الكبير لامنس اليسوعي ويساعدنا العلم الحديث فذلك حديث آخر لا يهمنا تحقيقه الان ولعلنا نعود اليه في محاضرة اخرى — اما المهم عندنا فهو ان نتعرف سير القضية وموقف الامام منها من حديثه « ع » فاسمعوه يقول في الشقشقية

« أما والله لقد تقمصها ابن ابي قحافة — يعني ابا بكر — وانه ليعلم ان محلي منها محل القطب من الرحى ينحدر عني السيل ولا يرقى الي الطير فسدلت دونها ثوبا وطويت عنها كشحاً وطفقت ارتأي بين ان اصول بيد جذاء او اصبر على طخية عمياء يهرم فيها الكبير ويشيب فيها الصغير ويكدح فيها مؤمن حتى يلقى ربه فرأيت الصبر على هاتا احجى فصبرت وفي العين قذى وفي الحلق شجى أرى تراثي نهبا »

ومن هذه الفقرات الجليلة نستطيع ان نتعرف الى موقف الامام

بعد ان تفهم سير القضية وهو موقف المسالم المضروب على يده الذى لا يستطيع ان يصول بيده المقطوعة وماذا تصنع له وماذا تفيده ما دامت لا تؤثر اثرها الفعال وهذه كناية - كما يقول البيانيون - عن خذلان الناس له اذ ذاك وبها صرح في خطبة اخرى بقوله ﴿ فنظرت فاذا ليس لي معين الا اهل بيتي فظننت بهم عن القتل ﴾ واذا سكت الامام عن حقه لخذلان انصاره له فما سكت عن اشهار اللسان عليهم فقد حاجج هو (ع) وخاصم وطالب ما وسعه ذلك والتاريخ ان اغفل هذه الاحتجاجات فقد سجلها الامام بقوله ﴿ وقد قال قائل إنك يا ابن ابي طالب على هذا الامر لجد حريص فقلت بل انتم والله لأحرص وابعد وانا اخص واقرب وانما طلبت حقاً لي وانتم تحولون بيني وبينه وتضربون وجهي دونه فلما قرعته بالحجة في الملأ الحاضرين هب كانه لا يدري ما يجيبني به اللهم اني استعينك على قريش ومن اعانهم فانهم قطعوا رحمي وصغروا عظيم منزلتي واجمعوا على منازعتي امراً هو لي ثم قالوا الا ان في الحق ان تأخذه وفي الحق ان تتركه ﴾ وفي قوله وفي الحق ان تتركه اعتراف من هؤلاء له بالأمر وطلب لاستسلامه لمجاراة الظروف — فهو كما سمعتم — من حديثه قرعهم بالحجة فى ملأ من الناس ولكن التاريخ سكت عن تسجيل تلكم المحاججات لغاية سياسية لا نحب ان ننوه عنها الآن فلم نعرف لونها من بين الالوان وان كان قد ذكر التاريخ لتلميذه وابن عمه عبد الله ابن عباس بعض المحاججات مع الخليفة

عمر بن الخطاب نعتقد انها مستمدة من حديث الامام — وسنقتصر على ذكر واحدة منها رعاية للايجاز يذكر المؤرخون ان ابن الخطاب كان كثير الميل الى ابن عباس وكان كثير الاعتماد عليه فى الشؤون السياسية والادبية فكان يسأله عما يهمه من الامور : دخل ابن عباس عليه في بعض الايام وكان عنده نفر يتذاكرون في امر اشعر الناس ويستفتي الخليفة ابن عباس فيجيب انه زهير وينشد له ابياتا في المديح فيقول الخليفة (لقد احسن . وما ارى هذا المدح يصلح الا لهذا البيت من هاشم لقرابتهم من رسول الله) ثم يقول ﴿ أتدري يا ابن عباس ما منع الناس منكم كرهت قريش ان تجتمع لكم النبوة والخلافة فتجحفوا الناس جحفاً فنظرت لا نفسها فاختارت ووفقت فاصابت)

قال ابن عباس (ايميط امير المؤمنين غضبه)

قال عمر قل ما تشاء

قال ابن عباس : اما قولك ان قريشا كرهت فان الله تعالى قال لقوم ذلك بانهم كرهوا ما انزل الله فاحبط اعمالهم واما قولك بانا نجحف فلو جحفنا بالخلافة جحفنا بالقرابة ولكنا قوم اخلاقنا من خلق رسول الله الذى قال ربه فيه وانك لعلى خلق عظيم وقال واخفض جناحك لمن اتبعك من المؤمنين واما قولك ان قريش اختارت — فان الله تعالى يقول وربك يخلق ما يشاء ويختار ما كان لهم الخيرة وقد علمت يا امير المؤمنين ان الله اختار من خلقه من اختار فلو نظرت

قريش حيث نظر الله لوفقت واصابت ﴾ ويصمت الخليفة فلا يجيب برهة من الزمن واخيراً بدلا من ان ينكر النص او يناقش فيه يحول وجهة الحديث فيقول على رسلك يا ابن عباس ابت قلوبكم يا بني هاشم الا غشا في امر قريش لا يزول وحقداً عليها لا يحول ﴾ ويدور النقاش حول هذا الغش مدة وكله على هامش الموضوع ويقوم ابن عباس منتصراً فيقول ابن الخطاب « واهاً لابن عباس واهاً له فما رأيته لاحى احد اقط الاخصمه » ومن هذا نعرف لون الاحتجاجات التي كانت تدور اذ ذاك فاذا قيل للامام احتجوا بالقرابة قال ﴿ اضاعوا الثمرة ﴾ وخاصمهم بلون الاحتجاج واذا انكر النص وحوججوا فيه خصموا المنكرين وهكذا وهكذا

سادتي — لقد بعدنا كثيراً عن الموضوع فلنعد لالتماس موقف الامام العملي من الخليفة وها هو ذا الامام يحدث اهل مصر بكتابه مع مالك الاشتر الذى يقول فيه

﴿ فلما مضى « ص » تنازع المسلمون الامر من بعده فو الله ما كان يلقى في روعي ولا يخطر ببالي ان العرب تزعج هذا الامر من بعده عن اهل بيته ولا انهم منحوه عني من بعده فما راعني الا انثيال الناس على فلان يبايعونه فامسكت يدي حتى رأيت راجعة الناس عن الاسلام يدعون الى محق دين محمد « ص » فخشيت ان لم انصر الاسلام واهله ان ارى فيه ثلما او هدما تكون المصيبة به علي اعظم من فوت ولايتكم ﴾

وبهذا يحدد موقفه : ع ، فقد انعزل عن البيعة احتجاجا على الخليفة وعاد حيث رأى العبث من بعض المسلمين سيعود على الاسلام باعظم الاوباء وهو كما نعلم من حاله لا يهمه من الخلافة اكثر من اصلاح شؤون الاسلام والمسلمين

فعصر الخليفة الاول كما سمعتم عن الامام عصر اضطراب سياسي وراحة الناس لا تكون الا لضعف في السياسة واهمال لشؤون الرعية ولو لم يتعاهده الامام باصلاحه ذاك لكان من شؤون المسلمين ما كان

وينتهي عصر الخليفة الاول والامام ينتظر ان يعود الامر اليه كما كان يظهر الاول في حديثه المشهور ﴿ اقيلوني لست بخيركم وعلي فيكم ﴾ ولكن الاول يعقدها لابن الخطاب من بعده ويترك صاحب الحق مضطهداً مظلوما تمثله هذه الكلمات بما فيها من اللوعة ﴿ ثم مضى الاول لسبيله فادلى بها الى ابن الخطاب بعده

شتان ما يومي على كورها ويوم حيان اخي جابر

فيا عجبا بينا هو يستقيلها في حياته اذ عقدها لآخر بعد وفاته لشد ما تشطر اضرعيها فصيرها في حوزة خشناء يغلظ كلامها ويخشن مسها ويكثر العثار فيها والاعتذار منها فصاحبها كراكب الصعبة ان اشنق لها خرم وان اسلس لها تقحم ﴾ . ايها السادة ان موضوعي يفرض علي ان استرسل في الحديث وان انبه على محل الشاهد من كلام الامام فقط كما قلت ولكن جمال هذه الابات يعترض دون سير القلم

بالتحليل فما ادري والله على ايها اقف في التنبيه اعلى قوله : لشد ما تشطر اضرعيها ام على قوله فصاحبها كراكب الصعبة وجمال التشبيه فيها وفيها يعرض لأرتباكة راكب المستصعبة من النياق الذى يحار في امرها فما يدري أيرسلها فتقحم به المهلكات ام يجذب خطامها فيخرم انفها بالخشاش . تمثلوا ايها السادة حيرة هذا الراكب ثم تصوروا السائس الذى تضطرب عليه الامور فلا يدري أيقوم بالعنف وفيه ما فيه ام يقوم بالتساهل وهو يرديه في المهلكات ثم الحظوا بعد هذا جمال التشبيه لتعرفوا دقة التصوير وجمال العارضة

تصوروا كل ذلك معي فهو يمهد للحديث عن ذلك العصر واليكم الحديث :

﴿ فمنى الناس لعمر الله بخبط وشماس وتلون واعتراض ﴾ وهذه الكلمات على ايجازها المعجز صورت جميع ما في ذلك العصر فالخبط يكون في الدين والاقتصاد وذلك من اضطراب السياسة طبعا واطلاق الحديث يكفل بيان ذلك كله والشماس يمثل الخابط المتمرد على الحكومة المحلية والتلون ما ينتج من كل ذلك فتلون بالعقيدة وتلون بالاخلاق وتلون بالطباع كل ذلك يحدث من ذلك الخبط ومن ذلك الشماس ويشير الامام الى هذا المعنى بحديث آخر بقوله ﴿ رحل وتركهم في طرق متشعبة لا يهتدي فيها الضال ولا يستيقن المهتدي ﴾ يقصد بذلك الخليفة الثاني ويعرض لموقفه من العصر فيقول ﴿ فصبرت على طول المدة وشدة المحنة ﴾ وفي هذه العبارة ما فيها من اللوعة

والاستياء النفسيين ولعله كان ينتظر ان تعود اليه ايضا ليقوم بقسطه من الاصلاح ولكنه يسن لهم نظام الشورى كما يصور الامام ذلك بقوله ﴿ حتى اذا مضى لسبيله جعلها في جماعة زعم اني احدهم فيا لله وللشورى متى اعترض الريب في مع الاول منهم حتى صرت اقرن الى هذه النظائر ﴾ — سادتي — هذه زفرة صعدها الامام فى اثناء حديثه ليخفف عن نفسه صنيع الدهر وتزاحم الخطوب التي الجأته لمصانعة مثل هؤلاء — ايه يا مولاي حدثنا عن موقفك

﴿ لكني اسففت اذ أسفوا وطرت اذ طاروا فصغى رجل منهم لضغنه (ويقصد سعدا) ومال الاخر لصهره ﴿ ويقصد عبدالرحمن مع هن وهن ﴾ وهي عبارة نرجو ان لا يفوتنا ما فيها من الرمز البديع الى بقية الضغون التى اجملها بهذا التعبير ولا يهمنا الآن معرفة تفصيل الحادثة فذلك امر تكفله التاريخ وانما يهمنا ان نعرف النتيجة من حديث الامام ﴿ الى ان قام ثالث القوم نافجا حضنيه بين نثيله ومعتلفه ﴾ وهي كناية عن سياسة الخليفة الجديد الذى اهتم بنفسه وبتعزيز العصبية القبيلية قبل كل شيء ﴿ وقام معه بنو ابيه يخضمون مال الله خضمة الأبل نبتة الربيع ﴾ وهذه السياسة — كما ترون — تقوم على الاثرة وعلى استخدام المجتمع لمصلحة الفرد في عصر كان يعزز المجتمع مع الاحتفاظ بحقوق الافراد

لذلك كان مال المسلمين موزعا بين افراد مما اغضب المجتمع عليه واغضب الامام على الاخص واغضب امثال ابي ذر من رجال المسلمين

الابرار الذى بعدوا من اجل اشباع بعض الرغبات وكلمة الامـام في توديع ابي ذر تعطيك صورة من رأي الامام في ذلك العصر

﴿ يا ابا ذر انك غضبت لله فارج من غضبت له ان القوم خافوك على دنياهم وخفتهم على دينك فاترك في ايديهم ما خافوك عليه واهرب بما خفتهم عليه فما احوجهم الى ما منعتهم وما اغنـاك عمـا منعوك وستعلم من الرابح غداً ﴾ . ومثل هذه السياسة لا يمكن ان تعيش طويلا في تلكم العصور لذلك كان مصيرها معلوما لدى الجميع وكان ما وقع منتظر الوقوع — اما موقف الامـام من ذلك العصر فهو موقف الناصح المشفق على الدين الذى نصح لعثمان وحذره فما انتفع بذلك النصح والتحذير وما ذا يقول له اكثر من ان يقول من حديث طويل وذلك في احرج الساعات

« واني سمعت رسول الله « ص » يقول يؤتى يوم القيامة بالامام الجائر وليس معه نصير ولا عاذر فيلقى في نار جهنم فيدور كما تدور الرحى ثم يرتبط في قعرها واني انشدك الله ان لا تكون امام هذه الامة المقتول فانه كان يقال يقتل في هذه الامة امام يفتح عليها القتل والقتال الى يوم القيامة ويلبس امورها عليها ويثبت الفتن عليها فلا يبصرون الحق من الباطل » الى ان يقول « فلا تكونن لمروان سيقة يسوقك حيث شاء بعد جلال السن وتقضي العمر »

ولكن الامام مع هذا ابتلى بعثمان لان الوشاة كانت تجعله البضو العامل في التحريك عليه خصوصا والجماهير كانت تهتف باسمـه في

الخلافة لذلك طلب عثمان من الامام ان يترك المدينة فتركها ثم ارسل اليه ان يعود لتهدئة الناس فعاد وعاد الى ابعاده عن المدينة ايضا حين ارسل اليه ابن عباس فقال له الامام « يا ابن عباس ما يريد عثمان الا ان يجعلني جملا ناضحا بالغرب اقبل وادبر بعث الي ان اخرج فخرجت ثم بعث الى ان اقدم ثم هو الآن يبعث الي ان اخرج والله لقد دفعت عنه حتى خشيت ان اكون اثما » وللغاية فى حديثه معنى قد لا يخفى على السامع الكريم

وتقع الواقعة وينتهي الامر فيصور الامام ذلك بكلمتين مع ذكر العلل والاسباب « الى ان انتكث عليه فتله واجهز عليه عمله وكبت بطنته » ويقول في مورد آخر ﴿ استأثر فاساء الاثرة ولله حكم فى المستأثر ﴾ وهذه الكلمات من آيات الفن في التصوير

هذا كله من الوجهة السياسية والاقتصادية اما الوجهة الدينية فحسبك منها حال القضاة والمفتين فى تلكم العصور وهذا حديث الامام في الموضوع « ترد على احدهم في حكم من الاحكام قضيه فيحكم فيها برأيه ثم ترد تلك القضية بعينها على غيره فيحكم فيها بخلافه ثم يجتمع القضاة بذلك عند الامام الذى استقضاهم فيصوب ارائهم جميعا والههم واحد ونبيهم واحد وكتابهم واحد افأمرهم الله بالاختلاف فاطاعوه ام نهاهم عنه فعصوه ام انزل الله دينا ناقصا فاستعان بهم على اتمامه ام كانوا شركاءه فلهم أن يقولوا وعليه ان يرضى ام انزل الله سبحانه وتعالى دينا تاما فقصر الرسول عن تبليغه وأدائه والله سبحانه يقول

﴿ ما فرطنا في الكتاب من شيء ﴾ وقال ﴿ وفيه تبيان كل شيء ﴾ وذكر ان الكتاب يصدق بعضه بعضا وانه لا اختلاف فيه فقال سبحانه ﴿ ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيراً وان القران ظاهره انيق وباطنه عميق لا تفنى عجائبه ولا تكشف الظلمات الا به ﴾ وكأنه (ع) يريد ان يشير بطرف خفي الى كمال الدين الاسلامي والى احتياجه الى امام معصوم يستطيع ان يسبر غور القران فيأتي الناس باحكامه ثم يجمل ذلك العصر كله بحديث آخر فيقول ﴿ وان بليتكم قد عادت كهيئتها يوم بعث الله نبيكم (ص) وبهذا اللون من الاضطراب ينتهي ذلك العصر ويقبل عصر الامام ﴿ فما راعني الا والناس كعرف الضبع ينثالون علي من كل جانب حتى لقد وطئ الحسنان وشق عطفاي مجتمعين حولي كربيضة الغنم ﴾ وبهذه الكلمات صور اقبال الناس عليه وكأنني الآن اتمثلهم وهم مجتمعون من جميع الامصار يتراغون حوله بلسان واحد ﴿ ليس لها غيرك يا ابا الحسن والامام يمتنع عن الجواب ولكنهم يأبون عليه ويأبى ويبسطون يده للبيعة فيقبضها عنهم كما يحدثنا (ع) بقوله ﴿ وبسطتم يدي فكففتها ومددتموها فقبضتها ثم تداكككتم علي تداك الابل الهيم على حياضها يوم وردها حتى انقطعت النعل وسقطت الرداء ووطئ الضعيف ﴾ ولكن الامام يعلم بانه سيواجه امراً ذا وجوه والوان فهو اعلم بنفسيات المجتمع وعقلياتهم وهو اعلم بولاة عثمان وسيطرتهم على بعض البلدان وهو اعلم بما صنع الخليفة المقتول بمال

المسلمين مما لا بد من استرجاعه وفي استرجاعه ما به من الاستيـاء النفسي الذى لا يمكن ان يرضخ اليـه امثـال ولاة عثمان ﴿ والله لو وجدته قد تزوج به النساء وملك به الاماء لرددته فان في العدل سعة ومن ضاق عليه العدل فالجور عليـه اضيق ﴾ ولـكن النـاس مع هذا تضايقه فيخرج بهم الى المسجد ويخطب هناك ويقوم الناس الى بيعته فتبايعه لأول مرة يد شلاء فيتشأم الناس

ويعرف المجتمع لون سياسته من خطبته تلك حيث يقول فيها

﴿ والذي بعثه بالحق لتبلبلن بلبلة ولتغربلن غربلة ولتساطن سوط القدر حتى يعود اسفلكم اعلاكم واعلاكم اسفلكم ، والله ما كتمت وشمة ولا كذبت كذبة ولقد نبئت بهذا المقام ﴾ وهذه السياسة وان وافقت ميول قسم من المجتمع ولكنها اغضبت الـكثير من رجال العصر الذين كانت لهم حظوة عند الخليفة عثمان . سادتي نحن نستطيع ان نرجع رجال عصره الى اقسام ثلاثه — قسم كان يقدس عثمان ويفنى في التقديس ويتمثل في اشخاص بني اميه ومن شـايعهم وقسم كان يقدس سياسة عثمان المالية وان كره عثمان كالسيدة عائشة وطلحة والزبير ومن لف لفهم ، وقسم كان يشايع الامام ويرضى بنظام الاسلام المـالي كاصحاب ابي ذر الذين يشايعونه بالفكرة والامام حصل من هذه الاقسام على القسم الاخير فقط وكان طبيعيا ان يتخلف الاول عن بيعته وان ينكث القسم الثاني بعد ان يبايع الامام والامام نفسه احتاط على القسم الثانى فجدد عليهم البيعة عندما

استأذنه بالخروج وعندما قال ع ﴿ماارد تما العمرة ولكن اردتما الغدرة﴾

وهكذا كان طلحة والزبير اول عقبة تقف في طريق الامام ويكون من امر الجمل ما يكون وينتهي بهزيمة المناوئين ويجيء دور بني اميه ودور معاوية على الخصوص وعنده اهل الشام وكفى بهم جنداً باسلين استطاعوا ان يقفوا لجيش ابي الحسن بصفين مدة استغرقت ثلث ايام خلافته (ع) وانتهت بفاجعة الخديعة وتحكيم الحكمين مما خلق للامام مشكلة النهروان والامام يصور كل ذلك بقوله

(فلما نهضت بالامر نكثت طائفة ومرقت اخرى وقسط آخرون) وهذه الحروب التي توالت عدة من السنين لا بد وان تحدث سئما في جيش الامام وتمرداً عليه خصوصاً اذا علمنا نفسية اهل الكوفة التي لا تثبت على شيء وانانية اهل الحجاز الذين كان بهم من يرى نفسه اهلا للخلافة والامام يصور لنا هذا التمرد عليه بقوله ﴿ ايها الناس انني قد بثثت لكم المواعظ التي وعظ الانبياء بها امهم واديت لكم ما ادت الاوصياء الى من بعدهم وادبتكم بسوطي فلم تستقيموا وحدوتكم بالزواجر فلم تستوسقوا لله انتم أتتوقعون اماما غيري يطأ بكم الطريق ويرشدكم السبيل﴾ وينادي بجهاد عدوه فيقول ﴿ الجهاد الجهاد عباد الله ألا واني معسكر في يومي هذا فمن أراد الرواح الى الله فليخرج﴾ ويخرج الناس كما يحدث الرواة متتالين وتقبل الكوفة عليه غاية الاقبال ولكن الراوي يحدثنا فيقول : فما دارت الجمعة

حتى ضربه الملعون ابن ملجم فتراجع العسكر كاغنام فقدت راعيها
وبهذه الفاجعة الفادحة ينتهي ذلك العصر فينتهي بنا المطاف

محمد تقي الحكيم

١٤٩

ما ينفع الناس

الكاتب اديب كبير خدم النهضة الادبية الحديثة بقلمه البليغ في صحيفته ـ النجف ـ وخدمها بجولاته الادبية في امهات الصحف العربية وله اليوم مركز هام في تشييد بناء الحركة الادبية العراقية

سادتي الاماجد :

جرى العرف العام في عالم الوجود ان الشعوب المهذبة تعنى بتخليد رجالها الافذاذ ذوي الاقدار والمساعي الجليله فتقيم لهم مهرجانات حافلة في مواقيت زمنية معينة وتبنى لهم هياكل ونصبا تمتد اظلالها ازمنة بعد ازمنة كل ذلك لما لأفذاذها من اياد فعالة في حقل الوجود اضحت نباتا حسنا وكان لها اثر محمود في مصير اقوامهم واصلاح معاشهم في لجج هذه الحياة الهادرة وقد اصبحت تماثيلهم واحياء ذكراهم مثلا كريمة يصلح الاحتذاء عليهم والقدوة بهم .

ذاك حق ولا غبار عليه وذاك لان الانسان المجرد من الانانية

المقيتة متمركز في طبيعته وفي جبلته حب التقليد وحب السير على هدى نواميس النفع العام وفي الاحيال البشرية ما تعاقبت الاحقاب افراد وجماعات موهوبون بعبقريات ممتازة ومثل هؤلاء مثل النار الكامنة في العود فاذا ما توالت مهرجانات تكريم الرجال الماضين كان ذلك قدحا في الاقباس الموقوفة في النفوس المهيئة للزعامة والقيادة والتشريع فاذا شعت هذه المصابيح بين قلوبهم كان ذلك مدعاة تحفز وكانت علة تدفع بهم الى النهوض والصيحة بالواجب ثم المفاداة بالنفس العزيزة التي لا يسعها ميزان فى هذا الوجود ومن ثم يبدأ الخلق والابداع في جيل او امة بذاتها فيتجدد شباب الامة وتروح تخلع ما بلي من اسمال عاداتها ونظمها مفرغة عليها اجد ما فى الحياة التى تتجدد كل يوم ما طلعت شمس وازهر بدر وعبق اريج .

والمجد في الحياة له ربيع تزدهر فيه جنباته وتروع مناظره وتفتن انسامه العليلات وله كذلك خريف قاتم يصوح فيه نبته وتجف ازاهيره فاذا هو هشيم تذروه الرياح . ومن هنا تكون احتفالات الذكريات ومواسم الاشادة كالنمير السلسال ينصب انصبابا لى جذور العظماء المحتفل بهم فتورق امجادهم وتضيء انوارهم وها هنا يتحمس الاحرار المقتدون بهم فتزحف بهم هممهم فيثورون على القديم الغفل من فوائد العصر ويهبون الى الانشاء والتنظيم وكل عمل يساير الزمن ويواكب سير الحياة .

هذا هو جوهر الغرض الحافز الى تكريم الامم لعظماءها الذين

يستحقون التنويه ويفتقرون الى الاشادة والذكر والتقريظ

وليس من ريب في ان هؤلاء الرجال الذين تحتاج شعوبهم الى تخليد ذكرياتهم ونشر جلائل مساعيهم في ما اسدوا من جهود جبارة انما هم من طراز رفيع ومن نسيج قائم بنفسه يفصلهم عن المجموع العام ولكنهم على الرغم من تسنمهم غارب المجد واحتلالهم عقوة الشرف فانهم يقفون ضمن نطاق خاص محدود الاطراف وكذلك تقف منافعهم في اطار محصور كما وكيفاً ولذلك فان شهرتهم مقصورة على بقعة بعينها من بقاع الارض .

اما ذكرى الامام علي عليه السلام — بعد ذكرى المصطفى صلوات الله عليه — فانها تعطر ارجاء الدنيا شرقا وغربا فهي الشجرة المباركة التي اصلها ثابت وفرعها في السماء فهي تجوز الجوزاء وتعم الخضراء وتنير الوجود الانساني ما استمر النيران المشعان في آفاق الليل والنهار

وهكذا تسمو ذكرى بطل الاسلام وقطب رحى الدين هذا السمو الباهر لانها نفحة من نور الله ولانها صيغت من جوهر مكنون وغيرها من عرض مهلهل الجوانب لا يثبت على نقد ولن يصمد على مقارعة او تحليل ، ومن هنا يتجلى ان الامام عليـاً عليه السلام قد استكمل الصفات الانسانية العليا التي لا تطاولها الشهب بل هي التي تطول الشهب فتبزها وتعرج بهفهفه قدسية صعدا الى عليين .

ذاك هو الامام الذي لم تلحقه معرة في دينه ودنياه وحاشاه بل هو المثال الصالح الذي اعوز امم الارض نظيره بل شبيهه

واذا كانت ذكرى عباقرة العالم تستمد الجدة والنضرة من هذه الاحتفالات تقيمها عالمكهم عاماً فعاماً فان شذا ذكرى الامام انما هي التي تجدد ما طمس من معالم الدين وهي التي تمد قلوب المسلمين بروافد الحكمة ودستور العدل وقانون الاعتصام بحبل الله المتين وفي ذلك وقاية الاسلام ومعتنقي الاسلام من زلل العصيان ونزغات الشيطان

ومن هنا فان ذكراه القدسية لا تقف حيث تقف ذكرى الرجال في مهرجاناتهم على صعيد واحد معقولة الخوافي والقوادم انها بعد ذكرى المنقذ الاعظم هي ذكرى الاسلام باسره وروح الدين وذلك لانه عليه السلام معناه الدائم السرمد

تلك هي مميزات ذكراه ومن هنا كان تساميها عن ذكريات الرجال قاطبة ففي الاحتفال بايامه الغر احياء للاسلام ومجد للدين وشرف للمسلمين وانه دون سواه حامل لواء القرآن والضارب عرانين الشرك والواقي بنفسه من اصطفاه الله امينا لسره وزعيما لرسالته يؤديها للخلق كافه .

وبعد فانه امير المؤمنين كاشف الكرب عن وجه الرسول وهو صاحب المواقف التي يقعد عنها الثقلان

هذا الذى خلت القرون وذكره

وحديثه في كتبها مشروح

واذا قصرت البلغاء عن استيفاء مديح الامام وعجزت السنة المصاقع عن ايلائه حقه فليس ذلك بمهجن عليهم قرائحهم وانما شفيعهم

ان عيونهم تعشو عن مكارم الزمن وقد ضمت ازرارها عليه .

فذكرى الامام في ايامه اللوامع تنفع المسلمين عامة وتهدي الى الرشاد وذكرى سواه من جهابذة التاريخ فيها ثناء وفيها تحديد لما اجدب من ربوعهم الخاوية وشتان بين هذين السجلين .

وبعد فما للمسلمين رعى الله حماهم وصان دينهم قد تركوا ﴿ النهج القويم ﴾ والسبيل اللاحب فخطمتهم تيجان دول الايام وتسلطت عليهم مخالب الاطماع فاصبحوا ولا سلطان لهم على مكاره الدهر ، ولو انهم سلكوا سبيله وترسموا « منهجه » لكان لهم شأن ولرسا لتهم عمود يقارعون به المغامرين . أليس بين ايديهم « اشرف الكلام بعد القرآن المجيد وكلام محمد عليه الصلاة والسلام ، وفيه صلاح امورهم وتدبير معاشهم فى دينهم ودنياهم .

كان المرحوم محمد عبده مفتي الديار المصريه يحمل بين يديه نهج البلاغة انى اقام وانى سار حرصاً عليه وانتفاعا بفرائده وشرعته وقد سأله يوما احد عظماء الانجليز قائلا « هل يستطيع المسلمون ان يرفرف لهم لواء وتسمق لهم دولة ويسود بينهم حكم عادل ترهبه الاجانب ؟

وكان جواب محمد عبده ايجابا وان المسلمين يستعيدون سلطانهم معاً الديني والسياسي اذا عملوا في ضوء هذا واشار الى نهج البلاغة .

خذوها يا سادتي شهادة كريمة من امام في التشريع الاسلامي فهي واحدة تضاف الى اخواتها التي لا يحصرها عد وكلها ناطق بمعجزة نهج البلاغة وسداد مشرعه ومورده .

وبعد فهل لنا ونحن نستعرض سيرة امير المؤمنين عليه السلام ان نترسم السبيل الآمن العثار الذى دعانا الى سلوكه فنجتنب وهاد المزالق ونسير على هدى الله وسنة نبيه ووصايا وصيه العظيم ؟

. ذلك ما نؤمل ان توحيه لنا هذه السيرة العلوية المباركة فنعزف مخلصين عن التكالب على حطام الدنيا ونفض جلابيب ريائنا واطماعنا ويمحض بعضنا بعضا النصح والارشاد فتجرد نفوسنا من هذه المادة التي كبلت العقول والعقائد فحبستها على نور الاسلام وشرف المثوبة عند الله في اليوم الآخر . ذاك ما نؤمل ان توحيه لنا سيرة الوصي المباركة ونحن نستعرضها مؤمنين بسدادها وصلاحها .

وبعد فما اجملى ذكرى الامام فى هذه الايام الحميدة الكريمة بارك الله فيها وجعلها اكرم مؤلف لجمع المسلمين المشتت وحبانا من رعايته عزاً وعلا عزاً ينفعنا دنيا وآخرة انه ولي المؤمنين والسلام عليكم

يوسف رجيب

الليلة السادسة

الذكرى الخالدة — الشيخ سليمان الظاهر

سيادة الامام — الشيخ احمد رضا

١٥٦

الذكرى الخالدة

العلامة الكبير الشيخ سليمان الظاهر كاتب بليغ وبحاثة مشهور له جولات وصولات في الادب واللغة وهو اليوم احد اركان النهضة في جبل عامل واحد اعلام الادب المشهورين وهو عضو المجمع العلمي العربي بدمشق وعضو شرف في لجنة المجمع الديني لمنتدى النشر

اكبر بذكرى امام عظيم ملأت فضائله الاسفار ؛ وشغل الدنيا بما خلف من الآثار ؛ والناس على اختلاف اللغات والاجناس بتكييف شخصيته ، وتحليل قدسي نفسه ، تعاصي على قوم فهمه ، وفهمه قوم آخرون آلها معبودا ، وقوم عدوه امرأ زائغا ، واولياء مقتصدون اماما واجب الطاعة معصوما ، وفريق شخصا اسطوريا ، واخر ملكا روحانياً وانساناً مثالياً لا انسانا هيولانيا

هـذا الامام الذى رآه فريق مفرطا في الظهور والسطوع الى ان قال فيه :

وتركت مدحي للوصي تعمداً إذ كان نوراً مستطيلا شـاملا
واذا استطال الشيء قام بنفسه وصفات ضوء الشمس تذهب باطلا

وفريق لغزاً من الغاز الـكون غامضا لا يدرك له حل ولا يستطاع الى فهمه الوصول ، وكلا الفريقين يراه الانسان الـكامل والمثل الاعلى ورمز كل ما في الاسلام من معنى سام وكلاهما به وامق وله محب ، وبلغ من شذوذ فريق ثالث ان نزل به من سماء قدسيته ، ومعارج ايمانه الذى منه اقتبس البشر معنى الايمان بالديان الى حضيض الـكفر والعياذ بالله ، ويقرب من هذا الفريق فريق لم ينصفه في الحياة ولا في الممات حتى في هذا العهد

اية شخصية هـذه الشخصيـة التى توزعت في تفسيرهـا الآراء وتنوعت فيها الاهواء ، وكيف اجتمعت فيها المتناقضات ، وكيف استسهل فريق فهمها وتعاصي على فريق ، وكيف آمن بها قوم وألحد آخرون ، وكيف غلا من غلا الى ان ارتفع بها الى التألية ، وقلاها من قلاها الى ان هبط بها الى التكفير

حقاً ان هذه الشخصية من الشخصيات التى لم يرو لها التاريخ مثيلا ، وكيف استكان من استكان الى الافراط بهواها فالهها ؟ وكيف زاغ من زاغ عن صراط الحق بكرهها فكفرها ؟ وهو من كليهما بريء

وهل ادل على عظمة هذه الشخصية من سيرته المثلى التي هي المثل المضروب في كل خلال الخير والنبل والسمو ، وهي متماثلة متشابهة ، في كل ان من آناته ، من مطلع شمس حياته في بيت الله الحرام الى مغربها فى كوفة الجند على يداشقاها وما بين مطلعها ومغربها من آيات بينات وفضائل ساميات ايمان بالرسالة متين وصحبة للرسل الاعظم دائمة ، وتأييد لها بكل معاني التأييد بكل ما يملك من أيد وقوة وشجاعة وعزيمة لا يفل لها غرار ولا يحد لها حد سواء أكان في صدر الدعوة وفي مكان منبثق شعاعها (مكة) ، وهو يكافح عنه وينافح ، وليلة فراره منها من موامرة مدبرة على قتله ، وقد قدم نفسه فدية له في بياته على فراشه ، والسيوف حوله مصلتة والأسنة مشرعة . ام كان فى المدينة وقد التحق به يناصره ويظاهره ؛ ويؤيد دعوته وقد اقترنت بالقوة والامور بلغت ذروتها في معركة بدر الاولى وماكان بها من النصر المبين ، وما بينها وبين يوم الفتح من غزوات ومواقف في حياة النبي (ص) وبعد انتقاله الى الرفيق الاعلى ، لم يحل بينه وبين مظاهرة الاسلام صرف الامر عنه بل عاون الخلفاء اكمل معاونة ، وشاركهم في الرأي ؛ ومحضهم النصحية ورد معهم مكايد الردة ، وهو ما بين ذلك كله الى ان انتهى امر الخلافة اليه يذود عن حمى الملة ؛ وينشر ما تلقاه عن النبي (ص) من العلوم والاسرار ما يملأ القماطير ، ولا غرو فهو ربيبه وخريج مدرسته ، وحافظ آثاره ؛ وعيبة اسراره ، وباب علمه ، فظهر منه من العلم ما

بهر ، ومن البلاغة والفصاحة ما لم ينضب له معين ، ذلك الى زهد في الدنيا منقطع النظير ، وعلم بالاله وباسرار الكون ، ووصول لأصول العلوم الاسلامية الحادثة التي اليه ينتهي سندها ، دع ماعترض سبيله من شجون وشؤون ؛ قبل ايلائه الخلافة وبعدها ، فماذا يكون له من الغناء للاسلام لو ثنيت له الوسادة ، وخلي امامه السرب

لم يبسم له الدهر ، ولم ينصفه قومه ، فلم ير بعد النبي (ص) غير ما يشجي ويؤلم وكان آخر المؤلمات القاصمات المؤامرة على قتله في شهر الصوم مظلوما مجهولا حقه ممنوعا من اظهار كل ما تضمه جوانحه من اسرار وعلوم ، فمنازعا حتى على اظهر فضائله فيستكثر عليه فريق ان ينسب اليه نهج البلاغة ، وما هو الا قطرة في بحر بلاغته ويرتاب فيه المرتابون ولا سيما في هذا العصر وينسب وضعه الى الشريف الرضي وهو معلوم قدره وصدقه وامانته وورعه ويا لله ما في هذا الزعم من وهن ومكابرة وما يتسع المجال لرد ما اوردوه من الشبهات على وضعه على ان الشريف الرضي على مكانته العلمية والشعرية والنثرية ليقصر ان يجاري اقصر خطبة من نهج البلاغة وان الفارق ليتبين له البون الشاسع اذا قابل بين خطب نهج البلاغة وابلغ كلمة الرضي في كتابه حقائق التأويل في متشابه التنزيل وانظر الى الشريف ما يقول في هذا الكتاب الجليل بعد وصفه اعجاز التنزيل

واني لأقول ابداً : انه لو كان كلام يلحق بغباره او يجري في مضماره — بعد كلام الرسول صلى الله عليه واله — لكان ذلك

كلام امير المؤمنين علي بن ابي طالب عليه السلام اذ كان منفرداً بطريق الفصاحة لا تزاحمه عليه المنا كب ولا يلحق بعقوه فيها الكادح الجاهد ومن أرادان يعلم برهان ما اشرنا اليه من ذلك فلينعم النظر في كتابنا الذى الفناه ووسمناه ﴿ نهج البلاغة ﴾ وجعلناه يشتمل على مختار جميع الواقع الينا من كلام امير المؤمنين (ع) في جميع الانحاء والاغراض والاجناس والانواع من خطب وكتب ومواعظ وحكم . وبوبناه ابوابا ثلاثة لتشتمل على هذه الاقسام مميزة مفصلة . وقد عظم الانتفاع به . وكثر الطالبون له لعظيم قدر ما ضمنه من عجائب الفصاحة وبدائعها وشرائف الكلام ونفائسها . الخ

وبعد فماذا يرمي اليه الرضي من غرض في الانتحال أرأى نفسه ابلغ من جده فبر به واصطنع له مايربو على بلاغته ؟ ام رآه انه لم يؤت مفخرة البلاغة الى ما له من المفاخر فاصطنع له هذه المفخرة والشريف احوج الى هذه المفخرة من جده الغني بالمفاخر

ام ان ما في خطب النهج من شكوى وهي مما استفاضت بها الاخبار وحفل بها التاريخ حمل الناقد المنصف على الشك في صحته فزعم وضعه ؟ على ان نظرة بسيطة في استعراض كل ما في هذا النهج من خطب وكتب وكلم قصار حكمية يتبين منها انها كلها صادرة من ينبوع واحد فياض لا ينضب وهي متماثلة متشابهة آخذ بعضها برقاب بعض ويرى مثل هذا التشابه والتماثل بين ما رواه الشريف في نهجه وما رواه من تقدمه ممن لا تتطرق اليهم الشبهة

كالجاحظ في البيان والتبيين والمبرد في الكامل والطبري في تاريخه احيط علي (ع) بهالة كثيفة من اعدائه حاولوا بها ستر محاسنه بمختلف الاساليب، وتغطية مناقبه بشتى الوسائل، وبيدهم من متع الدنيا الطويلة العريضة الشيء الكثير من المغريات، وقد تبدلت اوضاع الحياة الاسلامية الفطرية، وانتقلت من طبيعة الدين الى مغريات الدنيا، فصوروا علياً تارة سفاكا للدماء في سبيل الخلافة. وطوراً حقوداً على من تقدمه من الخلفاء شغفاً بالخلافة وآناً ضعيف السياسة في ادارة مهام الخلافة. وآونة عملوا على اضعاف عصبته وتفريق الجماعات عنه، اما بالرشا وبذل المغانم لضعفاء النفوس والايمان، واما بالأخافة لأحزابه وتشريدهم وتقتيلهم وما الى ذلك من ضروب النكاية، دع ما سول لهم الطمع فى منازعته على الخلافة الحق ووضع الحديث الكاذب في ثلبه وفي مدح عدوه، وبذل الرشا في هذا السبيل؛ وكان لهم من الخوارج بصفين ما ساعدهم على تمثيل امثال هذه الفصول، على مسارح الطغيان الذي اخترق حدود الشريعة، ولم يتحرج متابعوه من تحريك مجرى الحقائق والباسها لباسا من الباطل، بل تجاوزوا الواقع وحطموا القيود ولم يتأثموا من نسبة ما اختص به من فضل استفاض الحديث فيه الى خصومه ومن خطب رائعة لا يمكن ان تصدر الا من معينه الفياض الزاخر بالحكمة والتدين المتين الى عدوه وانك لتجد الجاحظ في البيان والتبيين ينقل خطبة معزوة الى معاوية رواها له شعيب بن صفوان

اولها . ايها الناس انا قد اصبحنا في دهر عنود ؛ وزمن شديد ، يعد المحسن فيه مسيئا ، ويزداد الظالم فيه عتواً الى آخر الخطبة . ثم يقول الجاحظ وفي هذه الخطبة أبقاك الله ضروب من العجب ، منها ان الكلام لا يشبه السبب الذى من اجله دعاهم ﴿ من خطب فيهم ﴾ معاوية . ومنها ان هذا المذهب في تصنيف الناس ، وفي الاخبارعنهم وعما هم عليه من القهر والاذلال ، ومن التقية والخوف اشبه بكلام علي وبمعانيه وبحاله منه بحال معاوية . ومنها أنا لم نجد معاوية في حال من الحالات يسلك في كلامه مسلك الزهاد . ولا يذهب مذهب العباد ، ولكن الجاحظ روى بعد ذلك خطبة معزوة الى القطري ابن الفجاءة وهي من خطب امير المؤمنين بلا منازع ، ولم يعلق عليها وهي من ذلك النسج الذى لا يجارى

ان هذا الفريق المتأثر بسياسة الغالب الغاصب الدنيوية ، القائمة على امتلاك ناحية الدنيا البعيدة كل البعد عن سياسة الدين وهو في عنفوانه ، وهو يبني عليها اعتقاده فى الامام والعهد قد طال واختفت الا عن الناقد المنصف وقائع الحال هو وامثاله تركوا طريق البحث شائكا امام الباحث النزيه المجرد عن عنعنات التقليد عن شخصية هذا الامام العظيم ، اضف الى ذلك ما لقب به اتباعه من الالقاب المزرية وما رموا به من اختلاف الحديث ووضعه في موارد المدح والذم ، والمناقب والمثالب ، حتى ادت الحال الى الشك في كل حديث يروى في فضل علي وبنيه ؛ ولم تسلم من هذا الشك العجيب حتى الأحاديث

المتواترة .

هذا الى امثاله أدى الى غموض تلك الشخصية امام الباحث الغريب .

ولكن الله شاء الانتصاف لذلك الامام العظيم ، فقيض له من القريب قديماً مثل ابن ابي الحديد المعتزلي شارح نهجه ، شرح الناقد البصير العارف باساليب الكلام ، وبعلو طبقة كلام الامام ، الذى قال عنه نقلا عن غيره . انه دون كلام الخالق وفوق كلام المخلوق ، وبحث عن شخصية الامام الفذة في تضاعيف كتابه الجليل بحث المدقق المنصف المعتدل ، والاستاذ عباس العقاد البحاثة المحقق في كتابه عبقرية الامام والاستاذ الزيات في رسالته ، ومن الغريب امثال فيلسوف الفريكة امين الريحاني ، وجبران خليل جبران ، وانيس المقدسي ، وامين نخلة في هذا العصر ؛ ومن غريب اللسان والجنس الفيلسوف الانكليزي كارليل ، فى كتابه الابطال ، ولا نظن ان باحثا غربياً في تاريخ الاسلام وشؤون المسلمين لم يتعرض للبحث في هذه الشخصية الاسلامية الفذة والعالمية الانسانية ، هذا الامام الذى يحتفل المجمع الثقافي الديني بذكراه اليوم وهي الجديرة بان يحتفل بها العالم العربي ، بل الشرق والغرب ، فان المحتفل بذكراه عاش ومات غيلة فى مثل هذا الشهر ؛ ولكن في سبيل مثله العليا وادائه رسالتها وما هي الا طريق الانسانية المستقيم ، وفيها استشهد من استشهد من بنيه صلوات الله عليهم اجمعين

النبطيه جبل عامل - سليمان الظاهر العاملي

سياسة الامام

العلامة الكبير الشيخ احمد رضا من اقطاب النهضة الادبية في جبل عامل ومن شيوخ الادب في العالم العربي الذين يشار اليهم بالبنان له مؤلفات قيمة في التاريخ والادب وهو عضو المجمع العلمي العربي بدمشق وعضو شرف في لجنة المجمع لمنتدى النشر

السياسة في اللغة . القيام على الشيء بما يصلحه وساس الوالي الرعية . قام بامرهم ودبره والاصل فيها رياضة الصعب وتذليله وقوامها حسن الرأي وجودته وتدبير الامور في لين من غير ضعف وقوة في غير عنف واقامة العدل على صراطه المستقيم

﴿ ١ ﴾ اما سياسة علي عليه السلام فقد كانت في خلافته قائمة على العدل والمساواة فالقريب والبعيد في عدله سواء والضعيف الذليل عنده قوي عزيز حتى يأخذ بحقه والقوي العزيز عنده ضعيف ذليل حتى يأخذ منه الحق يحمل الناس على المحجة البيضاء . وقد عرف

ذلك له عمر بن الخطاب اذ يقول ان الاجلح (يعني علياً) ان وليها ليحملنكم على المحجة البيضاء والصراط المستقيم وشهد له النبي المصطفى (ص) قبل ذلك بقوله وان تولوها علياً تجدوه هاديا مهديا . وانما نقم عليه طلحة والزبير عدله في القسمة لما طلبا ان ينقلهما ويفضلهما في القسم على غيرهما

﴿ ٢ ﴾ واما الرفق والشدة فقد كان رفيقا حيث يحسن الرفق شديداً في موضع الشدة . وفي يوم الجمل لما حاربه اهل البصرة فضربوا وجهه ووجوه اولاده بالسيف وسبوه كان منه ان رفع السيف عنهم لما ظفر بهم ونادى مناديه في اقطار العسكر الا لا يتبع مول ولا يجهز على جريح ولا يقتل مستأسر ومن القى سلاحه فهو آمن ومن تحيز الى عسكر الامام فهو آمن . ولما ظفر بمروان بن الحكم وهو اعدى الناس له واشدهم بغضا صفح عنه وكذلك عبد الله بن الزبير وقد كان يشتمه على رؤوس الاشهاد ويقول لأهل البصره اتاكم الوغب اللئيم (يعني علياً) وكان علي يقول فيه ما زال الزبير منا حتى شب ولده عبد الله . لما ظفر به يوم الجمل واسره صفح عنه ولم يزد على قوله اذهب فلا ارينك . ولما ظفر بعائشة يوم الجمل وحالها في كرهه والانحراف عنه معلوم وهي التي جيشت الجيوش يوم الجمل فانه اكرمها وبعث في حراستها الى المدينة حيث امرها الله ان تقر عشرين امرأة من نساء عبد القيس عممهن بعمائم الرجال وقلدهن السيوف فلما كانت في بعض الطريق ذكرته بما لا يجوز وقالت هتك

سترى ابن ابى طالب برجاله وجنده الذين وكلهم بي فالقى النساء عمائمهن فعلمت انهم نسوة

ولما ملك معاوية الشريعة في صفين قال له رؤساء اهل الشام اقتلهم عطشا كما قتلوا فلانا ولكن علياً لما انتزعها منهم وملكها دونهم قال بعض اصحابه امنعهم منها كما منعونا فقال والله لا اكفيهم بمثل ما فعلوا افسحوا لهم عن بعض الشريعة

﴿ ٣ ﴾ واما الشدة فلم تكن منه لصون ملك او احراز دنيا وانما كانت لله وفي سبيل الدين الذي كان تأييده غاية الغايات عنده ومنتهى الطلبات وقد احرق قوما بالنار لما غالوا فيه فالهوه ؛ وتلك بدعة ضالة رأى الشدة في قمعها واطفاء جذوتها وانه يجب القضاء عليها قضاء معجلا وفي ذلك يقول

اذا رأيت الامر امراً منكراً

اججت ناري ودعوت قنبرا

﴿ ٤ ﴾ واما الرأي والتدبير فقد كان من اسد الناس رأيا واصحهم تدبيراً ولمنزلته هذه كان كثيراً ما يعتمد عليه الخليفة الثاني عمر بن الخطاب ويقول لا بقيت لمعضلة ليس لها ابو الحسن وهو الذى اشار على عمر بما اشار يوم عزم عمر على الخروج بنفسه الى حرب الفرس والروم تبعا لرأى بعض الاصحاب فعمل عمر برأي علي وكان هو الصواب وكثيراً ما اشار على عثمان بما يصلح امره ويهدئ الثائرة لو كان عثمان عمل به

﴿ ٥ ﴾ نعم قال قوم انه لا رأي له وليس الامر كما قالوا ولكنه كان متقيداً بالشريعة الغراء التي بعث بها النبي المصطفى وحامي ودافع عنها الامام المرتضى

ولولا ابو طالب وابنه لما مثل الدين شخصا فقاما
فهذا بمكة اوى وحامى وهذا بيثرب خاض الحماما

وليس من حسن التدبير ان يخرق حرمة هـذا الدين بارتكاب ما يخالفه في سبيل اصلاح دنياه وهو ولي المسلمين ولو فعل مثل هذا لأتخذوا فعله سنة عنه وقدوة تتسع فيهـا الاهواء والشهوات فلا يلبث ان ينقلب الدين رأساً على عقب وقد صح عنه انه قال لولا الدين والتقى لكنت ادهى العرب وصح عنه ايضا قد يرى الحول القلب وجه الحيلة ودونها حاجز من تقوى الله وينتهز فرصتها من لا حريجة له في الدين . وانما استقام الامر لمن كان قبله من الخلفاء الراشدين ولم يستقم له لان زمانه كان غير زمانهم والتغيير والتبدل الذى طرأ على اخلاق الناس في احوالهم وتصاريف امورهم ومعايشهم واتجاهاتهم زمن ولاية علي لم يكن منه شيء زمن ولاية عمر

﴿ ٦ ﴾ وقد لقي النبي (ص) ربه والاسلام عظيم في نفوس المسلمين قوى فيهم وهيبة النبوة كانت مسيطرة على اخلاقهم وسائر احوالهم وهم قريبوا عهد بالوحي لم تغوهم الدنيا بزبارجها وانما تتجه نفوسهم الى ما وعدهم الله به من استخلافهم في الارض وتمكين دينهم الذى ارتضي لهم بفتوحهم الامصار وانتشار دينهم في

سائر الاقطار فكان مقام الخلافة في اول الامر يستمد هيبته وعظمته من مقام النبوة وهيبتها وحفظ الخليفتان الاولان هذه الهيبة بحكمة وحسن تدبير وكانت الامور جارية مجراها . وخشي الخليفة الثاني لما امتدت الفتوحات امامه ان تطغى الدنيا على اخلاق بعض اولي السوابق واهل القدوة منهم اذا انتشروا في الاقطار فمنع قريشا والمهاجرين وذوى السوابق من الخروج من المدينة ونهاهم عن مخالطة الناس ورأى ان الفتوح والغنائم قد ابطرت نفوس المسلمين ومتى بعد الرؤوس والكبراء منهم عن دار الهجرة وخالطهم الناس في البلاد البعيدة لم يأمن ان يحسنوا لهم الوثوب وطلب الأمرة ومفارقة الجماعة فينحل حينذاك نظام الألفة . وقدكان رأيه هذا عين الصواب ولكن لما ولي عثمان تخلى عن هذا التدبير الحكيم وخلى عنهم فانتشروا في البلاد وانقطع الناس اليهم وكان عثمان ضعيفاً في رأيه هينا لينا على اهله وذوي قرباه واكثر هؤلاء بعيد عن الدين وهديه ، وقد كان اوصاهم كبيرهم وشيخهم ابو سفيان لما ولي عثمان دونكم يا بني اميه تلقفوها تلقف الكرة فو الذى يحلف به ابو سفيان لا جنة ولا نار

وقد ظهرت في عثمان فراسة عمر فاوطأ بنى اميه رقاب الناس وولاهم الولايات واقطعهم القطائع واغدق عليهم اموال الامة على غير فضل ولا سابقة والا فما باله يقطع مروان بن الحكم فدكا وقد منعها غيره حتى عن بنت رسول الله ويعطيه خمس الغنائم يوم فتحت ارمينية لا يشرك معه احداً من المسلمين ويعطي اباه الحكم مائة الف درهم .

ومروان وابوه الحكم طريدا رسول الله نفاهما وسيرهما ولم يردهما ابو بكر وعمر حتى اذا ولي عثمان ردهما واغدق عليهما النعم

وكان عبد الله بن سعد بن ابي سرح في زمن رسول الله لحق بالمشركين مرتداً واتسع صدره للكفر بالنبي ورسالته فانزل الله فيه ولكن من شرح بالكفر صدراً فعليهم غضب من الله ولهم عذاب اليم . واكن عثمان وهو اخوه من الرضاعة قربه وولاه مصر وبلاد افريقية واعطاه جميع ما افاء الله على المسلمين في فتح افريقية من الغنائم من طرابلس الى طنجة

ثم كان ولاته من هذا الرهط يظهرون الجور وبعضهم يتهتك فيخرج مخموراً ويصلي الصبح بالناس ثماني ركعات ويقول لهم هل ازيدكم ثم يقيء الخمر على المنبر . وبعضهم كان يقول انما هذا الفيء بستان قريش الى امثال ذلك حتى ضج المسلمون وطلبوا وضع حد لهذه المنكرات فلم يبلغوا ما ارادوا فاجترأوا على الخليفة وقتلوه في بيته . بمثل هذه الاسباب والمسببات ذهبت هيبة الخلافة من نفوس القوم ؛ وكانت الشورى قبل ذلك اهلت قوما للخلافة لم يكن لهم بها قبلها مطمع وزاد الطين بلة ان تحركت لها اطماع الامويين وعلى رأسهم معاوية بن ابي سفيان

ان معاوية ذا النفس الطامحة كان يرى الخلافة بعيدة عنه لأنه ليس بذي سابقة ولا أثر صالح في الدين وانما جرأه على ذلك ما رأى من اضطراب الامر على عثمان فتباطأ عن نصرته ليتخذ قتله ذريعة

لنيل مأربه . وقد ذكر الطبري ان معاوية ما زال يطمع في الخلافة بعد مقدمه على عثمان حين جمع عماله فاجتمعوا فى الموسم ثم ارتحل الى المدينة ومعه معاوية وحاديه يرتجز

ان الامير بعده علي وفي الزبير خلف رضي
وطلحة الخير لها ولي

فيقول كعب (ولعله كعب بن مالك) للحادي كذبت صاحب البغلة الشهباء الامير بعده ويشير الى معاوية . . فوقعت فى نفس معاوية

﴿ ٧ ﴾ لما ولي الخلافة ابو بكر ثم عمر لم يكن لها مزاحم فيها غير علي ولكن علياً في دينه وشدة حرصه على جمع كلمة المسلمين سلم الامر وسكت عن حقه . اما هو فانه لما ولي الخلافة كان المزاحمون له عليها اهل الشورى كالزبير وطلحة ونجم قرن معاوية بعد فتنة عثمان

ولي علي الخلافة في هذا البحر الهائج المضطرب بالفتنة العمياء والمسلمون في كل البلاد بعد فتنة عثمان ثلاث فرق فرقة تقول قتل عثمان مظلوما ويجب قتل قاتله وفرقة تقول بعكس ذلك وفرقة لا تقول هذا ولا هذا وينتظرون ماذا يكون وكان هوى الامصار مختلفا فهوى الشام اموي وهوى الكوفة زبيري وهوى البصرة مع طلحة وكلهم طامح طامع للخلافة محارب لخلافة علي بكلما اوتيه من قوة وعلي يدير سفينة الخلافة في هذا البحر المضطرب على اختلاف الأهواء واضطرام الحزبية المتضاربة في نفوس رعيته يسألونه من قتل عثمان

فيجيب قتله الله وانا معه فيفسرها العثمانيون قتله الله ويقتلني معه ويفسرها معاكسوهم قتله الله وقتلته معه

﴿ ٨ ﴾ وليس لقائل ان يقول « وهل يكون من حسن السياسة ان يقبل علي هذا الامر في هذه الفتن التي كانت كقطع النهار المظلم لأن علياً انما قبل هذا الامر مكرها ليحفظ امر الامة عامة من الشتات وقد جاء في تاريخ الطبري ما نصه . وكتب الي السري عن شعيب عن سيف عن محمد وطلحة قالا فقالوا (اي اهل مصر وغيرهم من اهل الامصار) لهم دونكم يا اهل المدينة فقد اجلناكم يومين فو الله لكن لئن لم تفرغوا لنقتلن غداً علياً وطلحة والزبير وانا ساكثيراً فغشي الناس علياً فقالوا نبايعك فقد ترى ما نزل بالاسلام وما ابتلينا به من ذوي القربى فقال علي دعوني فالتمسوا غيري فانا مستقبلون امراً له وجوه وله الوان لا تقوم له القلوب ولا تثبت عليه العقول فقالوا ننشدك الله ألا ترى ما نرى ؟ ألا ترى الاسلام ؟ ألا ترى الفتنة ؟ ألا تخاف الله ؟ فقال قد اجبتكم لما ارى واعلموا انني ان اجبتكم ركبت بكم ما اعلم وان تركتموني فانما انا كاحدكم ألا اني اسمعكم واطوعكم لمن وليتموه امركم

﴿ ٩ ﴾ اما حديث المغيره بن شعبة ونصحه له في تولية معاوية وهو الحديث الذى ادخل الشبهة في النفوس بعدم مقدرته السياسية فها هوذا عن الطبري ملخصا « خرج علي في اليوم الثالث من خلافته علي الناس فقال ايها الناس اخرجوا عنكم الاعراب وقال يا معشر

الاعراب الحقوا بمياهكم فابت السبأئيه واطاعهم الاعراب ودخل علي بيته ودخل عليه طلحة والزبير وعدة من اصحاب النبي (ص) فقال دونكم ثأركم فاقتلوه فقالوا عشوا عن ذلك . . . وسمع المغيرة بذلك المجلس فجاء حتى دخل عليه فقال ان لك حق الطاعة والنصيحة وان الرأي اليوم تحرز به ما في غد . . اقرر معاوية على عمله وابن عامر على عمله واقرر العمال على اعمالهم حتى اذا اتتك طاعتهم وبيعة الجنود استبدلت او تركت قال حتى انظر فخرج من عنده وعاد اليه من الغد فقال اني اشرت عليك بالأمس برأي وان الرأي ان تعاجلهم بالنزوع فيعرف السامع من غيره ويستقبل امرك ثم خرج . . . وقال المغيرة نصحته والله فلما لم يقبل غششته وخرج حتى لحق بمكة

فما الذي حدا بالمغيرة على النصح لعلي ولم يكن في يوم من الايام حزبا له ولا من محبيه بل كان من الذين لم يبايعوه كما جاء في الطبري وكان فيما يقال من المتآمرين على حرمان الهاشميين من الخلافة حتى لا تجتمع النبوة والخلافة في بيت واحدة ؟

ان علياً يعلم كل ذلك ويعلم ما تنطوي عليه صدور القوم من الضغن والحقد والاحنة والبغض ومن مشهور شعره

تلكم قريش تمنائي لتقتلني ولا وربك ما بروا ولاظفروا
فان بقيت فرهن ذمتي لهم بذات روقين لا يعفو لها أثر

ولا سيما معاوية الذي ورث العداوة عن ابيه وجده وابي جده من زمن عبد شمس وهاشم الى زمن علي ومعاوية

ويعلم انه ان اقر معاوية وابقى عمال عثمان على اعمالهم كان ذلك عونا لهم على زيادة الفتنة والاضطراب ويكون لهم متسع من الوقت ليثبتوا سمومهم في اعمالهم ضد الهاشميين او بالاحرى ضد علي وخلافته لنقض بيعته وبدلا من اخذ الطاعة له من الجند والناس على زعم المغيرة كانوا يأخذون في نكث العهد ونقض البيعة والتأليب عليه بحجة دم عثمان كما فعلوا بعد ذلك ولا سيما وان عمال الامويين لم يكونوا مطمئنين له في دوام ولايتهم لأن الامام لا يثق بهم وهم يعلمون ذلك . وفي حديث طلحة والزبير وطلبهم الخروج الى البصرة والكوفة محل العصبية لهما ليؤلفا حيث يطرد الاعراب من المدينة وعدم الاذن لهم بذلك ما يدل على حذره من تأليبهم الناس عليه وقد كان لما طلبا اليه بعد ان يئسا من حصول الدنيا على يديه وبعد ان عاتباه عتابا لاذعا مراً سألهما مادا يريدان بهذا العتاب فطلبا ان يولي احدهما الكوفة والآخر البصرة فقال لرسولهما لاها الله اذن يحلم الأديم ويستشري الفساد وتنتقض علي البلاد من قطارها والله اني لا آمنهما وهما عندي في المدينة فكيف آمنهما وقد وليتهما العراقين ﴿ جاء هذا في الطبري ﴾ فاذا كان لا يأمن طلحة والزبير وهما اقل شرءا له من معاوية الذي وتره علي يوم بدر باخيه حنظلة وخاله الوليد وشرك في دم جده عتبة او عمه شيبة وقتل كثيراً من اعيان عبد شمس في سبيل الدعوة الاسلامية ومحاربة الوثنية فكيف يأمن لمعاوية

ان معاوية ما كان ينتظر ان ينصر على علي وان يأخذ الامر من

يده حربا لأن جمهور الانصار والخيرة من اصحاب رسول الله (ص) كانوا من حزبه وانصاره وانما كان معاوية يتربص بعلي الدوائر رفضاء الله ولولا ما اخباه ابن ملجم من الفتك به وهو فى محرابه وما جري به القدر من ان ينجو معاوية ويقتل علي في مؤامرة الخوارج لولا ذلك لكان لمعاوية يوم ابوم بعد ان جمع علي البعوث وجيش الجيوش للرجعة الى صفين

ألم يعلم الجاني على الليث انه
اتى الليث في محرابه وهو ساجد
ولو جاءه من حيث ما الليث مبصر
لخانته من حمل الحسام السواعد

النبطية جبل عامل — احمد رضا

الليلة السابعة

خلود الامام — لمعالي الحاج عبد المحسن شلاش

علي مع الخلفاء — الشيخ محمد رضا الظفر

١٧٦

خلود الامام

معالي الحاج عبد المحسن من مفكري العراق البارزين الذين ساهموا في النهضة العربية وانشاء الدولة العراقية قبل الثورة وبعدها وممن شارك في مجالس تأسيسها وساعد في نهضتها الحديثة وهو في المنتدى رئيس هيئة المدرسة الابتدائية وعضو شرف في لجنة المجمع

سادتي الافاضل

لقد كان لقرار المجمع الديني الثقافي في اعداد المحاضرات عن الامام علي بن ابي طالب عليه السلام في آخر اسبوع من شهر رمضان المبارك في هذا العام احسن وقع في النفوس وافضل عمل للعبادة في ليالي القدر منه . اضافة الى انها خير طريقة لنشر الثقافة العامة مما يأتي فيها من ابحاث قيمة عن آل البيت وذكر فضائلهم ومعالي اخلاقهم ، راجياً من المولى تعالى ان يوفق العاملين لرفع مستوى الثقافة الدينية بانمى الوسائل من الذكر الحكيم وحكمة

العترة الهادية وخاصة في مدينة ضمت جثمان بطل العروبة والاسلام كتاب الله الناطق وباب مدينة العلم ابي الحسن علي عليه السلام

ايها السادة ! لا غرابة اذا تحيرت العقول في الوصول الى كنه معنى ذاته في الوجود ؛ كيف لا وقد قال فيه صلى الله عليه واله وسلم ﴿ يا علي ما عرف الله الا انا وانت وما عرفني الا الله وانت وماعرفك الا الله وانا ﴾

فكم تضاربت في أمامنا آراء الباحثين واطنبت في حياته اقلام الكتاب والمؤلفين حتى قال بعضهم .

أيا علة الايجاد حاربك الفكر ... وفي كنه معنى ذاتك التبس الامر
وقد قال قوم فيك والستر دونهم ... بانك رب كيف لو كشف الستر

وقد بالغ بعضهم بقوله :

ان قلت ذا بشر فالعقل يمنعني
واخشى الله من قولي هو الله

ايها الحضار الكرام عندما تناولت قلمي ملبياً دعوة المجمع الثقافي الديني لأكتب كلمة لهذا الاسبوع ، اعترتني الحيرة واشتد بي القلق وادى بي الحال الى التردد في الاقدام او تقديم الاعتذار عما يكتنفني فيه قلق التفكير لخطورة الموضوع والخشية من التقصير ، لقصر باعي في هذا الميدان العظيم ، وبعد الاخذ والرد فضلت الاشتراك في هذه العبادة بالميسور لي مهما كلفني الامر مستعيناً بالله ومستمداً من روحانية الامام (ع)

وبعد التفكير فقد اوحت لي قريحتي ان ابحث في هذه المناسبة عن معجزة خلود الامام . اولا في مرقده بعد الشهادة . وثانيا في مبتكراته العلمية والفنية . وثالثا في فصاحته وبلاغته التي لا نظير لها ولا مثيل والله الموفق للصواب

خلوده في مرقده

ايها السادة ! اذا ما تأملنا ملياً في قضية خلود الامام وعظيم شأنه في مرقده بعد الشهادة تتضح لنا حكمة قول القائل ﴿ ان الحقيقة لا تهضم واذا هضمت استشأرت لنفسها فاستنارت ﴾

وهذا الخلود دليل واضح على سمو درجة تاريخ حياته الحافل بجلائل الاعمال لخير الانسانية في الدارين الى ابعد مدى تتصوره العقول من علو شأنه في شارة الخلود الى هذه الساعة التي نحن فيها بعد مرور اربعة عشر قرنا و الخ وهذا ضريحه عليه السلام يسطع نوراً وبهاء وهيبة وجلالا من القوة الالهية وتتجلى فيه حكمة قوله تعالى ﴿ انا نحن نزلنا الذكر وانا له لحافظون ﴾

ولا مشاحة في القول بان الامام آية من آياته تعالى ومعجزة من معجزاته في خلقه . بلغ ما نزل على الرسول وجاهد في سبيل الذكر الحكيم ، حتى بلغ الشهادة الحقة والمقام الرفيع في الحياة الابدية

انظروا ايها السادة الى ما في ضريحه من الهيبة والوقار ، وعظمة هذه المعمارات الفخمة والقبة الرفيعة والمآذن الشامخة الزاهيات

كلها بالذهب ، والبنايات الغالية بالفنون الجميلة ، والى ما فيها من المعلقات الثمينة والاحجار الكريمة والآثار الخالدة التى تسابقت الى انشائها وتقديمها ملوك الاسلام وسلاطينهم من الشرق والغرب ، على اختلاف لغاتهم جيلا بعد جيل وقرنا بعد قرن ، حيث كانت ولا تزال روحانية مرقده (ع) تجذب قلوب الناس من ملوك وسوقة ومن مختلف الامم والعناصر الى التمسك بتربته والتبرك بضريحه

وكم اثرت هذه الروحانية الجذابة في شعور الكتاب والادباء والشعراء ، فاصبحت مرسحاً واسعا لآدابهم العالية ومباراتهم الشعرية منهم المرحوم عبد الباقي العمري في قصيدته المشهورة عن قبة الامام عليه السلام التي يقول فيها

قبة المرتضى علي تعالى ... شأوها عن موازن ومثيل
هي باء مقلوبة فوق تلك الـ ... ـنقطة المستحيلة التأويل

ومنهم المرحوم العلامة ابن ابي الحديد في قصيدته العينية المشهورة التي يقول فيها

يا برق ان جئت الغري فقل له
أتراك تعلم من بارضك مودع

الى ان يقول

بل فيك نور الله جل جلاله ... لذوي البصائر يستشف ويلمع
هذا ضمير العالم الموجود عن ... عدم وسر وجوده المستودع

ويعلم الجميع ان الامام عليه السلام ضاجع قبر نوح عليه السلام

ورفات آدم عليه السلام الذي نقل من جبال سرنديب في عهد نوح كما روي ﴿ راجعوا الاكتشافات الجيلوجية الحديثة اقوال علماء الري في العراق واقوالهم فى ان الطوفان في الفرات الاوسط وانه بدأ من غرب لواء الناصرية﴾ كما سيأتى فى الفصل الثاني من محاضرتنا هذه

كما انه جاور قبر هود وصالح عليهما السلام في وادي الغري من قادسية الخليل التى امتلكها قبل ذهابه الى القدس لأن تكون مشهداً لشهداء ذريته ﴿ راجعوا معجم البلدان لياقوت الحموي في بانقيا ﴾

وحقا اذا اصبحت هذه البقعة المباركة رابعة قواعد الاديان السماوية في الجزيرة العربية ﴿ مكة والمدينة وبيت المقدس﴾ المتجلية فيها عظمة يعسوب الدين وامير المؤمنين حيث خلد بخلوده ذكر الانبياء من اولي العزم وآثارهم النيرة قبله . وهذه احدى معاجز خلوده في قبره

ومن شارات خلوده اللامعة ان اضحى مرقده الشريف معهداً للعلم والعرفان وملجأ لرواد الفضيلة ومعالي الاخلاق ، وجامعة بوجه خاص لطلاب الفقه الاسلامي واصوله على ضوء محكم آي الذكر الحكيم والحديث النبوى الشريف ، اضافة الى انه اصبح مدرسة عالية للغة العربية وآدابها في كل عصر ، كما يلتحيء الى ضريحه عامة الناس من الاحياء وتنقل الى تربته رفات الاموات من كل فج تيمناً ببقعته وتحصنا بجواره كما قال العمري

هي كهف النجاة طوز المناجات تمال المهمات مأوى الدخيل

ومما هو جدير بالذكر والاعجاب ، يظهر من عظمة خلود الامام في انواع هدايا الملوك والسلاطين والوزراء وغيرهم المعلقة والموعة في خزائن ومستودعات الروضة المطهرة من نفائس ثمينة واحجار كريمة قيمة جاءت بالتدريج خلال تسعة قرون خلت للاسلام بين عهد الدولة البويهية وآخرعهد الدولتين العثمانية والقاجارية ثم الى زماننا هذا.

واهمها تيجان الملوك واسلحتهم الخاصة ومعلقات غرفهم المخصوصة بما فيها من أوان للتعطير ومجامر واوسمة ملوكية كلها مرصعة بالاحجار الكريمة ومصنوعة من الذهب الخالص بشكل يثير الدهشة ويدعو الى التعمق في التفكير في وضعها وشكلها وقيمة قديمها من الناحية المعنوية فضلا عن قيمتها المادية لما فيها من تواقيع للسلاطين والملوك على مختلف لغاتهم وعناصرهم ولما كتب عليها من عبارات جذابة يعترفون فيها بالرق والعبودية تنازلا لسلطان الامام عليه السلام وخضوعا لعظمته وجلاله مما يؤدي الى الانصراف عن تثمين تلك الهدايا من ناحيتها المادية والذهاب الى نواحيها المعنوية وقيمتها الاثرية بما فيها من دروس عالية وعبر خالدة وشهادات قيمة ووثائق قاطعة وبراهين واضحة ترمز الى معنى سام في قدسية جاذبية الامام وروحانيته الفذة ونشير الى ماضي الامة العربية الاسلامية في اقدس تربة من بلادها اذ لم يكن الامام مجرداً للعبادة والروحانية المحضة في حياته وانما كان سلطانا حاكما وسيفاً صارما لا يقل سلطان هؤلاء الملوك عن سلطانه وسيوفهم لا تقصر عن سيفه الذي كان

يرعف دما

ايها السادة ان هـذا امر يحير العقول فيؤدى بنا الى القطع بحكم الدليل الواضح بان هذه الوثائق القيمة في وضعها الراهن لم تكن ولم تتكون الا بدافع القوة الربانية وناموس الحق في القدرة الابدية وانها معجزة لامعة وخلود واضح في ان الامام عليه السلام هو سلطان الحق والعدل في عالم الانسانية والملك الفذ للحكم الصالح في المجتمعات البشرية ، وان احكامه ونظامه وتعاليمه كانت ولا تزال اضمن للعدل والسلام وادعى لمرضات الخالق والمخلوق . ﴿ ذلك تقدير العزيز العليم ﴾ وانه عليه السلام مصداق للآية الكريمة في خلوده هذا ﴿ تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لا يريدون علواً في الارض ولا فساداً والعاقبة للمتقين ﴾

الفصل الثـــاني

٢ — خلود الامام في ابتكاراته العلمية

لا تنحصر ابتكارات الامام العلمية في ناحية واحدة من نواحي العلوم والفنون على ما يظهر ، وانما يستفاد من نهج البلاغـة وغيره كثير من ذلك ، مما ورد في خطبه ومكاتباته وارشاداته من كلمات وجيزة واستعارات خطيرة في بابها ، تكشف عن كثير من المخترعات والاكتشافات الحديثة .

ولا شك ان جوهر هذه الابتكارات مأخوذة من ينبوع القرآن

الكريم الذى لا يغادر كبيرة ولا صغيرة الا احصاها

لقد ورد — ايها السادة — في كلام الامام عليه السلام بكل مناسبة شيئ موجز وباعجاز ؛ يكشف على علم مبتكر وحقيقة من الحقائق في كل باب من ابواب العلوم والفنون ، لانه عليه السلام كان يستعمل غزارة علمه في الامور ، وينبه عليها باختصار ، ارشاداً وتنبيهاً ، او اعجابا في الكون والكائنات ، كما ابتكر ﴿ علم النحو ﴾ بايجاز واختصار ، عندما رأى الحاجة ماسة لضبط اللغة العربية بقواعد علمية ثابتة ، فارشد ونبه ابا الاسود الدؤلي في الكوفة ، على اصول هذا العلم ، عندما شكا اليه بعض الشذوذ في اللغة ، واختصر له الجواب ؛ وقال له : هكذا انح يا ابا الاسود . ثم ضرب له امثلة وقواعد ثابتة لا تحيد عن موقعها ؛ ولا تغني مكانتها العلمية في عالم الاختراعات والفنون في كل حين . وصارت بعد ذلك علما واسعاً مستقلا بذاته اذ فتحت لعلماء اللغة وذوي الاختصاص ابوابا واسعة للبحث والتأليف

وبهذه المناسبة رأيت ان اشير الى ما كان يدور في مخيلتي من معان ومغاز كثيرة فى كلمات الامام من هذا القبيل وكنت ادرك ان فيها اسراراً علمية وفنية على الأجمال ، ولكني اجهل دقائقها رغم مطالعة التفاسير والشروح الواردة عنها باقتضاب لقلة توغل اولئك المفسرين فى هذه الشؤون وعدم احتياجهم لاكمل النحو الذى صرنا نفهمه بكل وضوح من تآليفهم ومروحهم العلمية بدافع

الحاجة التى مست لاتقان اللغة العربية وآدابها . ولو أراد ذووا الاختصاص في بقية العلوم والفنون ان يوجهوا افكارهم ويأخذوا احتياجاتهم من شرح ابتكارات الامام العلمية وابداعه في كل فن ، كما صنعوا في علم النحو ، لانكشفت لنا حقائق جديدة لم تكن بالحسبان ، كشفها العصر الحاضر الذى تقدمت فيه العلوم والفنون وشاعت فيه الاختراعات ، فاوضح الامر ما ورد في نهج البلاغة وغيره من كنوز اللغة العربية ، من حقائق وفنون وقواعد وامثلة علمية وفنية نادرة في زمانها تستحق التعمق في مداليلها ومفاهيمها التي لا يكشفها الا ذووا الاختصاص كل في اختصاصه : كعلم الطبيعة والصحة والميكانيك العملي والعلمي عن القوة الانتبازية الطاردة من علم الفيزياء والاثار القديمة ، كما تعرض عليه السلام الى الناحية العمرانية والمالية والاقتصادية والتجارية ، برية كانت او بحرية . . . الى غير ذلك من العلوم والفنون الراقية في مضامير الحياة الحديثة مما لا يسع المقام الى المهم منها بهذه الفرصة . كيف لا وقد قال ع علمني النبي ص الف باب من العلم لم ينفتح لي من كل باب الف باب ولهذا وجدت ان اتقدم الى حضراتكم بنماذج مما شرحه بعض ذوي الاختصاص ، جواباً لأسئلتي التى وجهتها اليهم عن بعض المواضيع التى إردت التأكد والوقوف على حقائقها بصورة فنية ، لكشف مقاصد الامام عليه السلام من تلك الاستعارات والامثلة المالية في مكاتباته وخطبه وسائر اقواله . تنويراً للافكار راجياً ان تكون

بادرة عهد جديد لشرح كلام الامام (ع) من الطرق العلمية والفنية واليكم منها ما يلي

اولا — كتاب الدكتور السيد احمد سوسة المهندس الاخصائي في علم الري الذى له مؤلفات وبحوث علمية نفيسة في بابها عن تطور الري في العراق وتاريخه قبل الطوفان وبعده ليتسنى لنا الوقوف على مغزى وصية الامام لأبنه الحسن حول دفنه في الغري بجوار نوح عليه السلام كما صرح بقوله فستجد قبراً محفوراً ولحداً منقوراً مكتوبا عليه هذا ما ادخره نوح النبي والسر في تعيين هذا المكان الذى حقق لنا الفن الحديث بانه اعلى محل عن سطح البحر في منطقة الطوفان . كما اوضح لنا ايضا مواقع الطوفان وقرب كون آثار نوح عليه السلام في هذه المنطقة مما جعلنا نقف معجبين امام غزارة علم الامام في هذا الفن

سيدي الكريم معالي الحاج محسن شلاش

تناولت كتابكم وفهمت مغزى سؤالكم عن الطوفان ومواضعه حسب الاكتشافات الحديثة كما وانى شكرتكم شكراً جزيلا عما نبهتموني اليه — اولا — كلمات الامام علي بن ابي طالب ﴿ع﴾ عن موضع قبر نوح (ع) في وصيته لابنه الحسن «ع» وثانيا اثار مصلى نوح في جامع الكوفة البارزة بالتواتر من صدر الاسلام وثالثا — عن كلمة ﴿النواويس﴾ الواردة في كلام الحسين ﴿ع﴾ في المدينة وهي قوله ﴿وكأني بأشلائي هذه تقطعها عسلان الفلوات

بين النواويس وكربلا ﴾ وحيث انه اصبح لهذه الكلمات القيمة اكبر شهادة اثرية كنت وامثالي من الباحثين في هـذا الموضوع من اهل الفن بحاجة اليها لكشف الحقائق الراهنة عن تطور الري فى العراق قبل الطوفان وبعده

ولا أراني بحاجة الى البيان بان الادب العربي غزير بمادته رفيع بثروته من الاقوال والحكم ومن اهم ما سجل في اللغة العربية بعد حديث النبي العربي الاعظم « صلعم » ما جادت به قريحة الامام علي ابن ابي طالب ﴿ ع ﴾ من حكم وعلوم وفنون ودروس تصح ان تكون دستوراً فى حياة الافراد والامم على السواء

ويعجبني من معاليكم اهتمامكم بمثل هذه الآثار العربية الخالدة والتنقيب فيها حسب مقتضيات الفن وهي على قدمها تمثل حضارة قائمة بذاتها قد يجد العالم الجديد في دساتيرها دروسا ثمينة وعبراً قيمة يستنير بها في ظلمات حياته الحديثة

واني اعتبر ان اقدامكم هـذا للسؤال من ذوي الاختصاص لاستجلاء ما تتضمنه حكم الامام ﴿ ع ﴾ من معاني عميقة ودررعلمية في مطلق الاشياء لهو اتجاه مبتكر في دراسة الحقائق العلمية التى انطوت عليها تلك الاقوال البليغة ، وسيسجل لكم التاريخ اكبر خدمة في مضمار الحياة الحديثة واني افتخر بان اكون احد المسجلين لهذا الفضل وفي الحقيقة ان الآراء التي ادونها في عجالتي هذه انما هي من وحي تفكيركم الثاقب الذي قادني الى التغلغل في نقاط تاريخية

علمية يحتاج المحقق الى كثير من التفكير والجرأة قبل التطرق الى البحث فيها .

وعليه اني اجيب على سؤالكم عن موضع الطوفان وعلاقته في الكوفة والنجف فاقول : اني استخلص من تتبعاتي الاستقرائية عن اهل الفن والاختصاص انه كان في عهد ما قبل الطوفان اربع مدن مهمة وذلك قبل الالف الثالث قبل الميلاد وهي سيبار وكيش وشورباك واريدو . اما الفترة التي احدثها الطوفان فقد اظهرت لنا التنقيبات العلمية والبحوث الفنية آثاراً عن الطوفان في وقت يفصل بين عهد جمدة نصر (اصطلاح علمي لأسم مدينة على نهر الفرات القديم الذى كان يجري في اتجاه نهر كوتي من سنة ٣٥٠٠ ق . م . الى سنة ٣٢٠٠ ق . م) وعصر فجر السلالات ﴿ عصر سلالة الملوك بين سنة ٣٠٠٠ ق . م . و ٢٥٥٠ ق . م ﴾ . وقد وجدت آثار الطوفان حسب الاكتشافات الفنية في كثير من المدن القديمة الاخرى مثل اور وارخ وغيرهما . وعلى هذا الاساس عين الآثاريون التاريخ الذى حدث فيه الطوفان في حوالي ﴿ ٣٠٠٠ سنة ق م ﴾ . ويعتقد السير ويليم ويلكوكس بان فلك النوح ﴿ السفينة ﴾ لا بد وانها اقلعت من احدى مدن الفرات القديمة وسارت الى مرتفعات الجنوب اذ قال : ﴿ ظهرت فلك نوح عائمة على سطح الماء اول مرة في احدى مدن الفرات الادنى فسارت الى جهة الجنوب مدفوعة بقوة تيار الماء وقوة الرياح الشمالية والشمالية الغربية . ولما كانت مياه دجلة القديم تاتي من

الشمال مدفوعه بقوة التيار فتتلقي بمياه الفرات في اور الكلدية ﴿ المقير ﴾ فلا بد ان يكون التيار قد جرف الفلك بعد ان وصلت الى هذه المنطقة فاندفعت الى المنطقة الصحراوية الواقعة جنوب مدينة اور ﴿الصحراء الواقعة في الجانب الأيمن من الفرات ﴾ ونستخلص من كلام السير وليم ولكوكس بانه مشخص منطقة الطوفان بمجموعها في الفرات الاوسط وان السفينة نجت في مرتفعات الجنوب الصحراوية اي الجانب الايمن من الفرات امر لا ريب فيه وانما لم يكن في وسعنا ان نعين بالضبط على اى مرتفع رست على ان القرآن الكريم ينص في ﴿ واستوت على الجودي ﴾ وهذا مما يؤيد بانها رست على مرتفع من صحراء جنوب الفرات ومن تلك المرتفعات الواقعة على الحدود الصحراوية غير ان تشخيص المحل لا بد وانه ينحصر بين اثنين ان لم يكن العثور على معلومات اخرى فاما ان يكون في سلسلة مرتفعات النجف التى تعلو عن سطح البحر ما يقارب الخمسة والستين متراً لأن ارتفاع سطح الماء عن البحر في نهر الفرات يبلغ في اعلى موسم الفيضان الى خمسين متراً في مدينة الرمادي او انها توجهت الى مرتفع آخر من ذبذبة هذه الارتفاعات الممتدة في قلب الصحراء من ايمن الفرات من الشرق الى الغرب

والشيء الذى حدث اخيراً في تفكيري الخاص هو مما استخلصته من كلام السير وليم ولكوكس ومما ارشدتموني اليه فيما تقدم من كلام للحسين « ع » الى قوله ﴿ بين النواويس وكربلا ﴾ اذ ان

السير وليم ولكوكس قال في بحوثه — وقد لاحظت عندما كنت أتتبع في اور الكلدية ان العرب يطلقون على المرتفعات الواقعة في جنوب الفرات كلمة ﴿ نواس ﴾ في حين ان كلمة نوح في اللغة العربية تطابق كلمة ﴿ نووح ﴾ العبرية وعليه فان كلام الحسين ع عن النواويس ووجود مرقده في محل الواقعة اصبح دليلا واضحا على ان المكان الذى رست فيه سفينة نوح يقع في النواويس جمع « نواس » العربية و « نوح » « العبرية » لان سلسلة المرتفعات الصحراوية الواقعة جنوب الفرات من الجانب الأيمن تحيط اطراف كربلا والنجف وتمتد ذبذبتها في الجانب الايمن من الغرب حتى الفرات الادنى اما مبدء الطوفان الذى استولى على منطقة قوم نوح يظهر لنا بانه يبدأ من اور « تل المقير » غربي التاصرية حتى غمر جميع انحاء المنطقة الآ نفة الذكر لأن التنقيبات الاثرية والاستقرآت العلمية حققت في ان البحر كان يصل الى قرب اور في ذلك العهد وعلى كل فان موضع الطوفان هو في الفرات الاوسط الحالي والذى كان يعتبر ذلك في القدم جانباً مهما من الفرات الادنى باعتبار مدينة اور « المقير » ساحلا بحريا وعليه فان المعلومات التاريخية التى اشرتم اليها مما ورد عن أئمة المسلمين بالتواتر جيلا بعد جيل في ان محل جامع الكوفة كان مسكناً لنوح وفيه رمز مصلاه وهذا قريب جداً الى العقل والمنطق ويؤيد ذلك وصية الامام ع لابنه الحسن ع في نقل جثمانه الى القرب من قبر نوح في مرتفعات النجف دليلا واضحاً يحمل على الاعتقاد

في صحة هذه الاثار التي ايدها الامام ع في اقواله وآرائه التى قربت صحة آراء الباحثين من اهل الفن الى الامر الواقع ، وتعتبر آراء الامام ع ومعلوماته الاثرية والجغرافية والطغراقية والتاريخية ابداعا مهما فى هذا الموضوع الخطير وفي ذلك الزمن الذي لم يكن الفن متقدما للبحث والتنقيب كما هواليوم اذان كلما ورد عن تفكيره بالايجاز فهو اعجاز وعلم وفن وبرهان يتفق على حقائق علميه وفنيه راهنه بحكم المنطق »

ثانياً — لقد ورد في كلام الامام « ع » قوله ﴿وكان من اقتدار جبروته وبديع لطائف صنعه ان جعل من ماء البحر الزاخر المتراكم المتقاصف يبسا جامداً ثم فطر منه اطباقا وجعلها سبع سماوات استمسكت بامره . وقامت على حده ، وأرسى ارضا يحملها الاخضر المتعجر والقمقام ﴾ ولما كانت هذه الجمل البليغه على ايجازها واشتمالها على اسمى درجه الفلسفه فانها تتجلى فيها حقائق علميه وفنيه . قد تنجر الى بحوث « جيلوجيه » والى علم « الجاذبيه » والضغط الذى اخذ يبحث فيها علماء العصر الحاضر ولهذا فقدوجهت سؤالي عنها الى « الدكتور الاخصائي احمد سوسه ايضا » فاجاب فيما يلي : —

معالي الحاج عبد المحسن شلاش

بعدالتحيه : جوابا على سؤالكم الذي طلبتم فيه ان اشرح من كلام الامام علي ع قوله : وكان من اقتدار جبروته ان جعل من ماء البحر

المتقاصف الى اخر كلامه حتى استمسكت بامره وقامت على حده وارسى ارضا يحملها الاخضر المتعجر والفمقام »

لست مغالياً اذا قلت بان في هذا الكلام من الاعجاز النـادر الذى ينطبق على حقائق علميه وفلسفيه عاليه ، في كيف تكونت الارض والسماوات وكيف استمسكت وكيف تتكون اراضي الدلتا من ماء البحر من وقت لاخر مما يؤدى الى بحوث كثيرة وفي نواح متعددة يطول شرحها ولكنني وجدت ان الشئ الذي يجدر ذكره مما جادت به قريحه الامام ع في هذا الكلام من النواحي العلميه الجيلوجيه هذه المناسبه على سبيل الاختصار عن كيفيه تكوين اراضي العراق من ماء البحر

ان الابحاث الخاصه بتاريخ العراق القديم تدل على ان خليج فارس كان يغمر ارض العراق بمياهه ، وربما اتصل بساحل البحر الابيض المتوسط في بعض الادوار الجيلوجيه وبعد تكون الجبال في كل من ايران وكردستان وارمينيه من البحر ارتفعت بطن الجزيرة وبادية الشام ، واخذ ساحل الخليج ينسحب الى الجنوب بمرور الاعوام تاركا وراءه اراضي جديدة

ويدل وضع الفرات في جوار مدينه بغداد حيث يقرب الفرات من دجلة كل القرب على ان النهرين ربما كانا يلتقيـان في جوار تلك المدينه ، وذلك بعد العهد الثلجي ، اى في عصور ما قبل التاريخ ، حيث كانا يصبان مياههما في خليج فارس في نقطه غير بعيدة من

جنوب بغداد . وهذه المياه كانت تحمل كميات وافرة من الغرين تملأ الحد الشمالي من الخليج بمادتها الغرينية هذه ، ذلك مما سبب انسحاب الخليج تدريجياً نحو الجنوب ، فافترق النهران حينئذ وغير اتجاههما وكونا ارض الدلتا ، وما نشاهده اليوم على ضفاف النهرين من المستنقعات والبحيرات العديدة والاراضي المنخفضة التي تكتنف القسم الاسفل من العراق لهو اوضح دليل على ان ارض الدلتا تكونت بنتيجة انسحاب البحر وتراكم الرسوب والاتربة فيها وعلى هذا الاساس نرى فريقا من المؤرخين قد اعتبروا ان ارض العراق هي منحة الرافدين

وعليه ان كلمات الامام ع الواردة في هذا الصدد يتجلى فيها وصف القدرة الالهية ببلاغة ما بعدها بلاغة وهي القدرة التي تجعل من البحر معمورة بشرية بحكم النظام الاوتوماتيكي البديع الذي وضعته يد القدرة ويا حبذا لو كانت امثال هذه الاقوال البديعة المبتكرة في طليعة البحوث العلمية الحديثة في هذا العصر لكشف الستار عما تتضمنه من مواد علمية غزيرة . هذا وتفضلوا بقبول فائق الاحترام والتقدير من المخلص

احمد سوسه

ثالثا — ورد عن الامام عليه السلام كلام في علم الصحة نبه فيه فوائد الهواء الطلق واشعة الشمس بقوله ألا ترى ان الشجرة البرية اصلب عوداً واقوى وقوداً وابطأ خموداً الى آخره . ولما كان هذا

التنبيه الموجز يفتح بابا واسعاً للبحث في نواحي علم الصحة وفيه ارشاد مبتكر في حينه رأيت من المناسب ان اسأل ذوي الاختصاص فوجهت سؤالي الى الدكتور الاخصائي السيد ابراهيم بن المرحوم السيد عاكف آل الالوسي وهو عدى انه من ابرز الاطباء الذين هم مارسوا هذا الفن بمختلف الادوار فانه من اعرق البيوت العلمية في بغداد . فاجابني فيما يلي : —

معالي الوجيه الحاج عبد المحسن شلاش المحترم

لقد تأملت في كلمات الامام علي بن ابي طالب عليه السلام حسبما طلبتم فوجدتها تؤدي الى بحوث كثيرة وعالية جداً في علم الصحة وعلم الطبيعة وتعتبر عندي بانها مبدأ هام لكثير من الاكتشافات والآراء الحديثة في علم الصحة والطبيعة حيث كان ملخص قوله عليه السلام : ألا ترى ان الشجرة البرية اصلب عوداً واقوى وقوداً وابطأ خموداً والروائع الخضرة ارق جلوداً . الخ اذ ان الشجرة المعروضة لشدائد الطبيعة من حر وبرد وعواصف وثلج وعطش تكون بطبيعة الحال مستمدة قواها من مجادلتها لتلك القوات اذ ان محيط الروائع الخضرة لم يستكمل تلك القوى الطبيعية . ولهذا ارى انكم محقون فى تفكيركم في هذا الموضوع . واجد ان فى كلام الامام عليه السلام ابداعا واختراعا يؤيد افكار علماء العصر الحاضر ونظرياتهم حيث ان اصبح في العصر الحاضر التدريس فى بعض الممالك خاصة للاطفال تحت اشعة الشمس وهبوب الرياح كما ان

المصابين بالامراض الصدرية في المصحات الاوربية كسويسرا وغيرها يبقون حتى في الليل معروضين لقوى الطبيعة وحتى لو هطلت عليهم الثلوج لما في ذلك من فوائد كانت ولا تزال تستفيد منها تلك الشجرة البرية من مجموع تلك القوى حسبما اشار اليه امير المؤمنين عليه السلام

المخلص

الدكتور ابراهيم عاكف الالوسي

وزير المعارف

رابعا — جاء في كلام للامام علي (ع) كلام مبتكر عن الصحة والمناعة والوقاية والفلسفة ما يستوجب البحث والتنقيب في معنى هذا الكلام ومغزاه وفيما يترتب عليه من فوائد صحية تفيد الخاصة والعامة وتفتح ابوابا في هذا العصر تؤيد البحوث العلمية الحديثة التي كشفت لنا اسرار هذا الكلام المفيد في حينه قبل الاكتشافات الحديثة ولهذا وجب ان اوجه سؤالي عن هذا الموضوع الى الدكتور الاخصائي « جاك عبودي » وهو من الاطباء البارزين في مطلق الامراض في بغداد لا سيما الامراض العقلية والعصبية فاجابني بكتابه الآتي : —

الى حضرة صاحب المعالي الحاج عبد المحسن شلاش المحترم

بعد التحية : تناولت سؤالكم الذي طلبتم فيه مني بأن اشرح الكلام الوارد عن الامام (ع) من نواحيه العلمية والفنية وهو قوله : يا بن آدم

دوائك فيك وما تبصر ودائك منك وما تشعر
وتحسب انك جرم صغير وفيك انطوى العالم الاكبر

وعليه فاني قبل ان اجيب على السؤال اود ان اعبر عن اعجابي في بلاغة هذا الكلام وايجازه بابدع اسلوب من اساليب الايجاز في الكلام فهو على قلته فيه غزارة علم وفن في بابه الى اهم بحوث الطبابة والوقاية والامراض والمناعة والفلسفة العالية التي يصح فيها قول القائل

﴿ كلام الملوك ملوك الكلام ﴾

واني مع تقديري الى نفوذ تصوراتكم الى ابعد مدى من ظواهر هذا الكلام واعماق معانيه التي حملتكم الى وجوب شرحها بالتدليل من ذوي الاختصاص كما واشكر ثقتكم الثمينة التي وجهتموها نحوي لتحقيق هذه الغاية السامية لخدمة الانسانية والعلم راجياً من المولى ان يوفقني لما فيه الصواب

لقد ثبت في الاكتشافات الاخيرة بان المناعة الموجودة في الانسان طبيعية كانت او مكتسبة هي الحط الامامي والاستحكام الدفاعي الذي يصد هجمات العوارض الخارجية عن الانسان ميكروبية كانت او فزيكية حيث آخر ما وصلت اليه النظريات في الطب الواقي الحديث واستثماره هذه المناعة وتقويتها بالطرق الطبيعية او الفزيكية واذا دخلت او نفذت العوارض الخارجية الى جسم الانسان واصبحت داءاً يتطلب العلاج فالدواء موجود في الجسم الذي فيه امكان تهيئة

عامة من جيوش جرارة مكنونة في الانسان لمحاربة هذه الآفة العرضية ومثال ذلك . اذا اصيب الجسم بمرض ﴿ انتاني ﴾ يحدث ارتفاعا فوريا نسبياً في حرارة الجسم (الحمى) التي هي ليست بمرض نوعي في بابه وانما هي ظاهرة من ظواهر القوى المحاربة للدفاع واذا اصيب شخص بذات الرئة مثلا ولم ترتفع حرارة جسمه من الحمى بالنسبة المطلوبة يتشائم الاطباء من عواقب المرض لقلة الدفاع اوعدمه وفي علم المناعة الطبيعية الموجودة فى الانسان تؤيد هذا القول تأييداً فنياً لا مناقشة فيه وتقتصر مهمة الطبيب في اتباع طرق المعالجة التي ترشده عليه الطبيعة وعليه ان يتبع ذلك الارشاد ويعزز النقص الحاصل بما توصل اليه العلم الحديث عن بصيرة كاستعمال مواد (السلفا والبنسلين) التي تشل حركة المكروبات وتضعفها عن النمو والتكاثر فيصبح حينئذ في استطاعة الجسم اكتساحها

﴿ ودائك منك وما تشعر ﴾

لقد فرضت المشيئة قوانينها الطبيعية لصيانة الجسم من الخلل من قواه الى حده المحدود وهيئت له اسبابا للبقاء من طرق المعيشة والانتعاش من مواهب الطبيعة في جميع انحاء المعمورة وحسبما يلائم كل محيط منها بحكم الطبيعة التى يجب على الانسان ان يشعرفيها ويتبعها كما ارشد فيها هذا الكلام وارشد الى وجود المدارك والحواس التي ترشد الانسان الى ما يتطلبه هذا الجسم من تلك المواهب فعليه ان يتطلع الشعور بها ويتبعها لصيانة الجسم من العلل لأن الطبيعة

تجعله يدرك في احتياجه الى الهواء الطلق واشعة الشمس والمواد الغذائية الرئيسية بكياتها وانواعها التي تؤمن نمو ذلك الجسم ومحافظة كيانه المطلوب ويشعر بحدود ما يتحمله الجسم من الاتعاب ومايتطلبه من الراحة والنوم وما هو مفروض من ضرورة التجنب عن الاغذية المصطنعة من تصرفات الانسان على خلاف متقضيات الطبيعة اوغريبة عن طبيعة ذلك المحيط الذى يعيش فيه فاذا قصر عن تطبيق هذه الواجبات او اسرف فيهاجهلا او قهراً او اختياراً فيكون دائه منه بطبيعة الحال كما جاء فى هذا الكلام

وتحسب انك جرم صغير وفيك انطوى العالم الأكبر

لست مغالياً اذا قلت بان هذا الكلام ينجر الى بحوث فلسفية عالية قد يكون معظمها ليس من اختصاص الاطباء ولكنني اشرح منها ما استطيع

حقاً اذا تأمل الانسان في عظمة الكون وتبصر في انطواء هذا العالم يحسب نفسه جرما صغيراً الا انه لو تبحر في تركيب جسمه ودرس علم التشريح بدقائقه وعلم الفسلجة الحديثة من جميع نواحيه لأخذه الهول من عظمة تكوين هذا الجسم الذى كل عضو من اعضائه كون في بابه يحتوي على ملايين من الخجيرات تقوم باعمال ذات اختصاص مرتبطة ببعضها بغاية الدقة والاحكام وحفظ التوازن والانتظام ومع هذه العظمة في تكوينه فانه حقاً جرم صغير غير ان المكون الصانع اضاف في طبيعة هذه المنظومة لهذا الجسم كونا آخراً

اعظم شأنا هو ﴿ الدماغ ﴾ الذى رفع ذلك الجرم الصغير الى الجرم الكبير وجعل فيه انطواء هذا العالم الاكبر ذلك الدماغ الذى لم يكشف العلم جميع مكنوناته الدقيقة ولم يتوصل الى الوقوف على كيفيات قيامه بمهماته التي من نتيجتها العقل والتعقل ذلك العقل الذي جعل الانسان متمكنا من التغلب على عظمة هذا الكون وممارسة مقتضيات انطواء هذا العالم على الاطلاق

الدكتور

جاك عبودي شابي

خامساً : ـ جاء في خطبة الامام عليه السلام المعروفة بالشقشقية كلام مبتكر فيه ابداع يعبر عن فن وعلم خطير ببلاغة وتشبيه عظيم الشأن يستحق الاعجاب والتنويه عنه والتنبيه اليه من ناحية الفن الذي لم ينوه عنه الشارح ألا وهو قول الامام ﴿ ع ﴾ ﴿ ان محلي منها محل القطب من الرحى ينحدر عني السيل ولا يرقى الي الطير ﴾ وحيث ان العلامتين طاب ثراهما ابن ابي الحديد وابن عبده ذهبا في شرحهما الى الناحية التاريخية والمعنوية فقط ولم يتجها في الشرح الى الجهة الفنية المهمة التى كيف الامام بها نفسه كما هو حق في الامر الواقع مهما كانت نتائج مقتضيات الوضع السياسي في ذلك الامر الذى كان الخلفاء الراشدون انفسهم يعترفون بافضليته الامام حسبما ورد بالتواتر والأجماع عن التاريخ الاسلامي

نعم شبه الامام ﴿ ع ﴾ مكانته من الامة الاسلامية بمكان المحور الثابت الذى تدور عليه رحى الدولة في ذلك العهد . ليوضح

قصده في هذا التشبيه العملي والعلمي وبما ان خوضي في هذا الموضوع بوجه خاص هو توضيح الغموض الوارد في هذه الجملة وبيان ما استنتجه واستخلصه حديثاً من كلامه « ع » من الناحية الفنية التي انكشفت لنا اسرارها في المخترعات الحديثة الفيزيائية والميكانيكية حيث ثبت بان الامام كان يمثل في كلامه جوهراً علمياً عن مفعول القوة الانتباذية الفيزيائية وانه قداستعار « الرحى ومحورها » للتمثيل والتشبيه العلمي والعملي ذلك الفن المهم الذى ابدع فيه الامام في ذلك الزمن الذى لم يكن فيه الفن الميكانيكي معروفا ولا متقدما كما هو اليوم ولم يكن له شأن علمي للتدريس والتطبيق كشأنه اليوم في الجامعات والكليات بوجود الآلات الميكانيكية التي تكشف حقائق علميه وتعطي نتائج فنية في مختبرات الفيزياء بما تنطبق تماماً على وضع الرحى وحركاتها التي استعارها في ذلك العهد استعارة تنطبق بالضبط على تلك الآلات المخترعة باختلاف اشكالها العمودية والسطحية والكروية التى تعطي تلك النتيجة التى تعطيها دورة الرحى ومحورها الذى يطرد بالطبع كل من يريد التقرب اليه ويفرز وينبذ كل سائل عنه مهما كان وكيفما كان وقد سميت هذه الآلة اليوم على اختلاف اشكالها ﴿ المنظم الانتباذي ﴾

ولما كان العلامة ابن ابي الحديد يرى في ان الامام شبه نفسه بالجبل المرتفع بشرح مفصل وكذلك الفهامة ابن عبده كان يرى بان الامام اشار الى سمو قدره وعلوشانه بكلام مختصر وشرح مقتضب

لا يريد التعمق في معنى هذه الاستعارة البليغة لغموضها آنذاك على ما يظهر لذلك وجهت سؤالي بشأنها الى مدرس الفيزياء في ثانوية النجف الاشرف الاستاذ العشماوى بعد مشاهدتي شخصيا جميع الآلات الميكانيكية المتعلقة بالموضوع والموجودة في دار المعلمين العالية في بغداد وثانوية النجف واليكم جوابه فيما يلي : —

حضرة صاحب المعالي الحاج عبد المحسن شلاش المكرم

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته بعد شكري لكم على هذا التنبيه الخطير واعجابي في هذا الالتفات العظيم اجيب على سؤالكم الموجه لي عن كلام الأمير عليه السلام فاذكر لمعاليكم ان كلامه هو من وجهة الفن تماما مع الحقائق العلمية ذلك لوجود قوة طبيعية تؤثر في الاجسام الدائرة حول المحور ﴿ القطب ﴾ تحاول ان تجعلها تسير بخط مستقيم ومن امثلة هذه القوة في الحياة العملية الحديثة . ان السيارات لا يمكنها ان تبدل اتجاهها فجأة بما ان الضرورة تقضي الى الانعطاف بخط منحني يتناسب لتلافي تأثير هذه القوة

تظهر هذه القوة كما اسلفنا في الاجسام الدائرة حول المحور المماس للدائرة التي يتحرك عليها الجسم وقد ابتكر العلماء من هذه القوة آلات ميكانيكية خاصة في الصناعة الحديثة تشبه هذه الرحى التي ابدع الامام في وصفها الذي كان ينطبق تماماً على آلات مبخرة الملابس المبتلة والاواني الحارة الدوارة التي يصب فيها محلول السكر أو الحليب فيتناثر منها السائل بعيداً عن المحور و يتبخر الماء بتأثير

الحرارة وترسب بلورات السكر او مسحوق الحليب على جدار الوعاء ويكون اتجاه حركة المحلول فى اتجاه الجدار اي بعيداً عن المحور ويمكنكم مشاهدة هذه الظاهرة بتجربة عملية بسيطة اذا وضعت قليلا من الماء او ابرة او عوداً على اسطوانة حاكي يشبه الرحى التي نوه عنها الامام فينحدر هذا الماء عنه ويطرد ذلك العود او الابرة بعيداً عن المحور ايضا في مستوى الاسطوانة الدائرة عن القطب المنوه عنه وعلى كل ذلك يمكننا ان نجزم في متانة تشبيه امير المؤمنين عليه السلام ودقته في قوله ينحدر عني السيل ولا يرقى الي الطير لأنه شبه نفسه عليه السلام بالقطب اي المحور : فلو فرضنا صب الماء على الاسطوانة او كل سائل فان هذا الماء او السائل ينحدر عن القطب فعلا ويتناثر بعيداً عنه وهذا هو المشاهد عملياً بالضبط ولو جعلنا على هذه الاسطوانة قليلا من الحصى او حبوب الفول وحركنا آلة الحاكي كحركة الرحى الموضوعة وشبهنا هذه الاجسام بالطيور فان هذه الاجسام او الطيور تتناثر نحو الخارج في مستوى الاسطوانة ولا يمكنها ان ترقى الى المحور بطبيعته لأعلى من مستوى الاسطوانة (الرحى) وهكذا يتضح لنا دقة تعبير الامام الذي ايد في عصرنا هذا ادق القواعد العلمية .

واني لأعجب كثيراً مما وصل اليه الامير من نوع هذه الدقة باكتشاف القوة الطبيعية التي سميت في هذا العصر ﴿ بالقوة الانتباذية الطاردة ﴾ هذا بالرغم من عدم وجود مختبرات علمية وآلات

صناعية في ذلك الزمن الذى اتخذ فيه الامام عليه السلام تشبيها بالرحى بهذه الدقة والاحكام والبلاغة في التعبير من الوجهة الفنية وفي الختام اشكر لمعاليكم حرصكم على اظهار هذا الفضل للا سلام في مضمار العلوم الحديثة وان في اظهار هذا الفضل اكبر خدمة تؤدى للامة العربية وتفضلوا معاليكم بقبول وافر التحية والاحترام

حسن احمد عشماوي

مدرس الفيزياء في ثانوية النجف

سادسا — قلت فيما تقدم من مستهل هذا الفصل بان ابتكارات الامام العلمية لا تنحصر في ناحية واحدة من نواحي العلم وان اختراعاته العلمية تاتى عرضا في رسائله وارشاداته وقد صدر عنه (ع) تشريع بليغ اوحاه الى الاشتر النخعي عندما ولاه ولاية مصر واهلها فكان هذا العهد الجديد يعبر فيه عن معنى الحياة الاجتماعية بوجه عام ويبتكر فيه تعابير علمية واختراعات فنية في الامر والنهي والنصيحة والارشاد بوجه عام ودون فيه دساتير علمية لتنظيم المجتمعات واوضح فيه المبادئ التى تسعد البشرية وتؤدي بالانسانية الى اسمى مراتب التقدم والرقى في مضمار الحياة وجعله مثلا اعلى في العلوم والفنون التي تتمشى مع الزمن مما دل بوضوح كامل على عبقرية الامام الفذة وغزارة معرفته بالاشياء بما وجهه فيه الى الاشتر من دساتير وانظمة تستند على الايمان الصحيح والخلق السامي والشعور بالواجبات فقد حرض فيه الجنود على الجهاد وعلم كيفية التعبئة والدفاع وارشد الى

مقتضيات الادارة والارهاب وعلم فيه لوازم العدل والحلم والقضاء والحكم والعقوبة والعفو والعطف والاحسان والانصاف كل ما تقتضيه حياة المجتمعات من أمن وعمران وابتكر فيه علم المال والاقتصاد وارشد الى مقتضيات الثروة وتكثير الانتاج ، واكد في تنظيم الري والعمران وتعرض الى اهمية التجارة والصناعة واوصى في التجار واصحاب المهن والصناعات والطرق والمواصلات ونوه عن السياسة والعهود الدولية والمعاهدات وما الى ذلك مما جادت به قريحته « ع » فى هذا العهد الجامع والنظام الشامل لادارة امور الدولة في الداخل والخارج بما ينطبق على كل زمان ومكان

وقد شرح هذا العهد المحامي البارع الاستاذ توفيق الفكيكي شرحا وافياً ابدع فيه واجاد في الاسم والمسمى حيث سماه (الراعي والرعية) بالنظر الى ما ورد فيه من مثل عليا وقواعد سامية وبحوث جليلة تبعث الثقة المتقابلة من السائد والمسود وتجمع الشمل وتحفظ الكيان ، ولا مشاحة من القول في انه ﴿ ع ﴾ فتح في عهده لمالك عينا تنضح عذبا يحيي ميتاً وينعش حيا والاستاذ الفكيكي احسن في الشرح واصاب الهدف فى المقارنة بين الماضي والحاضر مما جعلني فى غنى عن التوسع في ما ورد فيه من بحوث علمية وفنية غير اني من باب التعليق رأيت ان اذكر شيئا مما كان منطبعا في خيالي من اشعة تلك الآيات واساليكم بما يلذ على مسامعكم من خلود عليه ﴿ ع ﴾ في اجتماعكم هذا الاسبوع

قال ﴿ ع ﴾ في الرحمة للرعية واحترام حق الفرد

واشعر قلبك الرحمة للرعية ولا تكونن عليهم سبعاً ضاريا ياكل اكلهم فانهم صنفان . اما اخ لك في الدين . او نظير لك في الخلق وأعطهم من عفوك وصفحك مثل الذى تحب وترضى ان يعطيك الله من عفوه وصفحه .

فهل يا ترى انه ﴿ ع ﴾ ابقى شيئا يتطلب التنويه عن واجبات الرأفة والعدل الشامل بابلغ من ﴿ واشعر قلبك الرحمة للرعية ولا تكونن عليهم سبعا ضاريا تأكل اكلهم . الخ ﴾ وهل ان منطق الامم الراقية التي تناضل وتجعل هدفهـا فى النضال مبدأ العـدل بين الامم واحترام حق الفرد والجماعات بابلغ من قوله ﴿ ع ﴾ اما اخ لك في الدين او نظير لك في الخلق . كلا فانه ﴿ ع ﴾ اعرب عمـا تضمره الشريعة الاسلامية نحو الانسانيه من حرية ومساوات واحترام لحق الفرد في المجتمعات على اختلاف مللهم ونحلهم وهذه ظاهرة لا تخفى في آخر ما قال ﴿ او نظير لك في الخلق ﴾

كماله فى علم المال والاقتصاد

﴿ وتفقد امر الخراج بما يصلح اهله ، فان في صلاحه وصلاحهم صلاح لمن سواهم ، ولا صلاح لمن سواهم الابهم ، لأن الناس كلهم عيال على الخراج واهله ، وليكن نظرك في عمارة الارض ابلغ من نظرك في استجلاب الخراج . لأن ذلك لا يدرك الا بالعمارة ، ومن

طلب الخراج بلا عمارة اخرب البلاد ، واهلك العباد ، ولم يستقم امره الا قليلا . فان شكو ثقلا او علة او انقطاع شرب ، او بالة او احالة ارض اغتمرها غرق ، او اجحف بها عطش ، خفف عنهم بما ترجو ان يصلح بهم امره ، ولا يثقلن عليك شيء خففت به المؤنة عنهم فانهم ذخر يعودون به عليك في عمارة بلادك ، وتزيين ولايتك مع استجلابك حسن ثنائهم ، وتبجحك باستقامة العدل فيهم معتمداً فضل قوتهم بما ذخرت عندهم من اجمامك لهم والثقة منهم ، بما عودتهم من عدلك عليهم ، ورفقك لهم ؛ وانما يؤتى خراب الارض من اعواز اهلها ، وانما يعوز اهلها لأشراف انفس الولاة على الجمع وسوء ظنهم بالبقاء ، وقلة انتفاعهم بالعز . ﴾

ايها السادة لقد جاءت هذه الجمل البليغة قوانين علمية وانظمة وتعاليم عملية وتصاميم واوامر قطعية للتنفيذ تعبر عن علم المال وتعطي نماذج لادارة البلاد الاقتصادية واذا ما اردنا التوسع في مدلول قوامها ومفهوم اصولها والتعمق في بلاغتها فالمجال ضيق لا يسع البحث والتنقيب في موضوع كهذا يتطلب الاسهاب في الاستنتاج والاستدلال على مغزى كل جملة من جمله وفقرة من فقراته وهذا ما دعاني الى ذكر نصها بدون ان اتعرض لشيء مما يخص الكشف عن محتوياتها الجليلة التي يضيق الحساب عن عدها جميعا وأوكد لكم اني طالعت الكثير من المؤلفات الحديثة المترجمة الى اللغة العربية في علم المال والاقتصاد كمؤلف ﴿ شارل الجيد ﴾ الافرنسي المعرب بقلم

الاستاذ فخامة توفيق السويدي وموجز علم المال بقلم الاستاذ فارس الخوري السوري وغيرها من المؤلفات العربية المصرية فلم اجد فيها من الايجاز والاعجاز ما وجدته في هذه الجمل القصيرة ذات القواعد العالية من فنون علم المال وطرق استثماره حيث كان ملخص مقاصد الامام عليه السلام هو تكثير الانتاج وتشجيع مساعي الفرد بالطرق العلمية الصحيحة التي تنظم حياة البلاد الاقتصادية وتدعو الى الاستمرار الاوتوماتيكي نحو الرقي والعمران معتمداً على ادراكاته الخاصة وابتكاراته التي كشفت لنا حقائق يكاد يكون التوصل اليها خارجا عن مقدرة غيره لا سيما في زمانه وبعد زمانه وذلك من اعجازه وايجازه في هذا الموضوع كقوله فان فى اصلاحه وصلاحهم صلاحا لمن سواهم وقوله ﴿ لان الناس كلهم عيال على الخراج واهله ﴾ ومن بعد مرمى كلامه « ع » . وليكن نظرك في عمارة الارض ابلغ من نظرك في استجلاب الخراج . وكلمة ﴿ ابلغ ﴾ في هذه الجملة لا شك انها تذهب الى اقصى حد بليغ يلفت الانظار الى البحث والتنقيب عن شتى نواحي الحياة الاقتصادية . اضافة الى انه « ع » وضع التصاميم العمرانية الى آراء المتجددين وذوي العلاقات مباشرة بقوله . فان شكو ثقلا اوعلة او انقطاع شرب . اوبالة . او احالة ارض اغتمرها غرق . اواجحف بها عطش . خفف عنهم بما ترجوان يصلح بهم امرهم . والشيء الذى يستوجب التفكير والاعجاب هو قوله ﴿ع﴾ « ولا يثقلن عليك شيء خففت به المؤونة عنهم فانه ذخر يعودون به

عليك والى آخر ما قاله عليه السلام (فان العمران متحمل ما حملته) وما هذه القوانين البليغة الا بمثابة امر باستحضار لوازم التعبئة العامة التي تقتضيها مصلحة الدولة في هذا السبيل مما يدخر في جيوب الامة ولهذا فان علماء المال حددوا في قواعدهم العلمية فرض الضرائب في زمن السلم الى حد لا يتجاوز الثمن من مجموع الدخل العام وعن كل ما تنتجه الامة من مساعيها حتى يبقى سبعة من اصل ثمانية بيد الاهلين للتداول الاتوماتيكي والسعي وراء انعاش الثروة وتكثير الانتاج والى الحاجة التي قد تمس اليه في زمن الحرب وامثاله من الكوارث ولا ازيدكم علما في بعض امثال هذه الاحكام الصادرة من دون تردد يحتاج معه الى مشورة متخصص او فنان لعلمه « ع » ان نفقات المشاريع العمرانية مهما بلغت بما فيها من اسراف فهي لا تعد شيئا يذكر بالنسبة الى ما تدره من الخيرات الوافرة للبلاد واهلها

وكأني به « ع » كان يرمي في اعجازه هذا بشيء من حكمة قوله تعالى شأنه « واعدوا له ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم » وكما يرى بان العمران مصدرهام الى مقتضيات العدة والعدد مضافا الى ما فيه من موارد حيوية تنعش البلاد واهلها من الناحية الاقتصادية كل حين ولهذا لم اجد بداً من الاتيان بمثل محسوس لدى الجميع في العراق فيما يلي تحققا للغاية

لقد وجهت الحكومة العثمانية بعض انظارها الى الناحية العمرانية

في العراق بعد الدستور العثماني حيث كان العراق مهملا زمنا طويلا وكانت الحكومة عند اتجاهها وقتئذ لا تستطيع الاقدام قبل درس الموضوع من الناحية الاقتصادية فاستقدمت خبراء فنيين واقتصاديين من مشاهير اوربا لدرس المشروع وبعد الدرس رفعوا تقريراً وافياً فنياً اقتصاديا قدروا فيه نفقات المشاريع العمرانيه بما لا يقل عن اثنى عشر مليون ليرة عثمانية على ما اتخطر ومن تلك المشاريع سدة الهندية التى قدرت نفقاتها بما يقارب النصف مليون ليرة ضمن المبالغ المقدرة والشيء الذى يجدر بنا أن نذكره هو أن الخبراء أكدوا في تقريرهم بان المبالغ المقدرة لمشاريع العمران ليست بالشيء الكثير وفى استطاعة الحكومة عقد قرض لانجازها وتستطيع استرجاعه من ناتج تلك المشاريع باسرع وقت بحيث تبقى للدولة ثروة طائلة وثابتة تقدر باضعاف الملايين واستدلوا على صحة آرائهم بالطرق العلمية والاحصاءات الفنية التى أثبتوا فيها مما اتضح لديهم من مساحات الاراضي الواسعة الخراب الميتة التى يرتفع ثمنها الى الدرجة القصوى بعد الاحياء ونوهوا عن ارتفاع ثمن الاراضي التي يشملها التحسين بمبالغ طائلة ومستندين على مقادير الدخل الذي ينجم منها كما وإنهم أوضحوا عن كيف ومتى يتم اطفاء القرض باقرب وقت ممكن ذلك كله تنوير للسلطة التى تريد الاقدام على هذه المشاريع وتطمين وزراء المال فى الاستانة للاقدام على القرض وتشريع الصرف وقد تم ذلك التصميم قبل الحرب الماضية غير أنهم لم يكلوا من تلك المشاريع سوي مشروع سدة

الهندية هذا بالنظر الى ما جابهته الدولة آن ذاك من الحروب المتعاقبة في البلقان قبيل الحرب العامة . وحيث انه اصبح لدينا من مشروع سدة الهندية مثلا أعلى تشاهده كل عين في تنظيم الري ونتائج العمران وجب علينا ان نأخذ منه عبراً اقتصادية ودروسا بليغة الى ما نحن في صدده تنويراً للغاية التي نريد ان نعرف مغزي كلام الامام (ع) وبعد نظره في الامور المالية ودرجة اعتماده على علمه وتفكيره الخاص في ادارة امور الدولة وتنظيم حياة المجتمع في شتى النواحي الاقتصادية وغيرها من دون ان يحتاج الى خبير يرشده كما فعلت بعده الملوك والسلاطين عند قيامهم بالمشاريع العمرانية وانما كان (ع) يصمم ويأمر بالتنفيذ ببلاغة واعجاز كقوله ﴿ وليكن نظرك في العمران ابلغ من نظرك في استجلاب الخراج ﴾ والى آخر ما قال ان ﴿ العمران متحمل ما حملته ﴾

قلنا فيما تقدم بان ذوي الاختصاص قدروا نفقات سدة الهندية بما يقارب النصف مليون وقد تم على ما اتذكر باربعمائة الف ليره وكسور والشيء الذى يجدر ذكره في هذا الصدد عما جاء في جمل كلامه (ع) من الاعجاز والابتكار وبعد النظر في العالم الاقتصادي هو اني اثناء تتبعاتي واستقرآتي فى ارقام ميزانية الدولة العراقية وتفرعاتها عند قيامي في واجباتي البرلمانية عامي ٩٢٦ و ٩٢٧ كان يترآى لي على ما اتخطر بان حصة الحكومة من محصولات الاراضي التي شملها مشروع سدة الهندية من زرع وضرع وغرس وغابات

وغيرها من المحصولات الطبيعية السنوية تقارب نفقات المشروع وهذا في الوقت الذى كان فيه متوسط نسبة حصة الحكومة من الجباية ٢٠ بالمائة من اختلاف النسب الموضوعة للميري السيح ٣٠ بالمائة والطابو ٢٠ بالمائة السيح والواسطة طابو ١٠ بالمائة والواسطة ميري ١٢ ونصف ، ١٥ بالمائة ولهذا لست مغالياً اذا قلت في انه ﴿ ع ﴾ ضرب قواعد عالية ومثلا عليا مبتكرة في بابها ترمى الى أهداف سامية حيث ان حصة الزراع وذوي العلاقات في الانتاج لم تغب عن باله ولا ينسى المثل الاعلى والغاية الاقتصادية القصوى التي تنعش البلاد وتقوي اركان الدولة اجتماعياً واقتصادياً من حيث كنت اقدر ثمن المحصولات العامة من نتائج سدة الهندية السنوى وعما يعود الى الاهالي والزراع منها بعد خمس الحكومة يبلغ مليوني ليرة وربما اكثر بدليل ماقيل ان حصة الحكومة جاءت باقل تقدير ولهذا فقد اصبحت من حصة الاهلين ثروة عامة تتداول بين مختلف الطبقات بشتى الوسائل ومختلف الطرق « الاوتوماتيكية » بحكم القوانين الطبيعية وربما كان منها يذهب الى عمران الاراضي ومعظمها يرجع الى خزينة الدولة عن طريق الضرائب المتنوعة كالكمارك والمكوس والرسوم والاجور وضريبة الدخل والبدلات النقدية لخدمة العلم ورسوم البلديات مما تعيده السلطة للامة في خدماتها مرة ثانيه وترزق فيه الكثير من الناس والى غير ذلك مما يدر منها للخيرات والجمعيات كل ذلك عيال على الانتاج بالاضافة الى مايصبح تحت ظلها من صحة وامانة ونعم وافرة ورخاء

في المعيشة تقلل نفقات الانتاج والعمران وهي بذا تها تشجع الأيادي العاملة في حياتها وتفسح المجال الواسع للتصدير بأوضح برهان ودليل ينورنا بما جادت به قريحة الامام (ع) في بحوثه المالية والاقتصادية التى كان لا يحتاج فيها الى عالم اختصاصي كما احتاجت اليه الملوك والسلاطين بعده بقوله « ع » ﴿ لان الناس كلهم عيال على الخراج واهله ﴾ الى قوله ﴿ وان شكوا خفف عنهم فانه ذخر يعودون به عليك في عمارة بلادك وتزيين ولايتك . الخ ﴾ وهذا كله مما يكشف عن غزارة علمه وبعد نظره ﴿ ع ﴾ في مالية الدولة ومقتضياتها الى اقصى حد تتصوره العقول لتنظيم هذه الحياة من شتى النواحي ولهذا فانه ﴿ ع ﴾ اردف كلامه ومخص اقواله ببلاغة واعجاز في اواخر الفصل الاقتصادى من عهده للاشتر النخعي عن الناحية التجارية والصناعية التى هي من متممات علم الاقتصاد فاوحى فيها الى الاشتر واوصاه في ذويها وفي لوازمها ومقتضياتها من التشجيع لأهلها وتقوية الايدى العاملة فيها وتمهيد السبل لأجلها في الداخل والخارج بما في ذلك الطرق البريه والبحرية وغيرها بتعاليم عالية وقواعد علمية ثابتة لم يفته التنويه والتأكيد عنها وعن مراقبتها المطلوبة للتنظيم في المجتمع والى ما يفيد العامة منها وما يمنع الخاصة من التحكم والاحتكار فيها واليكم بلاغة آياته ﴿ ع ﴾ في التجارة والصنعة ومقتضياتهما حيث قال ﴿ ع ﴾ ﴿ ثم استوصي بالتجار وذوي الصناعات، واوصى بهم خيراً المقيم منهم والمضطرب بماله ، والمترفق ببدنه ، فانهم مواد المنافع ،

واسباب المرافق ، وجلابها من المباعد والمطارح ، في برك وبحرك وسهلك وجبلك ، وحيث لا يلتأم الناس لمواضعها ، ولا يجرؤون عليها فانهم سلم لا تخاف بأقته وصلح لا تخشى غائلته ؛ وتفقد امورهم بحضرتك وفي حواشي بلادك

واعلم مع ذلك فان في كثير منهم . ضيقا فاحشا . وشحا قبيحا ، واحتكاراً للمنافع ، وتحكما في المبايعات ، وذلك باب مضرة للعامة وعيب على الولاة فامنع من الاحتكار . فان رسول الله « ص » منع منه ، و ليكن البيع بيعا سمحاً بموازين عدل واسعار لا تجحف بالفريقين من البائع والمبتاع فمن قارف حكرة بعد نهيك اياه عاقبه من غير اسراف ﴾

قلنا فيما تقدم بان القواعد التي وضعها ﴿ ع ﴾ تعبر عن اسمى المقاصد لتنظيم هذه الحياة الاقتصادية في المجتمعات بما في ذلك بحثه عن الناحية التجارية والصناعية واشاراته الى ما ينبغي لها من تعاون وحرية وتأمين وعدل رفع مستواها للنفع الخاص والعام وارشاده ﴿ ع ﴾ الى تحديد الاسعار برح معقول وعدل مقبول « بين البائع والمبتاع » ومعنى ذلك واضح اى بين المستورد ومشترى الجملة وبين بائع الجملة وبائع المفرد وبين البائع بالمفرد والمستهلك وقد فرض العقوبة عند المخالفة بعد النهي بانصاف ﴿ دون اسراف ﴾ قد يعكر صفو الحريه المطلوبة للتجارة والصناعة ولئلا تشل حركتها من حيث الاحجام عنها ولئلا تؤثر على مجرى نواميس هذه الحياة الطبيعية من

نظام الخليقة في التعاون بين الناس ومراعاة احكامها التي سنها واجد الوجود على اثبت القواعد التي ارشد اليها ﴿ ع ﴾ بحكمة بالغة يتعذر الوصول الى غورها في هذه اللحظة ولكنني رأيت ان اشير في موقفي هذا عن نقطة واحدة وردت في تفكيري عند مطالعتي تلك الجمل البليغة الخاصة بمنع الاحتكار للتجارة والصناعة حيث كان المنع باتا وشاملا لا يفسح للسلطة مجالا تستعمل فيه هذا الاحتكار لنفسها ولم يجوز لها في ان تتخذ منها مواردا لمقاصدها حيث جاء المنع مطلقا وبدون استثناء كما انه لم يجعل لغيراهلها شأن فيها من حيث قال ﴿ واستوصى بالتجار وذوى الصناعات ﴾ ونوه عن اختصاصهم دون غيرهم وفي عدم امكان غيرهم فيما يقومون به ﴿ في المباعد والمطارح ﴾

وقوله : فامنع من الاحتكار فان رسول الله « ص » منع منه والى قوله « ع » (فانه عيب على الولاة) وعليه فلا يليق بالولاة استعمال هذا الممنوع ولا تتحدى هذا النظام

وهذا مما تؤيده احدث النظريات العلمية واعلاها شأنا القائلة بان التجارة والصناعة والزراعة وامثالها مما تختص به الامة وليس للحكومات بها من شأن لشلا تشل مساعي الفرد الذى تتوقف عليه الحياة الاجتماعية والاقتصادية وعلى هذا قالوا ﴿ خزينة الدولة جيوب رعاياها ﴾

ومن هذا وامثاله من الابتكارات العلمية التي تدلنا على عبقريه

الامام الفذة مما يستحسن بالباحث ان يكشف عنها الستار مهما استطاع اليه من سبيل

خلود الامام في البلاغة والفصاحة

كلكم تعلمون ايها السادة بان بلاغته « ع » لا تنحصر في جهة ولا تختص في ناحية من النواحي وانما جاءت شاملة في جميع الاشياء، ومعجزة خلوده في نهج البلاغة الذي قد اقتبسنا منه جذوة في كلمتنا هذه امر لا يحتاج الى دليل ودليله واضح بعد ما قيل عنه بانه « دون كلام الخالق وفوق كلام المخلوق » وبما اننا في اسبوع مقدس من اسابيع شهر رمضان المبارك المفروض فيه العبادة والدعاء وفيه ليالي القدر وشهادة الامام « ع » رأيت بان التقط شيئا من درر بلاغته اللامعة وفصاحته النادرة في الادعية والأوراد ولذلك فقد اوحت لي قريحتي بان اقتبس مما جادت به قريحة الامام في دعائه المعروف عند الصباح ذلك الدعاء الذي يتهجد به الملايين من المسلمين والمصلين في كل صباح واستجلب انظاركم الى ما جاء فيه من الآيات البينات التي اعجزت الفصحاء والبلغاء ان يأتوا بمثل ما اعجز واوجز في وصف الخالق والخليقة وفيما حلل فيه شخصية النبي « ص » بالصفات دون الاسماء تحليلا بليغا لم يسبق له نظير ولا ابالغ اذا قلت بان هذا الدعاء الجليل فيه المثل العليا الى جميع الاشياء وفيه الفلسفة العالية والمنطق وعلم الكلام والمعاني والبيان وعلم الطبيعة

والكائنات . بدقائقها وحركاتها وافلاكها وجبالها وسهولها وينابيعها وانهارها وتسريح قطع ظلامها وشمسها وضحاها بابلغ وصف والى ابعد حد في الاعجاز واقصى مدى يتعذر فيه الوصول الى غيره ولا اتردد من القول في ان فيه ابلغ الحقائق عن علم النفس والعرفان

واذا لم تكن لامامنا الفذ بلاغة وفصاحة غير تلك التي جاءت في دعائه عند الصباح فهي تكفي لأن اقتطف من زهراتها الخالدة شيئا يحرك مشاعركم ويسليكم في هذه الليله المقدسة من اسبوع شهادته « ع » ومن دعائه عند الصباح

اللهم يامن دلع لسان الصباح بنطق تبلجه ، وسرح قطع الليل المظلم بغياهب تلجلجه ، واتقن صنع الفلك الدوار في مقادير تبرجه ، وشعشع ضياء الشمس بنور تأججه ، يامن دل على ذاته بذاته ، وتنزه عن مجانسة مخلوقاته ، وجل عن ملائمة كيفياته ، يامن قرب من خواطر الظنون وبعد عن ملاحظة العيون ، وعلم بما كان قبل ان يكون ثم استرسل قائلا : واغرس اللهم في شرب جناني ينابيع الخشوع وأجر اللهم من آماقي زفرات الدموع ، وأدب اللهم نزق الخرق مني بأزمة القنوع . يامن ارقدني في مهاد أمنه وامانه وايقظني الى ما منحني به من مننه واحسانه . ثم استرسل الى قوله وان اسلمتني أناتك لقائد الامل والمنى ، فمن المقيل عثراتي من كبوة الهوى ، وان خذلني نصرك عند محاربة النفس والشيطان فقد وكلني خذلانك الي حيث النصب والحرمان ، ثم استرسل الى قوله :

سبحانك اللهم وبحمدك من ذا الذى يعرف قدرتك فلا يخافك ، ومن ذا الذى يعرف من انت فلا يهابك ، ألفت بقدرتك الفرق وفلقت بلطفك الفلق ، وأنرت بكرمك دياجي الغسق ؛ وانهرت المياه من الصم الصياخيد عذبا واجاجا وانزلت من المعصرات ماء ثجاجا ، وجعلت الشمس والقمر للبرية سراجا وهاجا ، من غير ان تمارس فيما ابتدأت به لغوبا ولا علاجا ، يامن توحد بالعز والبقاء ؛ وقهر عباده بالموت والفناء ثم استمر الى تحليل شخصية الرسول « ص » بأبدع اعجاز قائلا

وصلي اللهم على الدليل اليك في الليل الاليل والماسك من اسبابك بحبل الشرف الاطول — والناصع الحسب في ذروة الكاهل الاعبل — والثابت القدم على رحاليقها فى الزمن الاول

ايها السادة لا يسعني المجال بأن اعلق على كل جملة من هذه الجمل البليغة ورب ما لا استطيع الوصول الى كنه معنى ما فيها من المثل التى لا يعلم مكنونها الا الله والراسخون في العلم — ولكنني وددت ان ألفت انظاركم على الاجمال الى بعض ما فيها واشير الى بلاغة كلامه في واجب الوجود وتحليل شخصية الرسول « ص » قياماً بالواجب كقوله « ع »

« يامن دل على ذاته بذاته » « وتنزه عن مجانسة مخلوقاته »

« يامن قرب من خواطر الظنون » « وبعد عن ملاحظة العيون »

وفي علم النفس قال « ع »

وان خذلني نصرك عند محاربة النفس والشيطان فقد وكلني خذلانك الى حيث النصب والحرمان

وفي العرفان قال « ع »

من ذا الذى يعرف قدرتك فلا يخافك ومن ذا الذى يعرف ما انت فلا يهابك

وفي تحليله شخصية النبي « ص »

صل اللهم على الدليل اليك في الليل الا ليل الى ان قال ﴿ والثابت على زحا ليفها في الزمن الاول ، ﴾

هذا ما ارجو ان اكون فيه مأجوراً عند الله تعالى ومقبولا عند الامام عما تقدمت به من شارة للخلود عن طريق الدعاء خلوداً يقترنه العز والبقاء ما جن ليل واندلع صباح وما دار فلك وشع نهار وما دامت الصلات قائمة بين العبد والمعبود بالصلاة وما دامت الصلاة على محمد واله فريضة في كل صلوة وما دامت الصلاة على محمد واله خالدة في كل دعاء

وهذا قليل من كثير في كتاب الله الناطق فسلام عليه وعلى معلمه الا كبر ومرشده الاعظم نبينا محمد واله صلى الله عليه وسلم والف سلام والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته

النجف الاشرف — عبد المحسن شلاش

***

٢١٨

علي مع الخلفاء

الكاتب معتمد منتدى النشر ومؤلف كتاب
السقيفة، وكتاب المنطق، وحل اليقظة مع
الفيلسوف صدر المتألهين وعلم الاصول وغيرها

تمهيد

كنت عقدت فصولا عن الخلافة الاسلامية واسباب الخلاف فيها، وألفته كتابا سميته ﴿ السقيفة ﴾ بحثت فيه بحثا حراً جهد ما توصل اليه تفكيري، وذكرت فيه تحليل وفلسفة حادث السقيفة وكيف امكن ان يتم هذا الحادث الخطير، بدون علم الامام علي عليه السلام، وبدون علم بني هاشم رهط النبي صلى الله عليه واله، بل بدون علم جماعة كبيرة من اصحاب النبي المقربين وعشيرته الادنين والابعدين:

واهم مشكلة تعترض الباحث هي امكان اتمام البيعة لأبي بكر

باسم الدين ؛ مع عدم اشتراك علي فيها ، ولا علمه بامرهـا ، بل مع عدم موافقته ولا موافقة عشيرته وجماعة النبي المقربين ، مع انه هو المنصوص عليه بالخلافة على ما توصلت اليـه في بحثي او هو المرشح لها — على الاقل —

حقاً انها المشكلة معقدة من ناحية اجتماعية ، يحتاج حلها الى بحث دقيق ، فانه من الطبيعي عند اقدام تلك الجماعة على بيعة ابي بكر مع اغفال صاحب الامر ان يحدث ما يحول دون اتمام البيعة ، ولكن شيئا من هذا القبيل لم يحدث في المدينة ، بل الناس في اليوم الثـاني بايعوا بيعتهم العامة ، وان كانت الثورة على الحكم القـائم التي سميت ﴿ بالردة ﴾ قد وقعت في اطراف الجزيرة العربية ، وامتنع كثير من العرب عن اداء الزكاة ، وفسر سبب بعضها بالنقمة على البيعة التي حدثت في المدينة

اذاً فما الذى هدأ الناس في المدينة واطرافها ، وفي جيش المسلمين وجعلهم يقبلون على البيعة ، ويقبلونها فكرة لها صبغتها الدينيـة تطغى على نص النبي او ترشيحه على الاقل لعلي من بعده ؟

لقد تكلمت في رسالة السقيفة عن حل هذه المشكلة ، بعد عرض نقاط الضعف الديني في المجتمع الاسلامي لاسيما مجتمع المدينة العاصمة للاسلام ، الذى ظهر ذلك الضعف على الاكثر في الخلافات والحزازات بين طائفتي المهاجرين والانصار ؛ ثم بين الانصـار انفسهم : الاوس والخزرج . وقد وجدت نفسي أني خرجت متمكنا من تصوير الجمع

ذلك اليوم مجتمعاً قابلا للتأثر بمثل حادث السقيفة ، وكان مستعداً للانقلاب بمقتضى قوانين المجتمعاتِ وطبيعتها .

ولست اريد ان اكرر هذا البحث لكم في هذه المحاضرة ، انما الذى اود ان ابحث عنه الآن هو موقف الامام بعد حادث السقيفة ؛ وسياسته مع الخلفاء ، لاجعله متمما لفصول تلك الرسالة (١)

الافتيات على الامام فى البيعة

لا يشك التاريخ ان علياً عليه السلام لم يكن على علم من اجتماع الانصار في سقيفتهم ، حتى بعد ذهاب الثلاثة من حزب المهاجرين متكتمين ، وهم ابو بكر وعمر اذ ذهبا يتقاودان — على حد تعبير الطبرى في تاريخه — وتبعهما ابو عبيدة . بل لم يعلم الامام بما تم فى السقيفة الا بعد خروجهم الى المسجد في ضجيجهم ﴿ وفي مقدمتهم عمر بن الخطاب وبيده عسيب نخل وهو محتجز يحث الناس على البيعة ﴾ فبلغه تكبيرهم ، وهو مشغول في جهاز النبي ولم يخرج اليهم الا في اليوم الثاني

---

(١) مصادر هذا البحث : تاريخ ابن الأثير ، وتاريخ الطبري ، وصحيح البخاري ، وصحيح مسلم ، وشرح ابن ابي الحديد ، ونهج البلاغة ، وتاريخ الخميس ، وتاريخ اليعقوبي ، والعقد الفريد ومروج الذهب ، والامامة والسياسة

واول شيء يبدو دليلا على ان القوم افتاتوا عليه بالمشورة، وهم يشعرون بانهم في مقام الخصومة له انهم لم يخبروه بحادث اجتماع الانصار عندما جاء عمر الى ابي بكر ، وهو في بيت النبي ؛ يسير اليه بالامر ، وهما ايضا لم يخبرا احداً غير ابي عبيدة الذى تبعهما وحده حيث الاجتماع السري . مع ان مثل الامام اولى الناس بتدارك هذا الموقف الدقيق ان كان في اجتماع الانصار خطر على الاسلام او فتنة ثم بعد ذلك ما دعوه للمشاورة ولا للبيعة قبل ان يتم كل شيء ينتظر لبيعة ابي بكر . ولا ينتهي التساؤل عما اذا كان ينبغي ان يرسل اليه من يخبره بالامر على الاقل ! اما كانوا على حسن نية معه او ثقة بموافقته لهم ورضاه ؟

لقد وجدناهم قد قضوا امرهم بينهم ، ودعوا الناس اشتاتا ومجتمعين ؛ مستشعرين الكفاح والخصومة ، بل الضعف لمام حزب علي ، ولذا انتهزوا فرصة انشغاله وانشغال اصحابه وبني هاشم بجهاز سيدهم . ويشهد لهذا قول الطبري في تاريخه ﴿ وجاءت اسلم فبايعت فقوى بهم جانب ابي بكر وبايعه الناس ﴾ . تأمل كلمة ﴿ فقوى بهم جانب ابي بكر ﴾ . لتفهم ان هناك جانبين متخاصمين يقوى احدهما ويضعف الآخر . وبعيد ان يقصد بالجانب الاخر الانصار ، لان الاوس منهم قد بايعوا في السقيفة ، وكذا بعض زعماء الخزرج ، فانكسر امر سعد بن عبادة المرشح من قبل قومه في السقيفة نفسها . ولم يبق له بعد ذلك كبير اهتمام بانفراده . ولذا اهملت بيعته لأبي بكر

حسب اشارة بعض ابناء عمه

اما علي فقد قلنا جاءه الخبر عفواً لما سمع تكبير القوم في المسجد وهو حول النبي مشغول بجهازه . وقد بلغته حجتهم على الانصار لم يكتم نقدها فقال كما في نهج البلاغة : ﴿ احتجوا بالشجرة واضاعوا الثمرة ﴾

رأيه في بيعة السقيفة

ولا يشك التاريخ — ايضا — عند من ينظر اليه نظرة فحص وتمحيص انه كان ناقما على ما اسرعا اليه من بيعة ابي بكر وكان يعدها غصباً لحقه فلم يلاق الحادث الا بالاستغراب والاستنكار كما يبدو من كلمته السابقة التي سمعتها اخيراً ومن كلمات له كثيرة مبثوثة في نهج البلاغة وغيره واهمها الخطبة الشقشقية واقل ما يقال في انكاره تخلفه عن البيعة حتى ماتت فاطمة الزهراء عليها السلام

على ان من الظلم ان نقول ان علياً تخلف عن البيعة وهو صاحب الامر الذي يجب ان يؤتى اليه وانما الحق ان نقول ان الناس هم الذين تخلفوا عنه

واول اعلانه عن رأيه كان عند خروجه في اليوم الثاني من السقيفة بعد البيعة العامة — كما في مروج الذهب — فقال لابي بكر ﴿ افسدت علينا امرنا ولم تستشر ولم ترع لنا حقاً ﴾ وهذا القول صرخة في وجه الاستيثار عليه وتصريح بعدم الرضا بما تم لهم

وليس علي ممن يداجي او يخاتل ولا ممن تأخذه في الله لومة لائم . ولذلك هم كانوا يفرون من التحرش به قبل تمام البيعة خوف اعلان خصومتهم فنرى ابا بكر في جواب كلامه السابق يعتذر له ويقول : ﴿ بلى ولكن خشيت الفتنة ﴾

ويسكت التاريخ عن ذكر جواب للامام افتراه اقتنع بكلمة ابي بكر او اغضى عن جوابها او التاريخ اهملها ولكن علياً يقول من خطبة له عن هذه الحادثة : ﴿ فلما قرعته بالحجة في الملأ الحاضرين هب كأنه لا يدري ما يجيبني به ﴾

ولئن فرضنا انه سكت هذه المرة فانه لم يترك الدعوة الى نفسه وانكار حادث السقيفة وان بايع بعد ذلك فلم يبايع عن طيبة خاطر واطمينان الى ما هم عليه وهو الذي يقول بصراحة في الشقشقية ﴿ فصبرت وفي العين قذى وفي الحلق شجى ارى تراثي نهبا ﴾ . ثم التاريخ يحدثنا انه لم يبايع الا بعد ان صرفت عنه وجوه الناس بموت فاطمة الزهراء وكم تذمر وتظلم من دفعه عن حقه مثل قوله من كلام له في النهج ﴿ فو الله ما زلت مدفوعا عن حقي مستأثراً علي منذ قبض الله نبيه صلى الله عليه واله وسلم حتى يوم الناس هذا ﴾ . ويشير لهذا اليوم الى عصره في خلافته

هذا هو الصريح الواضح من رأي الامام في بيعة السقيفة وما وقع بعدها ويكفي النظر في الشقشقية وحدها . غير ان التاريخ قد يحاول ان يكتم هذه الصراحة لانه لا ينكر على كل حال ان علياً مع

الحق والحق مع علي فلا يمكنه ان يتهمه بالحيدة عن طريق الحق اذا اعترف بهذا الرأي الصريح منه وهو — اعني التاريخ — يريد ان يصحح ما وقع يوم السقيفة الذى لا يصح من دون رضا صاحب الحق وموافقته فيركن الى المداورة

ولكن الحقيقة لا بد ان تنم عن نفسها فانه يجيء في صحيحي البخاري ومسلم عدا كتب التاريخ والسير ما لا يخرج عن هذا القول : ﴿ ان وجوه الناس كانت اليه وفاطمة باقية فلما ماتت انصرفت وجوه الناس عنه وخرج من بيته فبايع ابا بكر وكانت مدة بقائها بعد ابيها ستة اشهر ﴾

وجاء ما هو اصرح من كل ذلك في جوابه لكتاب لمعاوية اذ يتهمه معاوية بالبغي على الخلفاء والابطاء عنهم وكراهية امرهم فيقول الامام منكراً لبعض هذه التهم ومعترفا ببعض الاخر : ﴿ فاما البغي فمعاذ الله ان يكون واما الابطاء عنهم والكراهية لأمرهم فلست اعتذر الى الناس في ذلك (١)

الموقف الرقيق

يظهر للمتتبع ان الامام كان يرى — عطفا على رأيه السابق — وجوب مناهضة القوم حتى يأخذ حقه منهم . ويستشعر ذلك من سيرته معهم ومن كثير من اقواله التي منها قوله في الشقشقية عن

(١) راجع شرح النهج ﴿ ٣ : ٤٠٩ ﴾

حربه لأهل الجمل ومعاوية : ﴿ أما والذى فلق الحبة وبرأ النسمة لولا حضور الحاضروقيام الحجة بوجود الناصر ، وما اخذ الله على العلماء ألا يقاروا على كظة ظالم ولا سغب مظلوم ؛ لألقيت حبلها على غاربها ولسقيت آخرها بكأس اولها ﴾

فانظر الى موقع كلمته ﴿ لسقيت آخرها بكأس اولها ﴾ فانه يريد ان يقول ان زهدي بالدنيا يدعو الى ان اترك حقي في المرة الاخيرة كما تركته في المرة الاولى ، ولكن الفرق كبير بين الحالين : ففي الاولى لم تقم لي الحجة في القتال لفقدان الناصر دون هذه المرة فلا يسعني ان اعرض عنها هذه المرة واسقيها بالكأس الذى سقيت به اولها يوم طويت عنها كشحا ؛ وصبرت على القذى

واصرح من ذلك ما كان يقوله ﴿ لو وجدت اربعين ذوي عزم لناهضت القوم ﴾ . وهذا ما عده معاوية من ذنوبه ، وذلك فيما كتب اليه من قوله ﴿ فهما نسيت فلا انسى قولك لابي سفيان لما حركك وهيجك لو وجدت اربعين ذوي عزم منهم لناهضت القوم . فما يوم المسلمين منك بواحد ﴾ ولم ينكر امير المؤمنين عليه السلام هذا القول في جوابه على هذا الكتاب

وفي التاريخ مقتطفات تؤيد ذلك ، كما فى تاريخ اليعقوبي : ان اصحابه الذين كانوا يجتمعون اليه طالبوه بمناهضة القوم وتعهدوا بالبصرة ، وكأنهم ظنوا ان قد بلغوا العدد المطلوب ﴿ ٤٠ ذوي عزم ﴾ فقال لهم : اغدوا على هذا محلقي الرؤوس . وهو انما يريد ان

يرهم انهم لم يبلغوا المنزلة التي تقام بها الحجة ، فلم يغد عليه الا ثلاثة نفر

واذا كان هذا رأيه في لمناهضة للقوم يبلغ — يا سبحان الله — هذه الشدة والصرامة فماذا تراه صانعاً ؟ لنتركه الآن يحدثنا هو عن نفسه وموقفه الدقيق ، اذ يقول من الشقشقية : ﴿وطفقت ارتئى بين ان اصول بيد جذاء او اصبر على طخية عمياء يهرم فيها الكبير ويشيب فيها الصغير ويكدح فيها مؤمن حتى يلقى ربه ﴾ .ثم يبين لنا كيف ان يده جذاء من خطبة ثانية﴿ فنظرت فاذا ليس لي معين الا اهل بيتي فضننت بهم على الموت ﴾

فهو اذاً بين امرين لا ثالث لهما : اما المغامرة بما عنده من اهل بيته ، واما الرضوخ للامر الواقع ، الاولى ففيها خطر على الاسلام لا يتدارك فانه اذا قتل هو وآل بيته ارتفع الثقل الثاني من الارض ﴿ عترة الرسول ﴾ وافترق عن عديله القرآن الكريم ، وهناك الضلالة التى ليس معها هداية الى يوم القيامة ، وقد قال النبي ﴿ لا تضلوا ما ان تمسكتم بهما ابداً او لن يفترقا حتى يردا علي الحوض . واما الثانية فان في الصبر على هضم حقوقه اضاعة وصية النبي ، وتعطيل نصبه اياه اماما وخليفة من بعده ؟

فاي الامرين هو اولى بالرعاية لحفظ بيضة الاسلام ؟

وانى لنا ان نتحكم فى ترجيح احد الامرين ، ونعرف الامام واجبه فى هذا الامر ؟ !

وما بالنا نذهب بعيداً ، فانا نعرف ما صنع الامام ، انه استسلم للقوم وبايع كما بايع الناس بالاخير ، وقد قرر الرأي الاخير بعد ان طفق يرتئي بين ان يصول بيد جذاء او يصبر على طخية عمياء عندما قال : ﴿ فرأيت الصبر على هاتا احجى ﴾ فسدل دونها حينئذ ثوبا وطوى عنها كشحا

على انه لا يضيع وجه الرأي على الناظر في هذا الامر ليعرف كيف كان الصبر احجى ، لانه لو نهض في وجه القوم مع قلة الناصر وحسد العرب له وترات قريش عنده ، لكان المغلوب على امره ، وعندئذ يصبح نسياً منسيا ، ولم يما لا يحفظه التاريخ الا باغياً بغى على الدين كأولئك اصحاب الردة فقتل ﴿ بسيف الاسلام ﴾ ، واضيع مع ذلك النص على خلافته . وقد رأيناه مع بقائه حياً وانتهاء الامر اليه بعد ذلك كيف غمط حقه واعلن سبه وبقى الشك فيه الى يوم الناس !

وقد أشار الى ذلك في كلامه لعمه العباس وابي سفيان لما طلبا بيعته ، اذ قال لهما ﴿ افلح من نهض بجناح او استسلم فاراح . . . ثم قال : ومجتني الثمرة لغير وقت ايناعها كالزارع بغير ارضه ﴾

حقاً ، لا ينهض في هذا الموقف الا من لا يبالي الا بالحرص على الملك ومطاولة الناس مهما كانت النتائج على الدين والصالح العام وامير المؤمنين احرص على الاسلام من ان يغرر به لامر يقول عنه انه (ماء آجن ولقمة يغص بها آكلها) . ولا يساوي عنده زعله التي لا تسوي

درهما ، الا اذا كان يقيم حقاً او يدحض باطلا . ولذلك ، ينصح الناس في كلامه الذى اشرنا اليه مع العباس وابي سفيان ، وهما يحثانه على قبول البيعة ؛ فيقول : (شقوا امواج الفتن بسفن النجاة وعرجوا عن طريق المناظرة ؛ وضعوا عن تيجان المفاخرة)

وكأنه في كلامه هذا يحس منهما اذ دعواه لهذا الامر الانفة من الخضوع لاخي تيم ، و (تيم) على حد تعبير ابي سفيان اقل حي في قريش ، فهما ينظران الى الامر من ناحيته القبيلية ؛ والعصبية الجاهلية . اما فقهه هو فكما قال من كتاب له في جواب معاوية في خصوص هذا الامر : ﴿ وما على المسلم من غضاضة في ان يكون مظلوما ما لم يكن شاكا في دينه ﴾ ، وهو غير فقههما ، فان العباس مشى اليه ابو بكر وجماعة ليلا ، لما عرفوا موقفه ، فاطمع في الخلافة له ولولده ، بعد نقاش انتهى بالاعراض عن النزاع . واما ابو سفيان فقد نقل ابن ابي الحديد (١ ٣٠٠) وغيره ان عمر كلم ابا بكر فقال ان ابا سفيان قد قدم وانا لا نأمن شره ، فدفع له ما في يده فتركه . وكان ابو سفيان قد بعث قبل وفاة النبي على الصدقات

ثم لنفترض ثانياً انه ما كان ليقتل لو ناهض القوم ولكن مع ذلك فالصبر على ترك حقه كان احجى واجدر لان منازعتهم كانت — لا شك — تجر الى الفتنة وتبعث على الفرقة ، والاسلام بعد لم يتغلغل في نفوس العرب ولم يضرب جرانه في الجزيرة ، وقد اشرأبت الاعناق للانتقاض عليه ،

فهو اذ وطن نفسه على ما هو امر من طعم العلقم كما يقول بالتنازل عن حقه ، كان يخاف ويخشى ، ولكن لا على الحياة — وهو هو ابن ابي طالب في شجاعته واستهانته بالحياة ، الذى كان يقول : والله لو تظاهرت العرب على قتالي لما وليت عنها — بل كان خوفه على الدين من التصدع وعلى جامعته من التفرق ، فسالم ابقاء لكلمة الاسلام وانقاء للخلاف والشقاق فى صفوف المسلمين فيرتد جميعاً على اعقابهم والمفروض ليس عنده القوة الكافية لاظهار كلمة الحق واقامة السلطان .

وهو يشير الى هذا الخوف فيما يقول في هذا الصدد من خطبته في النهج : ﴿ ما شككت في الحق مذ رأيته لم يوجس موسى عليه السلام خيفة على نفسه . اشفق من غلبة الجهال ودول الضلال اليوم توافقنا على سبيل الحق والباطل من وثق بماء لم يظمأ ﴾ فهو في هذه الكلمة يتأسى بموسى عليه السلام اذ رموه بالخيفة ولكن فرقا بين الخوف على الحياة والخوف من غلبة الباطل . وهذا افضل تفسير لقوله تعالى ﴿ فاوجس في نفسه خيفة ﴾ وفيه تبرئة لنبي الله من الوهن والشك وما ادق معنى كلمة « من » وثق بماء لم يظمأ ، بعد تقديم قوله « ما شككت في الحق مذ رأيته » وقد رأى الحق وهو ابن عشر سنين !

ويوضح لنا ذلك جوابه المشهور لابي سفيان لما جاءه مستفزاً على ابي بكر وهو يقول : « فو الله لئن شئت لأملؤها خيلا ورجلا » وانت تعرف ما قال له الامام انه قال : « انك والله ما اردت بهذا

الا الفتنة وانك والله طالما بغيت للاسلام شراً لا حاجة لنا في نصيحتك » ما اعظم هذه الصرامة والصراحة منه لمن يريد ان يبذل نفسه وقومه في ظاهر الحال ناصراً ومعيناً على خصومه وهو يشكو فقد الناصر نعم ان الدين الذى بذل له مهجته كان عنده فوق جميع الاعتبارات وان استهان به غيره وقد رأينا ابا سفيان كيف اسرع في الرجوع عن رعده ووعيده لما تركوا له ما في يده . وامير المؤمنين قد صرح بغرضه هذا بعد ذلك في جوابه الذى اشرنا اليه عن كتاب معاوية كما في النهج والعقد الفريد اذ قال عن إبائه على ابي سفيان « حتى كنت انا الذي ابيت لقرب عهد الناس بالكفر مخافة الفرقة بين اهل الاسلام »

سلوكه مع الخلفاء

اما وقد تركنا الامام يغضي عن حقه ويقرر بالاخير خطة الصبر على ما فيها من قذى وشجى فماذا تراه يتخذ من خطة في سياسته وسلوكه مع الخلفاء : أيستسلم فيسرع الى بيعتهم كسائر الناس ويعمل لهم كما يعمل باقي المسلمين ام يسلك بقدر ما تسمح به الضرورة وتقتضيه المصلحة الدين ؟

قد أبى بعض المؤرخين من القدماء والمحدثين الا ان يصور الامام مسالما الى ابعد حدود المسالمة فيسرع الى البيعة عن طيبة خاطر ورضا بمن نصب لها ولكن البحث الصحيح يأبى علينا ان نسلم بهذا

التسرع في النقل او الحكم : فقد ثبت تاريخا ان علياً لم يبايع ابا بكر الا بعد موت فاطمة بضعة الرسول وفي تقدير ابن الاثير في تاريخه والبخاري ومسلم في صحيحهما وغيرهم انه ستة اشهر وفي كل هذه المدة هو جليس بيته لم يشترك في جماعة ولا جمعة ولا امر ولا نهي ولم يسمع له صوت في حروب الردة وغيرها . واكثر من ذلك كان يطرق ابواب الانصار واهل السوابق ليلا حاملا معه فاطمة والحسنين يدعوهم الى نفسه ويذكرهم عهد رسول الله صلى الله عليه وله وهذا ماجعله معاوية من ذنوبه في كتابه اليه السابق الذكر . ثم انه كان يقرعهم بالحجة وينيرلهم طريق الحجة ذلك قوله المتقدم « فلما قرعته بالحجة »

وهل يظن الظان انه كان يحاول في هـذا العمل ان ينحولوا في البيعة وان يتركوا ما ابرموه وهو الذى اسدل دونها ثوبا وطوى عنها كشحا ورأى الصبر على ذلك احجى وهو الذى يدعوه العباس وابو سفيان الى البيعة فيأبى ان هذا الاباء وذاك الصبر لا يجتمعان مع تلك المحاولة والدعوه الى نفسه ما لم يكن يرمى الامـام من وراء ذلك الى غرض اسمى مما يظن ، انه كان يقيم الحجة في عمله على اولئك الناس ويفهمهم خطأهم فيما ارتكبوا وتكبهم عن الحق فيما اسرعوا والى ذلك يشير فيما قال «اللهم انت تعلم انه لم يكن الذى كان منا منافسة في سلطان ولا التماس شيء من فضول الطعام ولكن لنرد المعالم في دينك ونظهر الصلاح في بلادك »

ويؤخذ من طيات التاريخ انه لم تأخذه هوادة في الدعاية والدعوة الى مبدئه اظهاراً لحقه واقامة للحجة على سواه فلا ينكر التاريخ احتماع اصحابه عنده طيلة ايام انعزاله فيعتبره الطرف الآخر كمؤامرة يحاول ابطالها خشية توسعها فيرسل من يفرق القوم المجتمعين فيجتمعون ولا ينكر التاريخ ايضاً تطوافه على الانصار واهل السوابق كما قدمنا . ولا ينكر عدم اشتراكه بأي جمعة ولاجماعة وهو احرص على الشعائر الدينية والواجبات الالهية من ان يجرأ مجترئ على اتهامه بالمساهمة فيها

وهذه المقاطعة وما اليها اعلان صريح برأيه فيما عليه القوم ولذا نرى الخليفة ابا بكر يتذمر من موقف الامام فيعرض فيه من خطبة « يستعينون بالضعفة ويستنصرون بالنساء كأم طحال احب اهلها اليها البغي الا اني لو اشاء ان اقول لقلت ولو قلت لبحت . اني ساكت ما تركت » وفي هذا تخوف مما يظن انه سيقع وتهديد باذاعة امر مكتوم ما ادري — ولا اظن احداً يدري اليوم — اى شيء هذا الامر الذي يهدد الخليفة بافشائه ، والظنون تذهب ولا تقف على شيء معين !

وزبدة المخض : اننا نفهم من كل ذلك ان خطة الامام في حياة فاطمة كانت المقاطعة والدعوة الى مبدئه وان يقعد حجزة الضنين — على حد تعبير فاطمة نفسها — معتزاً بوجودها وقد جاهدت معه في هذا المضمار جهداً له الاثر فيما بعد في تركز مقام الامام في ذهنية المجتمع الاسلامي ولا ننسى خطبتها البليغة التي يرن صداها الى اليوم

ولذا نراه بعد وفاتها يبدل خطته ، فيبايع ، ويبايع معه اهل بيته واصحابه ، ويدخل فيما يدخل فيه القوم . ولكن الى حد محدود بقدر ما تحكم به الضرورة الدينية للاحتفاظ بالجامعة الاسلامية . لنسمعه يحدثنا هو عن تبديل خطته في كتابه الى اهل مصر : « . فامسكت يدي ، حتى رأيت راجعة الناس قد رجعت عن الاسلام يدعون الى محق دين محمد صلى الله عليه واله ؛ فخشيت ان لم انصر الاسلام واهله ان أرى فيه ثلماً او هدما تكون المصيبة به علي اعظم من فوت ولايتكم . . »

ولم تكن نصرته للاسلام واهله الا سكوته عن حقه ومتابعته للقوم ، ونصيحته لهم في موقع النصح ، والا فلم يشترك معهم في طعنة رمح ولا ضربة سيف في جميع المواقف الى يوم بويع بالخلافة

وماذا يظن الظان فى من جاهد وجالد في سبيل الاسلام عشرين عاما ، وفي كل هذه المدة كان سيفه يقطر من دماء المشركين ، ولم تثر حرب الا وهو ابن بجدتها ، وحامل لوائها ، ومقطر ابطالها ، والمقذوف في لهواتها ؟ ماذا يظن الظان فيه عندما يجلس حلس البيت عن هذا الدين الذى قام بسيفه ، وقد تألبت العرب عليه واشرأبت اعناق النفاق ؟ والجهاد فرض من فروض الاسلام ، أكان ذلك زهداً في الجهاد وتواكلا عن الواجب ، ام ماذا ؟ أهناك غير ما نقول من رأيه في المقاطعة الا ما تدعوا اليها ضرورة المحافظة على الجامعة

وقد يقول القائل : ان الخلفاء هم الذين لم يدعوه الى الدخول

معهم في الحروب والاشتراك في الحكم لمصلحة يرونها ، وما كان يجب عليه ان يقدم نفسه متبرعا كما لم يدع الى ذلك جميع الهاشميين ، ولم يسمع ان هاشمياً اشترك في حرب او حكم في عهد الخلفاء الثلاثة .

ويشهد لذلك المحاورة (١) بين الخليفة عمر بن الخطاب وبين ابن عباس حينما يدعوه الى العمل في حمص ، فيقول لابن عباس : « وفي نفسي شيء لم أره منك واعياً في ذلك » ثم يصرح بذلك الشيء : « اني خشيت ان يأتي علي الذي هو آت وانت في عملك فتقول . هلم الينا ولا هلم اليكم دون غيركم اني رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم استعمل الناس وتركك »

فيقول ابن عباس فلم تراه فعل ذلك ؟

فقال عمر : والله ما ادري اضن بكم عن العمل ، فاهل ذلك انتم ، ام خشي ان تبايعوا بمنزلتكم منه ؛ فيقع العقاب ولا بد من عتاب ؟

وعندئذ يمتنع ابن عباس عن قبول العمل ويقول : ان اعمل لك وفي نفسك ما فيها لم ابرح قذى في عينيك

أليست هذه المحاورة شاهداً على ان الخلفاء هم الذين كانوا يمتنعون عن استعمال بني هاشم خوف ان يستغلوا مناصبهم للدعوة الى انفسهم؟

وللمحيب ان يجيب ، فيقول ان امتناع الخلفاء عن استعمال علي وبني هاشم — إن صح — فهو دليل آخر على سيرة الامام معهم ، واستعماله خطة يخشون معها ان يأخذ وقومه ناصية الامر ان تولوا

(١) راجع مروج الذهب (١ : ٤٢٧)

عملا من الاعمال على انا لا نعدم شاهداً ان علياً هو الذي يمتنع عن قبول اعمالهم ، فلنسمع الى الحديث الذي يجري بين الخليفتين عمر وعثمان

يشير عثمان على عمر : « ابعث رجلا — اي لحرب فارس — له تجربة بالحرب ومضربها »

عمر : من هو ؟

عثمان : علي بن ابي طالب !

عمر : فالقه وكلمه وذاكره ذلك ، فهل تراه مسرعا اليه ؟

فيخرج عثمان ، ويلقى علياً ، فيذاكره فيأبى علي ذلك ويكرهه

تأمل استفهام عمر وشكه في قبول علي ، ثم امتناع علي وكراهيته للامر ! وماذا نستنتج من ذلك ؟

من هذا وامثاله نعرف لماذا كان علي عليه السلام يتبع في سيرته مع القوم ، وماذا كان يجري في معاملته معهم ، حتى كان يخفت صوته في جميع الحروب والمواقف ، وكأنه ليس من المسلمين او ليس موجوداً بينهم ، وهو منهم في الرعيل الاول ، اللهم الا صوته اذا استشير ونبراس علمه اذا استفتي ، حتى اشتهر عن عمر كلمته ﴿ لولا علي لهلك عمر ﴾ او ﴿ لا كنت لمعضلة ليس لها ابو الحسن ﴾

وتتبع استشاراته واحكامه في كثير من الوقائع يخرج بنا الى موضوع آخر يحتاج الى محاضرة اخرى كما اني احس التوفيق من الله تعالى ان يهيء لي متسعا آخر من الوقت للبحث عن موضوع

آخر بقى لي عن علاقاته الشخصية مع كل واحد من الخلفاء
وافارقكم على ذلك فالى الملتقى في فرصة اخرى ان شاء الله تعالى

محمد رضا المظفر

حديث الدهر

الشيخ حميد السماوي علامة جليل ومصلح ديني له مقامه الهام في عالم الارشاد في بلدة السماوة وهو اليوم علم من اعلام الشعر في العالم العربي ويعد بحق زعيما من زعمائه الافذاذ اهم في حفلة الغدير التي اقامتها اللجنة في هذه السنة بهذه القصيدة العصماء ونظراً لقيمتها وتأثيرها على الجمهور رغب جماعة الى اللجنة ان تلحق بهذا الاسبوع والشيخ اليوم عضو شرف في اللجنة

تراءت وجنب الافق ما انفك نائيا ... محاضير تطوى عالما مترامي
اذا ما اقامت شاخصا في طريقها ... اليك تخطته لتنصب ثانيا
تخال جبين الأفق اسفع قاتما ... وتحسب وجه الارض اجرد عاريا
فما ابصرت من جانب الطور جذوة ... ولا سمعت من عالم القدس حاديا
شأت حيث شاءت في الخيال فلم تجد ... لها من جراحات الحقيقة آسيا

***

هي النفس ان جاشت تجيش عواطفا ... وتجمح اهواء وتطغو امانيا
وان ركدت خلت العوالم ركداً ... كأن السما سدت عليها المجاريا

ثأرت لها منها فكم من خليقة ... لها رغم اشفاقي حميت المكاويا
وقفت لهـا خصما ألد وطالما ... جلست لها في معرض الحكم قاضيا
فما هي ان حصت قوادم بغيها ... بتاركتي حتى احص الحوافيا
تدب اذا دبت بجنبي عقاربا ... وتنساب اذ تنساب حولي افاعيا
طوت صفحة العهد القديم وسجلت ... على صفحة العهد القديم الماسيا
فكم منهل للحق اضحى مرنقا ... وقد كان لماع الجوانب صافيا
وثوب على قداحكم المجد نسجه ... فاصبح من كر الجديدين باليا
اعلل نفسي ساعة بعد ساعة ... وهل تذهب الساعات الا ثوانيا
فهبني رشيداً استفز مشاعري ... والا فهبني لا ابا لك غاويا
اذا انا عرفت الحوادث من انا ... فما هي الا ان تثوب كما هيا
اكر اذا ما الدهر كرت خطوبه ... فما زلت معدياً علي وعاديا
ساخلع من نفسي عليك حنانها ... وألبس قلباً للحوادث قاسيا
واشدو بليلاها فليلاى لم تجد ... لها بعد اخفاقي طبيباً مداويا
لئن أصدأت مرآة عقلي فطالما ... صقلت لها في الروع عضباً يمانيا

***

كفى بك جهلا ان تراني شاعراً ... وبي عطلا ان كنت بالشعر حاليا
ولكنها آهات نفس تفاعلت ... جواهرها حتى استحالت قوافيا
فما ملئت بالترهات حقيبتي ... وما افرغت مخلاة فكري مساويا
ترفعت عنه اذ تزلف ضارعاً ... وعفته لما تجور عاتيا
لبكم جاهكم موفورة قد تركتها ... فهل لكم ان تتركوني وجاهيا

لحسبي ظمى ان لا أرى لك منهلا وحسبك ريا ان تراني ضاميا

***

بعدت عن المرمى رويدك فائد الى اين تجتاح الربى والفيافيا
اثر رهج النادي اذا اكتظ حفله وان وحم الشادي فكن انت شاديا
فما هو الا ان يهج مدائحاً بذكرى على او يبج مراثيا
فكم حمحمت حول الفري وانشدت تقدست يا وادي ابن عمران واديا
ترابك اكباد تداف وانما نسيمك ارواح تهب عواديا
ترفعت فوق الفرقدين كأنما بدا لك من آياته ما بدا ليا
اجشمه المسعى فينساب ناكصاً على الرأس اعظاما وقد كان طاغيا
فهذا علي فوق كرسي مجده يرتل صوت الحمد سبعا مثانيا
تغشاه من عرش المهيمن هيكل اعاد لنا السبع الطباق ثمانيا
وهذا على والا هازج باسمه تشق الفضا النائي فهاتوا معاويا
اعيدوا ابن هند ان وجدتم رفاته رفاتا والا فانشروها مخازيا
فهذي بواديه تضج وهذه حواضره بالظلم عادت بواديا
ليعلم من أرسى على العدل عرشه فاصبح محبوك الجوانب راسيا
ابا حسن ان رعوا بك دستهم فيوشك ان يمسي كما شئت خاويا
اذا الملأ الاعلى تحدر بالثنا عليك فما شأني وشأن ثنائيا
فانت حديث الدهر ما زلت طافحاً على فمه تروى وما زال راويا
وانت حديث الدهر مهما تناسلت لياليه اياما وآبت لياليا
اقمت له صرحا من المجد شامخا وألبسته برداً من الحمد ضافيا

اذا ضل عنك العقل لم يلق مرشداً ... وان حار فيك الفكر لم يلف هاديا
وهل متناهي اللفظ يدفعه الثنا ... ليحمل معنى منك لا متناهيا
ولكنها الألفاظ مهما تناسقت ... اذا لم توف المدح عادت اهاجيا
لئن اطنبت فيك الرواة واوجزت ... فما انت الا انت كالشمس ضاحيا
وما مدحتي توليك مجداً وانما ... ارد باطرائي عليك الطواريا
لئن تغل بالشحنا عليك مراجل ... فلست اذا وحدت ذاتك غاليا
سلوها فقد طافت عليها عوالم ... اهل وجدت للجوهر الفرد ثانيا
أبوا ان يذوقوا من (غديرك) نهلة ... وقد كان تيار الحقيقة طاميا
أليس رسول الله افصح معربا ... هناك وسر الله اصحر باديا
ولكن جبار القضا ابرم القضا ... فعاد به قلب الحوادث داميا
فلست ترى غرس الرسالة يانعاً ... اذا لم يكن جذر الخلافة ناميا
ستبقى مدى الايام لغزاً مؤبداً ... وان حللت ألغازها والاحاجيا

***

عبد الحميد السماوى